رواية

مدام خياط

قصة امرأة صنعت تاريخ

سمير زكي

obeikandl.com

سمير زكي
مدام خيّاط
١٦٥٨٠/ ٢٠١٤ط١
الترقيم الدولى / ٤- ٨٩ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
غلاف / سارة سليمان
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام أ. إيمان سعيد
رئيس لجنة قراءة د/ سالم ابراهيم سالم
مدقق لغوي أ/ أحمد عبد العظيم
المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين
كفر عبده - الإسكندرية
ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧
: ٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢
Dar.lilitte@gmail.com
lilettepublishing@gmail.com

obeikandl.com

تنويه

جميع الشخصيات والمواقف التي ذكرت داخل الرواية هي من خيال المؤلف ولا صلة لها بالواقع حتي وإن وجد تشابه أو تقارب فهذا من قبيل المصادفة البحتة وليس إلا.

المؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

تشرق الشمس من جديد كما غربت من وقت ليس ببعيد، وتتوالى الشموس والأقمار في الظهور يومًا تلو الآخر على قرية الطين، تلك القرية المتواجدة بصعيد مصر الداخلي حيث يعم الهدوء والسكينة فلا يوجد هناك أي شيء يلفت الأنظار؛ وكأنها قطعة انطويت على نفسها من العالم واتخذت بلادنا مصر مكانًا لها لتنزوي على نفسها.

فلاحون بسطاء كادحون يعملون في كنف بعض البشوات والبهوات المسيطرين على البلاد ولا يستطيع أحد أن يتكلم، الكل صامت ويا بختك وحظك إذا كان البيه أو الباشا الذي تعمل لدى طيب القلب؛ أصبحت حياتك كفلاح مقبولة ومعتدلة. أما إذا كان أرباب السلطان من أصحاب ساكي الجحيم فتأكد يومها أن أيامك بل حياتك كلها قد تحولت إلى جحيم وهذا حال قريتنا التي هي جزء من مصر ومصر ليست ببعيدة عن مصير قريتنا.

بشر غلبهم جهلهم وفقرهم ومرضهم واحتلالهم؛ يرفعون وجوههم المكفهرة إلى الله سبحانه وتعإلى ملتمسين أي بادرة أمل في تلك الحياة، ولكن السماء تمطر في حينه وتجف في حينه وكل شئ بإذنه. هكذا ينام فلاح قرية الطين على حلم أنّ غدًا ستتعدل وسيكون أفضل وهو وحظه، يا تعيس، يا بسيط لكن مش ممكن هيكون وزير أو أمير. دة كبيره يبقي غفير ويتوب عليه ربه من شغل الغيط، يوم وراء يوم تجيب شهر وتعدي السنة وتخلص أيامه وإما أن يترك أحدًا ورائه يحمل اسمه، يا إما زي ما أتي زي ما راح، ولن يسأل عليه أحد في قريتنا أو يتذكره.

وفي أحد جوانب القرية نجد قصور البهوات والبشوات كبار وأعيان القرية الذين بحسبهم عايشين ولكلامهم سامعين. هناك منهم الخبيث والعزيز، قصر "زايد بيه مرجان"، قصر "نصر الدن باشا الخناجري"، قصر "خالد بيه كستبان"، قصر"كاراس باشا الكسان" وعلى جنب كدة سنجد قصر "خياط باشا"، قصر شيد على الطراز المعماري الأندلسي تحت إشراف مهندس تم جلبه خصيصًا من الشركة البلجيكية للإسكان والتعمير بمنطقة مصر الجديدة التيملكها البارون «إمبان" وبعد أن تم أخذ تصريح من البارون شخصيًا وقتها تم انتداب مهندس بلجيكي للعمل على تشييد قصر "خياط باشا" بقرية الطين وبالفعل شيد المهندس تحفة معمارية على الطراز الأندلسي إسوة بقصور وفيلات ضاحية مصر الجديدة التيكانت حديثة العهد وقتها ومرت الأيام وذهب المهندس والباشا أيضًا تاركين ورائهم قصرًا أشبه بالمتاحف العربية شاهدًا على عصر مر وفات وسط قرية الطين. والناظر إلى القصر يجدة درة من درر الفنون المعمارية حيث تبرز الشرفات آخذةً الأشكال الدائرية لتدل على عظمة ووجاهة الواجهات لترصعها الأشكال الهندسية التي يغلب عليها الطابع الأندلسي وفي وسط حديقة القصر الواسعة نافورة جميلة تجذب الأنظار إليها لرونقها حيث تمثال السمكة الذهبية في المنتصف قاذفة المياه الملونة من فمها ومن حولها عرائس البحر متراصة في شكل دائري يبادلنها قذف الماء الملون من أفواهها.

قصرٌ مهيبٌ وسط القصور الفخمة التي تناطحه في الأبهة والفخامة لتدل على سمو الذوق والروعة الفنية المرهفة الحس لدى قاطني تلك القصور؛ فهناك من بني قصره على الطراز الروماني وآخر على الطراز الإسلامي وآخر بسيط الشكل، لكن في النهاية تتوسط كل تلك القصور جسورًا من المودة والرحمة والإخوة الظاهرة للعيان. ومن أحد تلك الأعيان مدام «روجينا خياط» زوجة المرحوم «دوس باشا خياط «.

جلست «روجينا» بحديقة القصر أمامها منضدة وضع عليها فنجان الشاي وقطعة من الكعك، سيدة في أوائل السبعينات من عمرها، تظهر عليها أعراض الشيخوخة بشكل واضح لكن مع كل هذا تبدو قوية الشخصية شديدةالشكيمة لا يبدو عليها

سنها الحقيقي، سيدة أرستقراطية من الطبقة الأولي ابنة باشا لذا فالعز مقامها وآكل الوز مآكلها والحليب الصافي مشربها، تجيد اللغة الإنجليزية والفرنسية بطلاقة.

مدت السيدة يدها متناولة فنجان الشاي مرتشفة منه وهي تسأل «لبيب» كبير خدم القصر ذلك الرجل الستيني العمر، البسيط الذي تربي بذلك القصر منذ صغره حيث كان أبيه كبير الخدم من قبله، عائلة توارثت مهنة الخدمة أبًا عن جد في قصر الباشا "خياط" الله يرحمه.

روجينا: اقرأ يا لبيب أيه المكتوب في جرائد النهاردة.

فتح "لبيب" الجريدة قارئًا للسيدة؛ حيث إنها مع تقدم العمر أصبح خط الجريدة صعب القراءة لها وهي عزيزة النفس ترفض مبدأ ارتداء النظارة الطبية حتي لا تشعر بالعجز وإنما ما زاد عن ذلك في حجم طباعة خط الجريدة تستطيع أن تقرأه جيدًا.

لبيب: الحرب العالمية تشعل أوروبا والقنابل الألمانية تسقط على الأراضي الإنجليزية.

ظهر الانزعاج الشديد على وجه «روجينا» تاركةً فنجان الشاي قائلة بعصبية:

- أنا عارفة كان أيه اللي خلي منير يأخذ رفقة ويطلعوا إنجلترا في الأيام السوداء دي، ربنا يستر ويوصلوا بالسلامة.

نظر «لبيب» بإشفاق إلى روجينا ليَهم بإكمال المقالة، لكنها أوقفته بيدها مقاطعةً إياه لملاحظتها دخول كارته «غاصب خياط « وحضوره على قلبها كالسم، لكن لا مفر من احتسائه، ترجل الشاب الثلاثيني عمرًا، وسيم، قوي البنيان، معتدل القوام. اقترب من مجلس «روجينا» حيث قدمت لها يدها فقبلها وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة قائلًا:

- بنجور يا مراة عمي.
- بنجور يا حبيبي، كومون سافا ماما.
- ماما سافا بيان، أيه آخر أخبار ابن عمي «منير» ومراته الحلوة «رفقة» في انجلترا؟

تنظر «روجينا" باهتمام مقلق إلى وجه «غاصب» الذي جلس مخرجًا علبة السجائر المذهبة متناولًا منها سيجارة أشعلها ليبدأ في التدخين.

روجينا: تشرب شاي معايا.

غاصب: سبقتك يا مراة عمي.

اقترب «لبيب» الذي انسحب عند مجيء غاصب مباشرًا عمله، تقدم منهما وعلى وجهه بشائر الفرح قائلًا في حبور وبيدة ورقة يلوح بها:

- تلغراف يا هانم، لسه واصل دلوقتي، منير بيه والهانم الصغيرة هيوصلوا بعد خمسة أيام.

نظرت «روجينا» بالتلغراف متلهفة قارئة إياه ثم انتقلت ببصرها إلى «غاصب» الذي ظهر على وجهه ابتسامة صفراء مصفقًا قائلًا:

- كدة نشرب شاي حلاوة خبر رجوع منير ومراته.

أنهي "غاصب" زيارته لزوجه عمه التي شعرت بانزياح الهم من أمامها، فقامت باستدعاء «لبيب» موبخة إياه على أنه أباح بمضمون التلغراف جهارة فما من الأخير إلا أن فطن لخطأه معتذرًا بشدة متعللًا بأن الفرحة لم تسعه عند معرفته الخبر لا أكثر أو أقل. اكتفت «روجينا» بتأنيبه متجهة إلى داخل القصر و" لبيب" يتبعها حيث أمرته بأن يجمع لها الخدم جميعهم الذي وصل عددهم إلى حوإلى العشرين ما بين سفرجية وطباخين وعاملين بالحديقة ... إلخ؛ لتبدأ في إلقاء خطبة موجزة مفادها الهمة في إعادة تنسيق القصر والحديقة وكل شيء استعدادًا لوصول البيه ابنها وحرمه المصون. وعليه اتجهت خلية النحل في الطيران محلقة في جميع أرجاء القصر تعمل بهمة ونشاط. والقصر من الداخل يبدو عليه الفخامة بطقم الصالون المذهب طراز "لويس السادس عشر" محيطة به التماثيل الرخامية الملائكية الشكل والفازات الصينية الكبيرة، وعلى الحائط علقت لوحات زيتية للسيدة العذراء وأخري للملاك ميخائيل يحيط بها براويز مذهبة. وعلى قمة المنضدة العاجية الصنع التي تتوسط طقم الصالون موضوع تمثال رخامي ملون للسيد المسيح في شكل الراعي الصالح

وهو تمثال إيطالي الصنع جلبه معه الباشا من آخر رحلة له للفاتيكان. نظرت «روجينا» سريعًا إلى كل تلك الذكريات التي تهافتت على عقلها دفعة واحدة متمنية أن يتم الله على ابنها بالخير من غرض زيارة إنجلترا ويفرح قلبها، انزوت بمكتب زوجها المرحوم الباشا، ذاك المكتب العربي الطراز وعلى جانبي المكتب أباجورتان ذهبيتان من الطراز الفيكتوري جميلتا الشكل. والملفت للنظر جدًا هو صورة الباشا الكبيرة الواقعة خلف المكتب مباشرة وهي لوحة زيتية كبيرة مذهبة البرواز للجد "خياط باشا" جالسًا مرتديًا بدلة التشريفة السوداء ويقف بجانبه في شكل متناسق شابان فارعان الطول قويا البنية تبدو على ملامحهما الرجولة المصرية الأصيلة، ينضح الشباب من لمعان عيونها السوداء ويظهر عنفوان الحيوية على وجوههما القمحية اللون لتسري قشعريرة في جسد الرائي للوحة؛ حيث برع الرسام الفرنسي الشهير الموقع بحروف اسمه أسفل اللوحة أن يخلق روحًا بتلك الأشخاص ليهيء «لروجينا» التي وقفت أمام تلك اللوحة آلاف المرات أنها ستجد أصحابها قد تحركوا تاركين اللوحة من قوة الرسم المعبرة، لقد رسمت تلك اللوحة بباريس عندما كان الباشا وأبناؤه في زيارة لمدينة الفن والنور، وقفت "روجينا" متأملة زمنًا مضي وولي لتقطر عيناها دمعًا صامتًا متذكرة كل شيء كأنه بالأمس القريب وليس منذ زمنٍ بعيد، عندما كان أصحاب تلك الصورة ليس كائنات مرسومة بزيت ملون بل كانوا يلونون هم حياة من حولهم متجولين بأروقة هذا القصر جالسين على كراسيه قابعين في حجرة المكتب، متنزهين بالحديقة، يعملون بكد وهمة ونشاط، ولكن يبقي وراء كل صورة حكاية ولا بد أن تتذكر الحكاية لكي تكون خير خاتمة لنهاية حميدة إن شاء الله. و"روجينا" لا تنسي أبدًا زوجها «دوس» وأخية «وفيق» وما كان بينهما لتتحرك في مخيلتها شخصيات اللوحة خارجة أمامها متحدثة.

دوس: يا وفيق مينفعش اللي إنت بتعمله دة.

خياط: قوله، الولد العاق دة، شوه سمعتنا ونزل اسم العائلة في الوحل.

يظهر الغضب والحنق على وجه «وفيق» قائلًا بعصبية:

- خلاص محصلش حاجة يعني، قرشين وراحوا لحالهم على ترابيزة القمار.

خياط: ترهن فدانين يبقوا قرشين، ما أنت صحيح متعبتش في حاجة.

دوس: اهدأ يا بابا، الحمد لله إن أحنا لحقنا الموضوع وعرفنا نجيب الورق بتاع الرهنية ورضينا صاحبهم بقرشين.

خياط: ولو كانت الرهنية تمت، كان هيبقي حالنا أيه في البلد دلوقتي؟

وفيق: أيه يعني فدانين وسط كل اللي عندنا.

نهض «خياط» من على كرسي مكتبه متجهًا حيث "وفيق" واقفًا ماسكًا إياه بقوة من ذراعيه قائلًا بعصبية شديدة وغضب عارم:

- لما أبقي أموت ابقي أعمل اللي في نفسك.

ترك «وفيق» أبيه بحركة عصبية حيث قذف يد أبيه من على ذراعيه قائلًا باستخفاف وهو يترك الغرفة:

- إن شاء الله تموت وأبقي حر.

نظر "خياط" بغيظ وحنق إلى "دوس" الذي حاول أن يهدأه بينما "روجينا" تسترق السمع من خلف الباب ويبدو عليها سن الشباب ليمر "وفيق" ناظرًا إلهما بغضب وتجاهل تاركًا إياها.

دخل «لبيب» حجرة المكتب قاطعًا حبل الذكريات مخبرًا إياها أن العمدة بالخارج يريد مقابلتها. رجعت «روجينا» من عالم الماضي إلى عالم الحاضر مشيرة إليه بأن يسمح للعمدة بالدخول. لحظاتووقف "الشحات مستور" عمدة قرية الطين بين يديا قائلًا ببشاشة:

- يا صباح الخيرات يا هانم، أنا أول لما سمعت إن البيه هيوصل ومعاه الهانم الصغيرة جيت على طول جري أبارك وأهنئ، يوصلوا بالسلامة إن شاء الله.

نظرت روجينا نظرة ذات معني إلى «لبيب» فما منه إلا أن وضع نظره بالأرض لتقول:

- شكرًا يا عمدة .

obeikandl.com

- والله يا ست هانم إحنا معندناش أغلي منكم ومن منير بيه، إلا بالحق يا هانم

وبدأ العمدة في الاستطراد في الحديث الممل عن حال البلد والفلاحين حتي وصل إلى مطلبه الأساسي من الزيارة، فالحق يقال إنه قادم للتهنئة ولكن تحت عباءة ذلك يوجد مطلبه العزيز على قلبه ولا يجد غير عائلة «خياط» ليطلب منها وبالأخص «منير بيه» ولم يكن هذا المطلب سوى أنه يريد أن يلحق ابنه بالكلية الحربية، وذلك هو أكبر مطلب له ولا يجد سواهم بالقرية لمساندة ابنه لعلمه بعلاقات منير بأهل القصر الملكي وحاشيته بمصر؛ لذا لم يتوانَ في الطلب لتعدة «روجينا» بأنها ستبلغ ابنها عند رجوعه. شكرها العمدة متذكرًا كرم «دوس» باشا وأبيه الباشا الأكبر «خياط» على عائلته وعلى القرية كلها، وأنهم أهل كرم ومروءة وشهامة قارنًا الفاتحة على أرواحهم جميعا، شاهدًا لهم بسيرة حسنة من دار الباطل وهم في دار الحق يتمتعون.ثم وعد الهانم بأن التشريفة ستكون في استعداد لاستقبال البيه والهانم الصغيرة من أول القرية وحتي وصولهما إلى القصر بالسلامة. شكرته «روجينا» على تلك المشاعر الطيبة منه إلى ابنها وزوجته. ودع العمدة الهانم على أمل اللقاء في إلموم الموعود لمجيء البيه.

وصل «غاصب» إلى منزله الواقع بالجهة الأخري من القرية. لم يكن في عظمة وأبهة قصر عمه؛ إنه منزل مكون من دورين لا تظهر على مخارجه أي علامات لأي فن معماري أصيل، بيت مصري عادي وضعت بحديقته الصغيرة جدًا بعض التماثيل الرخامية الفنية. فقط نري ملاكًا هنا، امرأة شبه عارية هناك، لا أكثر ولا أقل.

دخل «غاصب» إلى بهو المنزل ليجد والدته «جانيت» جالسة تحيك الكانفاه بغرفة الصالون، رمقت ابنها بنظرة قاسية باردة لا حياة فيها تلك السيدة السبعينية العمر، النحيلة الوجه، وعيناها قد باتت في محاجرها ساقطة داخل وجهها الممتلئ بالتجاعيد. اقترب منها ابنها مقبّلًا إياها في جبينها لتقول له بصوت مبحوح أشبه بفحيح الأفاعي:

- كنت فين؟

- في بيت عمي.

- وصل حبيب أمه؟
- لسه، هيوصل بعد خمسة أيام.
- أنا مش عارفة ليه مفيش قنبلة من بتوع هتلر تنزل عليه هو ومراته.

دخل عليهم «مراد" ظاهرًا على وجهه الاستياء من سماع كلام أمه، و"مراد" هو الأخ الأصغر لـ»غاصب" شاب في أوائل الثلاثينات من عمره هادئ الطباع، ضعيف الجسم نوعًا ما مقارنة بأخيه الكبير. خاطب «مراد" الجميع قائلًا بوداعة:

- صباح الخير يا جماعة، أنا نازل أشوف حالي.
- نظرت إليه أمه بتجهم شديد قائلة بنبرة حادة:
- على الجمعية بتاعة الست هانم، أنا مش عارفة أمتي هتبقي راجل؟
- تمعن «مراد» في أمه بعتاب شديد ظاهرًا على وجهه قائلًا في ضيق:
- يا ماما، قولتلك قبل كدة الجمعية مش بتاعتها لوحدها، دي جمعية خيرية يعني لأهل البلد كلهم، وفي ناس كتير مساهمة في الجمعية.

قاطعه «غاصب" بحدية قائلًا:

- خلاص يا حبيب الهانم، رد على أمك بأدب، شوف أنت رايح فين وغور.

نظر مراد مدققًا في أمه وأخيه وعلى وجهه علامات الاستياء الشديد فهو واثق تمام الثقة أن لغة الحوار لن تجدي مع كل منهما، فقرر أن يتجه إلى حال سبيله خارجًا من المنزل تاركًا إياهما بمفردهما. ليقوم «غاصب» بالنداء على «سند" الخادم الوحيد الذي يمتلكوه ليأتيَ الأخير ملبيًا النداء مسرعًا ليسأله «غاصب» بعجرفة قائلًا:

- حد سأل على؟
- المأمور يا غاصب بيه.

ظهر الغضب على وجه الأخير قائلًا:

- قلت ألف مرة غاصب باشا يا سند الكلب.
- أمال سند رأسه ناحية الأرض في خجل، ذلك الرجل الستيني العمر، النحيل

الجسم، الضعيف البنية وقد كثرت التجاعيد على وجهه لتدل على خشونة الأيام التي صفعته على خدي بدل المرة آلاف المرات ليخرج منه أنين قائلًا:

- آسف يا غاصب باشا، لكن المأمور سأل على حضرتك النهاردة.
- قال عايز أيه؟
- لا يا باشا.
- نظرت «جانيت» إلى ابنها بحذر وارتياب ومن ثم إلى سند قائلة له:
- روح اعمل لنا اتنين ليمون يا وش الفقر.

ذهب «سند» إلى المطبخ متألمًا لطريقة المعاملة الفظة ناظرًا إلى أكواب العصير الفارغة، متذكرًا يوم المشاجرة العظيمة التي حدثت بين «وفيق» و«دوس» بالقصر الكبير وعلى إثرها افترق الاثنان ليري الأخير أنه لا بد أن يكون لأخيه الأصغر خادم مخلص فاقترح على « سند» أن يذهب مع أخيه إلى منزله لخدمته؛ حيث إنه في الأساس خادم في بيت الباشا الكبير «خياط» إلى أن انتقل إلى رحمة الله، وانتقل القصر إلى دوس الابن الأكبر وحدث ما حدث ليرن صوت «دوس» في أذن "سند" متذكرًا ما قاله له يومًا ما:

- يا سند أنت هتروح مع وفيق بيته وهتخدمه وأي حاجة هيقصر فيها معاك أنا سداد، أنت معانا من زمان وأنت عارف إنيبعزك ومفيش حد أستأمنه على بيت أخويا إلا أنت، أنت يا سند.

ومنذ ذلك الحين و«سند» يخدم عائلة «وفيق» حبًا في عشرة «خياط» باشا ومودة ورحمة «دوس» بيه معه رحمة الله على الجميع الذين ذهبوا بلا عودة، ذهبوا إلى دار الحق. وهو لا زال في دار الباطل يتحمل الإهانات من "غاصب" وأمه، أما الشهادة لله فالنسمة الرقيقة في تلك الزوابع العاصفة ليس سوى "مراد» ذلك الفرع النقي الذي خرج من شجرة فاسدة على حد تفكير «سند» البسيط. قطع أحبال ذكريات الخادم الغلبان صوت «غاصب» زاعقًا مناديًا على الليمون ليخرج بالأكواب واضعًا إياها مبتعدًا راجعًا إلى عالمه الحزين. بينما ارتشف "غاصب" من كوب الليمون المثلج

لينهيه على جرعة واحدة مستأذنًا أمه خارجًا مرة أخري؛ لتظل «جانيت» وحيدة مرة أخري مع بورتريه الكانفاه الذي تحيكه لأسد يفترس غزالا فاتكًا بها، وهي تنظر إلى صورة زوجها الزيتية التي تتوسط غرفة الصالون وعيناها تشعان غضبًا متذكرة الماضي البعيد ومساؤي زوجها القبيحة. تعود بالتاريخ سريعًا إلى الوراء إلى حيث قصر «خياط» باشا وكل من ولدى واقفون بجانبه ويبدو أنها كانت واقفة عند باب القصر تسترق السمع.

دوس: أهدأ يا باشا مش كدة، الخدم هتسمع.

خياط: تسمع! هو لسه حد في البلد معرفش اللي عمله أخوك المحترم ابن الحسب والنسب.

نظر إلهما "وفيق" بتوتر وانزعاج شديدين.

دوس: يا وفيق أنت متأكد أن البنت دي تعرفك.

خياط: تعرفه عز المعرفة، لدرجه أنها دايرة في البلد حته الغازية دي تقول إن الواد اللي في بطنها يبقي ابن أخوك.

وفيق: كذابة وبنت كلب، حتة بنت صايعة هنسمعلها يا باشا.

خياط: المشكله مش فينا إحنا يا عار على اسها، المشكلة في أهل البلد، الناس الغلابة اللي متتبلش على لسانهم فوله.

وفيق: ياخدوا بالجزمة، نولع فيهم.

دوس: أيه الهبل اللي أنت بتقولوا دة يا وفيق.

خياط : سيبه ما هو مقوي قلبه بشوية البلطجية اللي ماشي معاهم من أهل الجبل اللي بيصرف عليهم، وحياة أمك آخرتك هتبقي وحشة، وكمان رايح تأخد ابن محمد باشا السكري، اللي أبوه موصيني عليه قبل ما يموت.

وفيق: أنا مضربتش حد على إيدة.

دوس: لم الدور واقصر الشر يا وفيق.

خياط: يعني جوزناك وقولنا هيتعدل، لكن يبدو أن ديل الكلب عمره ما هيتعدل، أنت ابن عاق، لما تحب تعمل وساختك دي أبقي روح شارع كلوت بك مش في قرية الطين.

نظر "وفيق" شذرًا إلى أبيه ثم تركه خارجًا ليجد زوجته واقفة تبكي بحرقة عند باب القصر فلم يعرها اهتمامًا ماضيًا في طريقه بعنجهية مفرطة.

عادت جانيت إلى مكانها الحالي وقد وخزتها إبرة الحياكة فقامت بوضع أصبعها النازف بالدماء في فمها وبدأت تضغط عليه مستمتعة بالألم.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٢-

- الألم والمعاناة تضرب أوروبا وسط أجواء الحرب العالمية الثانية.
- لا إله إلا الله، عمار يا مصر، كفاية كدة يا أستاذ قلعاوي الله لا يسيئك.

نطق المعلم «الزعتلي" صاحب القهوة الكائنة بوسط القرية وهو رجل قصير القامة ذو كرش ضخم وشنب كبير يغطي فمه ولا يرتدي سوى الجلباب والعباءة في الخمسينات من عمره موجهًا كلامه إلى الأستاذ «قلعاوي" مدرس التاريخ ومدير المدرسة الابتدائية بقرية الطين، رجل أصلع الرأس يرتدي نظارة سميكة جدًا وما يميزه أنه ذو حواجب كثيفة جدًا وصوت جهوري، الذي أغلق الجريدة التي قرأ منها هذا الخبر آخذًا كوب الشاي مرتشفًا رشفة ذات نغمة قوية اسيتمع إليها كل الجالسين بالقهوة. كانوا ينصتون بشغف ليس لصوته وهو يشرب الشاي وإنما لقراءته في أمور العالم داخل الجريدة.

الزعتلي: وبعدين يا أستاذ، هي الحرب دي ممكن تمسك في مصر.

يمر الواد "كبس الهواء" من خلف الأستاذ واضعًا أمامه الشيشة قائلًا بصوت عالٍ فجائي أربك «القلعاوي" نوعًا ما:

- تبقي مصيبة، وإحنا مالنا، دي حرب كبيرة، إحنا مش بتوع حروب، يا حفيظ، يا مغيث.

نظر إليه المعلم بغيظ من أفعاله الطائشة منتهرًا منبهًا إياه بعدم التدخل في الحديث بينما يؤمن على كلامه مرتادو المقهي من الفلاحين والتجار الذين ينصتون إلى كل

شيء في القهوة بدون كلل أو ملل. ولا يوجد غير الأستاذ وقلة قليلة هم الذين يستمدون معلوماتهم منهم بسبب جهل الغالبية العظمي وعدم اكتراث البقية الباقية؛ لذا لا مانع من الاستماع ما دام ببلاش ولا يكلف.

قلعاوي: الله أعلم، محدش عارف بكرة مخبي أيه، هتلر لو استطاع أن يغزو مصر ممكن يقلب موازين العالم.

الزعتلي: طب ومصر أهميتها أيه لهتلر دة.

قلعاوي: مفتاح الشرق الأوسط كله يا معلم، ربنا ميز مصر بمكان متميز وسط البلاد اللي حواليها وثرواتها ملهاش آخر.

كبس الهواء: ثروات! فين، اديني زمرد، ياقوت، ذهب.

عقب أحد الجالسين على حديث "كبس الهواء" كاشفًا عن صفين من الأسنان السوداء القبيحة الشكل:

- هي مغارة على بابا يا ابن الفرطوس.

كبس الهواء: وأنا الشاطر حسن اللي هيسرق المغارة كلها.

نهره «الزعتلي" قائلًا:

- متخليك في شغلك يا عم على بابا أنت وسبنا نتكلم.

بدا على "كبس الهواء" الضيق ليأخذ جانبًا يرتب الشيش.

قلعاوي: شوف يا جح زعتلي الوضع مش واضح لغاية دلوقتي، لكن الإنجليز في مصر شايفين شغلهم ومش عايزين الألمان يخشوا مصر وبتساعدتم الحكومة المصرية في كدة.

الزعتلي: طب ولو دخلت يبقي أيه الحال؟

نظر إليه "القلعاوي" بتمعن مجهزًا على آخر رشفة بكوب الشاي من ثم شدّ آخر نفس بجحر الشيشة قائلًا بهدوء:

الله أعلم يا معلم، الله الحافظ، هنبقي محتلين برضه راحوا إنجليز وجه الألمان.

كبس الهواء: ودقي يا مزيكا.

ضحك جميع الجالسين ما عدا المعلم الذي نظر بغيظ إلى "كبس الهواء" متوعدًا إياه.

قطع ضحك الجميع دخول المأمور، صمت الجميع جامدين في أماكنهم.

المأمور: السلام علكم يا أهل قرية الطين.

قام "الزعلتي" منتفضًا من مكانه محييًا المأمور قائلًا:

وعلكم السلام يا باشا، كرسي يا ابني للباشا.

المأمور: وواحد شاي كمان للباشا.

جلس المأمور بجانب المعلم. أتي الصبي بالشاي مسرعًا فنظر إليه المأمور مبتسمًا على تلك السرعة الرهيبة، بينما حك "كبس الهواء" مؤخرة رأسه مبتسمًا ببلاهة ليزجره المعلم مبعدًا إياه. أخرج المأمور علبة السجائر الخاصة به مشعلًا سيجارة ناظرًا من وراء دخانه إلى جميع الجالسين الذين صمتوا مبادلين إياه النظرات فقط حتي قطع "الزعتلي" الصمت سائلًا المأمور عن سبب تشريفه لهم في المقهي فلم يجد من المأمور سوى ابتسامة تهكم قائلًا:

- وحشتوني يا أهل قرية الطين، وأنا لسه عندي قضية مفتوحة، لازم أعرف مين اللي قتل"أبو ناموسة" "أبو ناموسة" يا بلد.

وقعت صينية المشاريب من يد "كبس الهواء". نظر إليه المأمور شذرًا. قال "الزعتلي":

هو لسه التحقيقات شغالة يا باشا.

المأمور: و أيه إلي هيَخَلّيهَا تِقَف يا مْعلم.

الزعتلي: مش قصدي يا باشا.

المأمور: أحكيلي تاني يا معلم أيه اللي حصل ليلة مقتل "أبو ناموسَة".

نَظَرَ المَعلم بتَمَعُّن إلى المأمور ومِنْ ثَمّ إلى مِنْضَدَةٍ قَابِعَةٍ في أحد أركان القهوة مُستعيدًا ذكرياتِ تلكَ الليلةِ السَوداء التي دَارَتْ وقائِعها في تلك البُقعة مِن القهوة.

كان الوقت ليلًا منذ ما يقارب الشهرين رجوعًا بالزمن إلى الوراء والمعلم جالسًا بنفس مكانه أمام مكتبهِ الصغير الخشبي المميز وأمامه على الجانب الآخر من المقهي جلس "أبو ناموسة" ذلك الرجل المعروف بشهرته القذرة داخل قرية الطين والنجوع والكفور والقري التي من حولها. يتحاشي الجميع التعامل معه فهو من أرباب السوابق، نصاب بالفطرة، حرامي بالسليقة، بتاع الثلاث ورقات. في تلك الليلة جلس يلعب الورق هو وأصدقاؤه السفلة الذين على شاكلته لينفض المقهي من حولهم؛ فلا أحد يريد الاختلاط بهم بمن فيهم المعلم الذي يتمني أن تنقضي الليلة وترحل تلك العصبة السيئة في سلام. ولا مانع من وجود بعض الخساير البسيطة مثل تكسير الأكواب أوالكراسي الخشبية على أدمغة بعضهم بسبب الخلاف على لعب الورق. والمجد كل المجد للكوتشينة التي تقلب الترابيزة على دماغ كل من بالقهوة؛ لذا ابتعد الجميع راحلين ليتبقي المعلم و"كبس الهواء" الذي لا يسلم من لسانهم الطويل ذو السباب وأشنع الشتائم. بدت ليلة طويلة لن تنتهي مثل ما سبقها من ليالٍ، وما إن لعب "أبو ناموسة" ذاك الشخص القوي البنية المكفهر الوجه الذي تعلوه ندوب كثيرة نتيجة جراح اندملت مع نفسها بفعل الزمن تاركة طرقًا وأزقة مرسومة على وجهه لتجعل الرعب يدب في كل من يري ذلك العربيد. أما الجالسون معه فحدّث ولا حرج؛ لا يقلون عنه وحشية وقذارة ليطلق عليهم الجميع لقب أشرار القرية بحق، ومتي حضروا لعنوا المنطقة الموجدين بها. اختلفوا كالعادة فلا بد أن يكون هناك حرامي في وسطهم ولم يكن سوى الأخ "أبوناموسة" الذي صرخ في وجه الحاضرين قائلًا بصوت جموري:

- أنا كسبت يا غجر.
- إزاي يا أبوناموسة، دي سابع بنت تنزل في الكوتشينة.
- أنا الكوتشينة بتاعتي كلها بنات، البنات يحبوني، حكمة ربنا.

نظر الرجال الأربعة الجالسين حوله باستغراب ليكمل الرجل الذي يهاجمه قائلًا:

- أنت حرامي يا أبو ناموسة.

تدخل المعلم لتهدئة الوضع حتي لا ينقلب الوضع لمشاجرة لا يحمد عقباها وستكون الخسائر على حساب صاحب المقهي ليقول صائحًا:

- لا إله إلا الله، صلي على النبي يا أخونا، استهدَ بالله يا أبوناموسة.

نظر "أبوناموسة" إلى المعلم شذرًا ثم بصق على الأرض قائلًا:

- خليك في نفسك يا زعتلي.
- بدا على المعلم الضيق لكنه ابتسم محاولًا إخفاء امتعاضه قائلًا:
- طب متزعلش نفسك، وعمومًا الوقت تأخر يا رجالة، تعالوا كملوا بكرة.

نظر إليه جميع الجالسين حيث إنه لم يتبقَ سواهم بالمقهي ليطلقوا ضحكة ساخرة مجلجلة ثم نادي "أبو ناموسة"على القهوجي آمرًا إياه أن يأتي بدور شاي ويغير حجر الشيشة. نظر "كبس الهواء" إلى المعلم الذي أشاح له بأن يفعل ما يريدون حتي يقصروا شر تلك الليلة النحس.

لم يكد يكمل "أبو ناموسة" اللعب حتي انتفض أحد عصبته موجهًا حديثه إليه قائلًا:

- لا أنا مش لاعب، أنت ابن كلب حرامي.

انتفض "أبو ناموسة" من مكانه سريعًا ماسكًا بتلابيب جلباب هذا الوغد الذي تجرأ وأهانه ودارت معركة حامية، لكمة من هنا، روسية من هناك حتي فجأة سُمع دوي طلق ناري لينتفض جسد "أبو ناموسة" كله وتجحظ عيناه بمحاجرها واقعًا على منضدة القهوة كلوح اللطزانة وقد فارقت الحياة جسده.

لم يصدق أحد من المتواجدين ما حدث ولم يعرفوا مصدر ذلك الطلق الناري الذي اخترق ظهر "أبو ناموسة". فر الجميع فهم كلهم أرباب سوابق ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون والابتعاد عن المشاكل من مثل تلك الأنواع لهو أحسن طريق لاجتناب المصائب، هم مشاغبون من نوع آخر ولكن أن تصل لحد القتل وسفك الدم فتلك ليست طريقتهم، وفي غمضة عين تفرق كل من في المقهي ولم يتبقَ سوى "الزعتلي" و"كبس الهواء" الشاهدان الوحيدان على الواقعة، واقعة قتل "أبو ناموسة".

أنهي المعلم سرد القصة للمرة العاشرة على مسامع المأمور الذي أنهي كوب الشاي

وتحت أقدامه ما يبلغ عدد خمس أعقاب سجائر ناظرًا إلى المعلم بتمعن قائلًا:

- بس كدة، يعني مفيش حاجة تاني ناسيها يا معلم.

الزعتلي: أعدمك يا باشا لو كان في حاجة تاني.

التفت المأمور ناظرًا إلى جميع من بالمقهي سائلًا إياهم:

- وأنتم يا أهل القرية تعرفوا حاجة تاني غير اللي قالها المعلم.

لم تظهر أي بوادر حياة من أهل القرية البسطاء. قام المأمور من مجلسه خارجًا من المقهي وما أن وصل إلى الباب الخشبي حتي التفت مواجهًا جميع الجالسين قائلًا:

- اللي يعرف القاتل يبلغه إني هاجيبه، أنا فكري الركيب مأمور نقطة قرية الطين ولما بركب على حد مبنزلش أبدًا، اتفقنا، سلاموا علكم.

أكمل المأمور سيره آخذًا حصانه مغادرًا من أمام المقهي والجميع ينظرون إلى بعضهم البعض حتي مرت "المربوطة" تلك السيدة المجذوبة السبعينية العمر التي يخاف منها أهل القرية، سيدة قصيرة القامة ملابسها ممهلة، رائحتها كريهة، تلف رأسها بمنديل فقد لونه حيث كان له يومًا ما لون، لا يعلم أحد متي حلت تلك السيدة بالقرية، تلك المشعوذة، مسيحيو القرية يعتقدون أنها ملبوسة من شيطان أما المسلمون يعتقدون أنها ممسوسة من جني أو عفريت أو ما شابه ليتفق الجميع على الخوف منها وتفاديا في الطرقات إن ظهرت. ليس لها وقت أوميعاد بل تظهر فجأة، لا يُعرف لها مسكن أو ملجأ وإنما تذهب إلى أي مكان بنواحي القرية بتلك المناطق المهجورة آخذة منها ملجأ لها. ولم يجرؤ أحد من أهل القرية أن يذهب إليها ويبحث عنها بتلك المناطق خوفًا منها لقوتها ومعرفتها بواطن الأمور. لا يستحب أن تعاديا، تنتشر الكثير من القصص المرعبة حولها؛ فقد أُثر عن العواجيز من أهل القرية أنها في ريعان شبابها كان متزوجة من جني وحاول رجال البلد ذات ليلة قتلها فافترسهم دبٌ ضخم. وبقيت أسئلة وألغاز كثيرة ، من أين جاء الدب؟ وأين ذهبت جثث تلك الرجال الذين هاجمهم الدب؟ وأين ذلك الزوج الجي؟ قصصًا كثيرة انتشرت لتجعل "المربوطة" أسطورة الخوف في قلوب أهل القرية التي ظلت تنمو وتنمو حتي

أصبحت لا تقهر.

اقتربت "المربوطة" من المقهي ليتجمد الجالسون في أماكنهم لا يعرفون إلى أين يذهبون؛ فهي واقفة على باب المقهي الخشبي وقد انتشرت رائحتها الكريهة لتغطي على رائحة دخان المعسل والشاي المغلي والقهوة المظبوطة، همت بالتحدث بصوتها الخفيض قائلة:

- أيه يا بلد مفهاش رجالة، محدش هيعزم بكوباية شاي.

تبادل الجميع النظرات بحذر مبالغ فيه؛ فآخِر واحد عزمها على كوب شاي لم يمر عليه يومان إلا واكتشفوا جثته بالترعة؛ إن الجني زوجها يغار عليها ولا يجعل أحدًا يشملها بعطفه إلا هو فقط، هكذا يظن أهل القرية.

دخلت "المربوطة" المقهي وأخرجت من صدرها قرش رامية إياه على منضدة المعلم وهي تصيح بقوة:

- واحد شاي يا عجر.

تطلع إليها "الزعتلي" مليًا ومن ثم نظر إلى "كبس الهواء" مشيرًا له بسرعة لإحضار كوب الشاي إليها، ظلت تحدق فيهم حتي جاء الشاي إليها. وضعه "كبس" أمامها على المنضدة فأخذت الكوب وهمت بالانصراف، ثم عادت والتفت إلى مرتادي المقهي مرة أخري صائحة قائلة:

- يا بلد النخوة والرجولة راحت منك، ورجالتك صبحوا نسوانك ونسوانك صبحوا رجالتك.

ضحكت "المربوطة"ضحكة هيستيرية تاركة المكان كله وجميع الرجال جالسين أنظارهم معلقة بها وهي تبتعد وصوت ضحكها يذهب معها رويدًا رويدًا. ولم يخرجهم من صمتهم سوى وقوع كلوب معلق محدثًا صوتًا ضخمًا إثر اصطدامه بأرضية المقهي، قام الكثيرون تاركين القهوة بعد هذا الحدث الفجائي شاعرين بأن لعنات "المربوطة" قد حلت معها.

نظر المعلم إلى الصاغ الذي تركته "المربوطة" إنه جديد ويلمع كمادة نقودتا دائمًا فأخذه بحذر واضعًا إياه في البرطمان الخاص بنقود «المربوطة" التي يخاف المعلم أن ينفقها مفضلاً الاحتفاظ بها حتي إذا عادت للمطالبة بها في يوم من الأيام يعطيها كل أموالها التي شربت بها شايًا. واعتقاد "الزعتلي" نابع من إيمانه الشخصي بأن تلك النقود شيطانية لا غش فيها، فتلك "المربوطة" لا عمل لها وهو واثق كل الثقة أنه لا أحد يعطف عليها من أهل القرية ولا يعلم إذا كانت تذهب إلى ما حولهم من نجوع وقري لذا فهي بلا دخل يذكر. إذن من أين تحصل على كل تلك الأموال؟ أيعقل أن يكون الجني والعفريت هو مصدر رزقها. استغفر المعلم ربه مفضلًا التوقف عن التفكير بتلك الطريقة وكعادة "المربوطة" فإن كوب الشاي الفارغ لا يعود مرة أخري إلى المقهي.

- قهوة سعادتك أيه يا باشا.

تطلع "غاصب" إلى الشاويش "شمندورة" بتمعن وهو جالس بداخل مكتب المأمور الذي لم يكن متواجدًا في وقت زيارة "غاصب" له ليقول الأخير:

- سادة، هو سعادة المأمور هيتأخر.

الشاويش: أبدًا يا باشا، هو سعادته لو كان عندة علم إن سعادتك على مجيء كان استني معإلك، لكن معلش، هو مبيتأخرش بره عمومًا، بعد إذنك أعمل لسيادتك القهوة.

جال "غاصب" ببصره داخل مكتب المأمور ليتفحص صورة الملك "فاروق" مليًا المعلقة على الحائط خلف مكتب المأمور. حجرة بسيطة لا يوجد بها سوى مكتب خشبي بسيط وطقم كراسي خشبية ووضعت لافته خشبية على مقدمة المكتب منقوش عليها اسم المأمور « فكري الركيب». أخرج غاصب علبة السجائر الذهبية الخاصة به المحفور عليها اسمه بالكامل ليشعل سيجارة ملفوفة مسبقًا منفثًا دخانها في هواء الغرفة بملل شديد حتي دخل عليه المأمور فجأة، فنظر كلاهما إلى الآخر بتمعن شديد. عليها تقدم "فكري" من "غاصب" ملقيًا السلام ولم يكن من الأخير إلا أن

بادله السلام وهو يطفئ السيجارة بالأرض هارسًا إياها بقدمه. جلس "فكري" بمكانه وراء مكتبه خالعًا القبعة مجففًا بمنديل قماش عرق رأسه النازح على وجهه. دخل "شمندورة" بالقهوة واضعًا إياها أمام "غاصب".

فكري: يا حلاوة، وكمان قهوة، دة سعادتك بقالك كتير قاعد.

غاصب: مش كتير ولو على القهوة اتفضل حضرتك.

فكري: ودي تيجي يا غاصب أفندي، دة إكرام الضيف واجب، اتفضل اشرب.

نظر "غاصب" بغيظ وحنق إلى «فكري» لذكره كلمة أفندي تلك.

غاصب: شوف يا فكري.

قاطعه "فكري" قائلًا:

- فكري باشا لو سمحت، فكري باشا.

جز "غاضب" على أسنانه قائلًا بغيظ:

- شوف يا فكري باشا، أنا جيت حسب طلب سعادتك.

فكري: ودة العشم يا غاصب..(انتظر قليلًا ليري رد فعل غاصب ثم استرسل مكملًا) بيه .. دة العشم.

ظهر الارتياح نوعًا ما على وجه "غاصب" الذي يعلم تمام العلم أنه لا يمتلك لقب البهوية، ولكن ما بإلد حيلة فهو يريد أن يفرضها على كل من يتعامل معه من قريب أو بعيد و"فكري" يهوي اللعب بأعصابه وإثارة غيظه دائمًا ولا يجد من "غاصب" إلا الحنق ومن ثم يعود "فكري" ليعدل دفة المركب معطيًا إياه ما يريد ذاكرًا لقب البهوية بعد اسم "غاصب".

غاصب: أيه الموضوع المهم اللي سعادتك عايزني فيه، أصل مش من عادتك تزورني في البيت، في حاجة حصلت ولا أيه.

تمعن "فكري" به ثم وجه بصره إلى علبة سجائر "غاصب" الذي لاحظ فمد يدة إلى العلبة مقدمًا إياها إلى "فكري" الذي مد يدة على الفور آخذًا سيجارة ممتنًا

"لغاصب" بينما أشعل الأخير لنفسه وللآخر مرتشفًا من فنجان القهوة. ألقي "فكري" ببصره على "غاصب" وهو يدخن ثم نقل نظره إلى ملف موضوع على مكتبه ليقول بثقة مفرطة:

- تحب تقرأ أنت ولا أقرأ أنا.

ظهر التوتر على وجه "غاصب" وأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة مخرجًا الدخان على دفعة واحدة قائلًا:

- أقرأ أيه أنا مش فاهم حاجة.

بدأ"فكري" في قراءة الملف الموضوع أمامه ولم يكن سوى ملف البلطجي «نعيم درباس» المتهم في قضية حرق مزارع القطن الخاصة بالسيد "منير بيه خياط" وعليه بعد أن تم إلقاء القبض على المتهم وقت شهادته بالإثبات واتهامه السيد "غاصب وفيق خياط" بالتحريض على فعل الجريمة فعليه يتم استدعاء المذكور أعلاه وإلخ .. إلخ .. إلخ

أنهي"فكري" قرأة ما هو مكتوب أمامه في الملف ناظرًا إلى "غاصب" الذي ظهر على وجهه لارتباك الشديد مدخنًا السيجارة الثالثة بشراهة وعصبية واضحة ليقول "فكري" بهدوء شديد:

- أيه أقوالك في اللي إتقال؟

غاصب: هنسمع لحته واد صايع بلطجي، أهو دة اللي أخدناه من الزمن الوسخ اللي إحنا عايشينه.

ابتسم "فكري" آخذًا سيجارة جديدة من علبه السجائر الخاصة "بغاصب" ناظرًا إلى العلبة الذهبية باهتمام شديد مشعلًا السيجارة قائلًا:

- معاك حق، لكن الشوشرة والسمعة والعيار الطائش اللي هيضرب في الهواء وابن عمك منير بيه لما يعرف، ومتنساش أن جعود ملاحظ الأنفار عندة هو اللي شاف نعيم وضربوا بعض والحظ خدم نعيم وهرب والبوليس جابه ... فكر تاني.

ابتلع "غاصب" ريقه محاولًا استعادة هدوئه قائلًا:

- طب أيه رأيك.
- الرأي رأيك.
- خلاص، نخلص منه.

وهكذا اتفق "غاصب" مع "فكري" على الخلاص من "نعيم" بعد أن وضع "فكري" علبة السجائر الذهبية بجيبه طالبًا مبلغ ألف جنيه لإتمام العملية والخلاص من "نعيم" بمعرفته ليشتري"غاصب" ذمة "فكري" التي يبدو هكذا أنها للبيع. وبالفعل تم تنفيذ الخطة بعد ليلتين حيث تقابل الاثنان عند أطراف البلدة ليعطي "غاصب "المبلغ إلى "فكري" نقدًا، والذي ما إن رأي المبلغ حتي لمعت عيناه من الفرحة ويبدو هكذا أن تلك ليست أول مرة يتفق الاثنان؛ لأن "غاصب" لمح إليه أن هذا هو أكبر مبلغ طلبه منه حتي الآن، فأفهمه "فكري" أن تلك العملية صعبة ويلزمها مصاريف و"نعيم" بسجن المديرية الآن لذا ما فات كوم وتلك العملية كوم آخر ،افترق الاثنان ليأخذ "فكري" حصانه الأسود القوي طائرًا به على جناح السرعة وأنفاس الحصان تخرج من أنفه معطيةً له منظرًا مهيبًا حتي وصل إلى مركز المديرية حيث سجن "نعيم" فوجد الشاويش المنوب بالحراسة في السجن واقفًا في انتظاره على أحر من الجمر.

دخل" فكري" برفقة الشاويش إلى داخل أروقة السجن الصغير المكون من أربع زنزانات ضئيلة الحجم، وأخرج سيجارة من العلبة الذهبية ليدخن بينما الشاويش واقفًا بجانبه ينظر إليه حتي حانت اللحظة الفارقة ففتح باب الزنزانة واجدًا "نعيم" شبه نائم ولم تمر دقائق حتي انتهت المهمة. أغْلقت بوابة الزنزانة من جديد ليضع "فكري" بعض النقود في يد الشاويش ومن ثم أشعل سيجارتين أعطي إحداهما للشاويش ليركب حصانه عائدًا من حيث أتي.

في الصباح الباكر بينما يمر الضابط نائب المأمور بالمديرية لتفقد أحوال المساجين، طرق باب زنزانة "نعيم" فلم يجد لا حس ولا خبر فقام بطرق أصبعه للشاويش ليفتح باب الزنزانة فلم يتوانَ الأخير ليجد مشهدًا أرعب قلب الضابط، وجد "نعيم" معلقًا مشنوقًا بنافذة الزنزانة الحديدية ووجهه أزرق، لقد انتحر "نعيم درباس" وأغلقت القضية للأبد بدون شوشرة.

-٣-

شَوشَرَة وقلق وتفكير مستمر داخل عقل المسكين «جعود» ناظر أنفار «منيربيه» وهو تربية «دوس» باشا الله يَرحَمه، ولائه كله لعائلة «خياط» ويعتبر الذراع الأيمن»لمنير بيه» فهو يعتمد عليه في كل شيء وفي حالة غيابهِ يضع المزرعة والقصر أمانة في رقبته حتي يعود، وإن تلف شيء أو نقص لا يسأل أحد سوى «جعود». "منير" يعامل جعود على أنه أخ صغير أو صديق. أكبر منه ببضعة أعوام تربوا مع بعض في الحقول حتي التحق "منير" بالمدارس وتفرغ "جعود" للأرض، كان "دوس باشا" يحبه ويعطف عليه جدًا، تزوج مع "منير" في نفس السنة، وقد اختار له "دوس باشا " العروسة بنفسه، "رئيفة" ابنة "سعد" الكلاف، طيبة القلب، بشوشة الوجه لا تحمل ضغينةً، مصرية جدعة اللي في قلبها على لسانِها، تحب الجميع والجميع يبادلونها المحبة في عصر كان الحب للجميع حتي أنها وضعت بصمتها الطيبة في قلب الهانم الصغيرة زوجة "منير"، فصارت كلا منهما تستأنس بالأخري، وأصبح مكمن سر"رئيفة" مع الست هانم الصغيرة، لكن الحلو لا يكتمل دائمًا فمع حلاوة روح "رئيفة" تلك الفلاحة البسيطة التي لم تتخطَ حاجز الثلاثين عمرًا إلا أن إرادة الله لم ترزقها أطفال حتي الآن وقد مر على زواجهما أكثر من ست سنوات لتبدأ الأعين في التلصص بالنظر إلى حالها هي وزوجها وانفتحت الأفواه للتحدث في أمرهما فهناك من رضخ إلى إرادة الله ومنهم من ذهب تفكيره إلى أن يكمل جعود مشواره بدونها ويتزوج من جديد ليرزق بنسل ولا يهم أن يبقي على "رئيفة" أم لا، ولكن لا بد

أن يتزوج من جديد فالمرأة في نظر أهل القرية مثل الأرض إذا أخصبت استمرت في كنف صاحبها أما إذا أصابها البور فيجب أن تغور.

بدأت "رئيفة "تشعر منذ وقت ليس بقصير بنظرات وتلميحات أم "جعود" حماتها التي أصابها الضجر والملل من الاحتفاظ بتلك الجاموسة العاقر على حد قولها حتي وقعت يومًا ما بلسانها مع "جعود" قائلة في أسي وحزن:

يا ابني ما هو مينفعش يبقي راجل نايم جنب راجل، يرضي مين دة يا ناس.

نظر إليها "جعود" بدون أن يعلم بما يجيب، فهو الابن البكري لأمه وهناك أخ أصغر لم يتزوج بعد لذا كان لا بد على الكبير أن يرزق بأطفال حتي تحمل أمه أحفادا قرة عينها ويحمل اسم زوجها أولادًا من صلب ابنه. وهي حتي الآن لم تر بُرْصًا حتي من البست "رئيفة" فقررت شَنَ حَرْبٍ ضَرُوسٍ عليها حتي تُخَلِّص ابنها منها وأبسط الإيمان أن يتزوج بأخري. أما "جعود" فهو يحب "رئيفة" معتبرًا إياها نسمة الهواء الرطبة التي في حَيَاتِه، يدلِعها ويدلِلها خائفًا عليها من الريح الفائت، أما هي فعاشقة لتراب أقدامه تسهر على رعايته ليلًا ماسحة بمنديلها عرقه وهو نائم ولا يَغفلُ لها جَفْنٌ إلا بعد أن يَستيقِظَ هو. تتَمَنّي أن يأمرها زوجها بأن تعطيه عين من عينيها ولن تتأخر وإن ذهب إلى أبعد من ذلك طالبًا روحها فستهبها له بدون تفكير، تطعمه بيدها، هو زوجها وابنها وحبيبها وكل شيء في الدنيا، رجلها الأول والأخير في حَيَاتها. تلك حياة "جعود" و"رئيفة" البسيطة التي كلما نظر إليها لم يكن حَال لِسانه لوالدته سوى:

- إزاي يا أماه، دة من بعد موت أبيها وأمها وأنا كل حاجة في حياتها، دي حبيبتي يا أماه، أبوس يدك يا ست الكل بزيادة عاد كلام في الموضوع دة، إن شاء الله ربنا يخلف علنا بالعوض الصالح.

ولا يكون رد أمه سوى بقساوة القلب قائلة:

- حَبّكْ بُرْص وعَشْرَة خُرْس، حُب أيه يا منيل، هو الحب بيجيب عيال، مراتك مياه مالحة تشرب منها بس مترويش، تِفَها من خَشْمَك.

نظر "جعود" إلى منطق أمه السليم من وجهة النظر العقلانية، لكن من وجهة مشاعره القلبية فلا يجوز بالمرة، لا يجوز.

جاء إلموم الموعود لوصول البيه الكبير والهانم الصغيرة فأخذت تعد "رئيفة" الفطير المِشلتَتَ بكمية وفيرة منذ صَبَاح ربنا لعلمها بحب الهانم الصغيرة له وبالذات من صنع يدتا، لذا جلست منذ الفجر تعجن الفطير وتخبزه ومن ثم إلى فوهة الفرن مستغرقة نصف النهار، وهي لا تدري كم من الوقت مر حتي أن "جعود" استيقظ ولم يشغلها به لانكبابها بحيوية وهمة في إعداد الفطائر الشهية، فقرر أن يذهب إلى عمله متناولًا الفطور في الحقل مع الفلاحين على أن يعود بفترة الظهيرة؛ لكي يري نتيجة عمل يد زوجته العزيزة التي ما إن دخل عليها وجدتا جالسة أمام الفرن تغني فرحة قائلة بصوتها الرخيم الفلاحي الجذاب لقلب صاحبنا:

- وسالمة يا سلامة الست هانم هترجع بالسلامة.

تسحب "جعود" داخلًا بهدوء إلى أن وصل وراء زوجته ثم قام بقرصها في جنبها فانتفضت مذعورة قائلة:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إخص علمك يا جعود، كدة تخضني.

ابتسم "جعود" وهو يقترب منها في دلال زائد قائلًا:

- ما عاش ولا كان اللي يخضك يا ست الستات، أيه كل الفطير دة، أنت هتأكلي أهل القرية كلاتهم ولا أيه.

- دة علشان الهانم الصغيرة والبيه الكبير لما يرجعوا النهاردة بالسلامة.

- كل دة علشان نفرين، هما راجعين من مجاعة.

- هو وَكُل برة دة بيشبع، أنت مش فاكر السنة اللي فاتت لما سافروا، رجعت الست الصغيرة مسخوطة أد أيه يا كبدي.

- طب مفيش حاجة لجوزك حبيبك تحت الحساب كدة.

يقبلها في رقبتها وهي تضحك ناظرة إليه بحنان قائلة:

- اهدأ يا راجل أنا كلي عرق.

- في بُقّي زي الشهد.

تدخل عليهم أم "جعود" الدار ناظرة إلهم باستياء شديد قائلة بغضب:

- كله في الزبالة، هييجي علنا كل دة بأيه.

نظر إلها الاثنان متفاجأين بظهورها من حيث لا يدريان، حاول "جعود" أن يسيطر على الأمور بسرعة حتي لا تشتعل النيران بين زوجته وأمه التي ما إن تبدأ في إحماء الحريق فهو لا ينطفئ إلا بعد مدة من الأيام الله وحدة أعلم بعددها ودائمًا ما تكون الضحية "رئيفة" بلا شك فقرر أن يتدخل قائلًا محاولًا تلطيف الجو:

معاكِ حق يا أما أنا خليت الواد جلوص شال الزبالة كلها من قصر الباشا.

تنظر أمه إليه بتقزز من أسلوبه في تحوير كلامها، لتقرر أن تضع ما بيدها ولم يكن سوى سَبَتْ الغسيل حيث ملابسها وملابس أخيه، فإلموم هو يوم الغسيل وعليه يجب على "رئيفة" أن تتحد معها وتساعدها في غسل الملابس. ودار أم "جعود" لا تبعد عنهم كثيرًا حيث يعيش معها ابنها الصغير "السنباطي" وهو شاب أهوج ثلاثيني العمر يعمل أحيانًا بالحقل وأحيانًا أخري يترك عمله لاهثًا وراء الغوازي بالموالد في الكفور والنجوع، لم يتزوج بعد، ليس له عمل ثابت.

رأي "جعود" أنه قد حان وقت رجوعه للحقل مره أخري فقام بخطف فطيرة من أمام زوجته لتصيح به قائلة:

- يا راجل دة للست هانم!

- واحدة مش هتخسر، بالإذن.

خرج "جعود" وأمه تبادله السلام قائلة:

إذنك معاك يا ابني، ربنا يهديك ويصلح طريقك.

تمعنت أم "جعود" في "رئيفة" ملقية عليها نظرات باردة لا حياة فيها بالمرة، فعرفت الأخيرة أنه قد حان الانتهاء من الفطير والاستعداد لما هو خطير على يد أم "جعود" ألا وهو غسيل الملابس وغسيل الدماغ وغسيل المشاعر الذي سيحدث

الآن على يدتا؛ ستغسل بكرامة "رئيفة" الأرض الآن لاعنة أبو وأم إلبوم الذي تزوجت فيه ابنها، مذكرة إياها أنه إذا كان لدا كرامة تُذَكَرْ فعليها أن تطلب منه الزواج مرة أخري بل تذهب أبعد من هذا طالبة منها أن تذهب هي لتأتي له بزوجة لا تشك في خصوبتها معطية إياها لزوجها، ولا تجد "رئيفة" سوى دموعها خير مجيب وقلبها يتمزق أشلاءً من الداخل ومشاعرها تتقطع ولا عزاء لها.

سار "جعود" وهو يحمل بداخله همًا ثقيلًا لا يعرف إلى أين يذهب به. وهو يعلم علم إلمقين أن أمه الآن تجهز على الغلبانة "رئيفة" والله وحدة الأعلم ماذا ستكون حالتها عند عودته؟ فكل مرة تهل عليهم أمه العزيزة بزيارتها البهية تكون الخاتمة ليست هنية بالمرة. ظل سائرًا في طريقه إلى القصر ليستعلم عن ميعاد وصول البيه حبيبه الوفي فهو لا يجد سواه ليشكو له همه. مر على القهوة فقرر الجلوس مريحًا قدميه شاربًا كوب شاي مع سيجارة. جلس آمرًا «كبس الهواء" بأن يأتي له بكوب شاي تقيل، سكر زيادة. لمحه "الزعتلي" فقام من مجلسه متجهًا إليه حيث انزوي بنفسه في أحد أركان القهوة.

الزعتلي: طب ارمِ السلام يا أخينا، دة السلام لله، أيه اللي شاغل عقلك.

انتصب جعود من مجلسه محييًا المعلم قائلًا في حبور:

- السلام علكم يا معلم، معلش نافوخي مدووش شوية.

نظر المعلم إليه بحنية أبوية فهو يعلم حاله تمامًا، فلا يوجد أحد في القرية لا يعلم مشكلة "جعود" والله المستعان. قرر "الزعتلي" أن يقوم بالواجب مع "جعود" مناديًا على "كبس" لكي يأتي بشاي "جعود" على حسابه الشخصي. ابتسم الأخير شاكرًا المعلم. وردًا للجميل فتح جعبته مخرجًا الفطيرة الساخنة ليتشارك فيها مع المعلم ورجال المقهي.

الزعتلي: هو قال البيه الكبير والهانم الصغيرة هيوصلوا النهاردة بالسلامة.

جعود: إن شاء الله يا معلم.

وضع "كبس" الشاي أمام "جعود" وآخر للمعلم ، وقد أنهوا أكل الفطير ليخرج "جعود" سيجارتين لف أعدهما مسبقًا، أشعل واحدة للمعلم وواحدة له.

الزعتلي: ومراتك عاملة أيه يا جعود يا ابني.

نظر "جعود" إلى المعلم بتمعن شديد والأسي والحزن ظاهران على وجهه ليتدارك مشاعره قائلًا:

- الحمد لله، نشكره ونحمد فضله.

الزعتلي: يستاهل الشكر والحمد يا ابني، مفيش أخبار جديدة تفرحنا.

أخرج "جعود" كمية دخان هائلة من صدره في الهواء وهو لا يدري بماذا يرد؟ فشعر المعلم أنه جاء وقت الانسحاب لأنه ربما سأل سؤالا ليس وقته تمامًا. قام المعلم مباشرًا أعماله بالمقهي تاركًا "جعود" مع كوب الشاي

والسيجارة محملقًا في الفضاء الواسع الذي أمامه غير عالم مدي نهايته، حتي قطع صمته دخول "المربوطة" المقهي واقترابها منه بحذر شديد مما جعله ينتبه لها جيدًا معيرًا إياها انتباهه مع حملقة جميع الجالسين في هذا المنظر الغريب. اقتربت "المربوطة" أكثر وأكثر من "جعود" حتي أصبحت رائحتها العفنة طاغية على رائحة السيجارة ووجهت كلامها له قائلة بصوت مبحوح:

- ولعلى سيجارة يا واد يا أسمر أنت.

أخرج "جعود" سيجارة من جيبه مشعلًا إياها من سيجارته التي أوشكت على الإنتهاء ثم أعطاها إلى "المربوطة" التي ما إن أخذت منها نفسًا عميقًا حتي قالت: يلزمها كوباية شاي.

نادي "جعود"على "كبس" الذي أتي مسرعًا بكوب الشاي من نفسه لكي يمر هذا اليوم بسلام دون أن تحل عليهم لعنات "المربوطة"، وضع "كبس" الشاي على المنضدة الخشبية بينما "جعود " يقول لها:

- الشاي دة على حسابي.

نظرت إليه "المربوطة" مبتسمة قائلة وهي تسعل بشدة:

- يدوم الواجب يا أسمر الوش وأبيض القلب.

أخذت كوب الشاي مستعدة للانصراف ثم التفتت مرة أخري إلى "جعود" مكملة حديثها قائلة:

- زي دلوقتي السنة الجاية هتشيل عوضك، حوائتك طيبة يا ولدى، يعدلها اللي لا بيغفل ولا بينام، والبلد كلها نايمة في العسل الأسود.

ابتعدت "المربوطة" وصوت سعالها يكاد يخترق الآذان والدخان يتصاعد من أمامها والجميع يلاحقها ببصره. اقترب الواد "كبس الهواء" من "جعود" قائلًا:

- الله يحرقها المجنونة دية.

نظر إليه "جعود" مشعلًا سيجارته قائلًا:

- أهوه أنت المجنون وابن مجانين.

وضع "جعود" حسابه على المنضدة سائرًا في طريقه و"كبس الهواء" ينظر إليه بتعجب شديد من منطقه هذا عن "المربوطة".

وصل "جعود" إلى قصر "خياط "باشا فوجد الجميع على أهبة الاستعداد انتظارًا لمجيء البيه الكبير والهانم الصغيرة. كل شخص في مكانه وقد أصبح القصر كقطعة من الجنة والكل ينتظر بشغف وصول ملائكة القصر، جلست "روجينا" هانم بحديقة القصر مع صديقاتها وأقرانها من الهوانم؛ فها هي "زبيدة هانم أبو شرشح" والسيدة "إنجي هانم الحايس" والسيدة "خاتون هانم قمر الزمان"، كلهم سيدات مرموقات في الأوساط العلا زوجات بهوات وبشوات من سلالات عريقة تربين في قصور ونمن على ريش النعام، لم يعرفن يومًا أن الحياة بها أيام سوداء، كل ما يطلبنه ينلنه، من صفوة المجتمع الراقي أينما حللن، غلبت عليهم الصداقة المكانية والبيئية حيث كلهن تربين مع بعضهن منذ نعومة أظافرهن بقرية الطين لذا تقاربت عوائلهم ومن ثم هن النسوة ليصبحن وحدة واحدة، لا يختلفن عن بعضهن في الفكر الطبقي أو الحياة الأرستقراطية، يمتلكن من الخير الكثير، يتقاسمن أعمال الخير بينهن، لا يوجد خفي

بينهن إلا واسْتُغْلِنْ، يعلمن كل شيء عن بعضهن، مررن بجميع مراحل الحياة مع بعضهن البعض، اختلفن قليلًا ليعدن من جديد أصدقاء، يحْزَن لأحزان بعض، يفرحن لأفراح بعض، يعشن كعائلة واحدة متناغمة محاولين طرد كل ما يزعجهن ويقلقهن ويعكر صفو مجتمعهن الصغير، سيدات في السبعينات من عمرهن يعلمن أن ما تبقي لهن ليس إلا قليل مقارنة بما عِشنَه؛ لذا يسعين إلى الختام المسك.

أقبل "جعود" على جميع الهوانم واضعًا نظره في الأرض ملقيًا السلام عليهن ومن ثم توجه إلى السيدة "روجينا" ليعلم ما إذا كان لها أوامر قبل وصول البيه، فما منها إلا أن أعطته الأمر بمباشرة أعماله المكلف بها وانتظاره في القصر إلى حين وصول البيه الكبير والهانم الصغيرة، فأذعن "جعود" لأمرها داعيًا لها بطول العمر ووصول الغائبين بالسلامة.

تناولت "إنجي" فنجان الشاي الخاص بها مرتشفة منه بكل أدب قائلة:

- طب والحال أيه لو منفعتش رحلة إنجلترا دي.

نظرت إليها "روجينا" بريبة فيبدو أن الأمر سيكون وقتها ليس بجيد بالمرة بل بمعني أصح ستكون نكسة على رأس العائلة، عائلة "خياط ". لم تجد "روجينا" إجابة ترد بها على منطق "إنجي"، فبادرتها "خاتون" قائلة:

- اسمعوا يا هوانم، يمكن اللي هاقوله في ناس هتتفق معايا فيه وناس تانية هتختلف، لكن أظن جه الوقت إني أقوله.

نظر الجميع إليها باستغراب شديد غير مستوعبين حديث "خاتون هانم"، فسعت "زبيدة" إلى توضيح الأمر لتكمل "خاتون" حديثها:

- هي مراة ابنك يا روجينا هانم بقالها كم سنة مفيش حمل؟

روجينا: ما أنت عارفة حوالي ست سنين.

خاتون: يبقي مفيش غير حل واحد.

زبيدة: أوعي تقولي اللي أنت عملتيه مع ابنك.

ابتسمت "خاتون" بهدوء شديد وثقة من نجاح خطتها التي اتبعتها مع ابنها.

روجينا: عملت أيه يا خاتون هانم.

خاتون: والله أنا مكنتش عايزة أحكي لحد لأن مفيش حد عرف إلا زبيدة هانم هي اللي تعرف بس لأنها راحت معايا.

قاطعتها "إنجي" بانفعال قائلة:

- الله، الله، يا هوانم بتروحوا فين من ورانا.

لم تدع "خاتون" مجالًا آخر للحديث، بل أفهمت صديقاتها أن ابنها بعد أن رزق بابنه الثالث ظل مدة كبيرة لا تقل عن الأربع سنوات كلما حملت زوجته لا يكتمل الحمل من تلقاء نفسه لأسباب غير معروفة، وعليه ذهب هو وزوجته إلى حكماء كثيرين بمصر وعلى رأسهم أستاذ طب النساء والولادة الدكتور "نجيب محفوظ" وبعد الكشف والفحوصات اتضح أن ابني وزوجته بخير صحة وحال ولا يوجد أي مانع يمنع الحمل. أخذت رشفة من فنجان الشاي والكل ينظر إلها بشغف وبالذات "روجينا" تريد أن تعرف نهاية تلك القصة فقالت بلهفة:

- وبعدين يا خاتون هانم.

- ولا قبلين، رجعوا الولاد يا عيني شكلهم يصعب على الكافر، مش عارفين أي سبب أبدًا لمنع الحمل وتوترت العلاقة بينهم، لغاية في يوم كنت بأحكي مع زبيدة هانم وكان عندنا الحل.

توقفت "خاتون" عن الكلام راشفة من فنجان الشاي وتوجه الجميع إلى "زبيدة" لإكمال القصة الشيقة، فما كان من "زبيدة" إلا أن أكملت بأنها أشارت على "خاتون" بأن يذهبوا إلى عم «عبد القدوس» ذلك الرجل الحبشي الأسود الوجه ذو المائة عام، فهو رجل مبروك وله في الله. وهو يقطن بالطريق القديم المؤدي إلى كفر السِبَاع المجاور لهم وذلك الطريق لم يعد يرتادة أحد حيث تم تمهيدة من قبل رجال الحملة الفرنسية ليتم استخدامه وقتها ومن حينها توقف الناس عن ارتيادة ونسوه بالمرة. هناك حيث يقع بيت "عبد القدوس" أبو المعجزات التي بلا عدد لكل النفوس

وتحقق المطلوب من رب العباد على يدة وحملت زوجة ابن "خاتون" هانم ورزقا بابنة جميلة وما فشل الطب في تحقيقه حققه الرجل المبروك. نظرت "روجينا" بتمعن إلى "زبيدة" سائلة إياها بشغف:

- إمتي ممكن نروح للراجل دة؟

انتهت المقابلة بين الهوانم على وعد باللقاء مرة أخري عند مجيء الأبناء بالسلامة إن شاء الله مودعين "روجينا" التي فوجئت بالعمدة واقفًا ينتظرها بهو القصر، أقبل عليها ببشاشة الوجه وطيب السريرة قائلًا في حبور:

- أشرقت الأنوار يا ست هانم، أنا أديت أوامري لغفر البلد وعلى رأسهم شيخ الغفر إنهم يستنوا منير بيه وحرمه المصون على أول القرية بالخيل والسلاح وإن شاء الله أول لما هيوصلوا، التشريفة هتستقبلهم لغاية لما يوصلوا للقصر يا هانم.

روجينا: تعيش يا عمدة، دة العشم والله.

العمدة: عشم أيه بس يا ست هانم، دة أقل واجب مع منير بيه، ربنا يجيبه بالسلامة والنبي يا هانم متنسيش موضوع ابني.

روجينا: اطمئن يا عمدة، أول لما يجيء منير بيه هابلغه واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

العمدة: طب أستأذن جنابك علشان ألحق أكمل الاستعدادات علشان وصول البيه الكبير، بعد إذنك.

سار العمدة في طريقه وصعدت "روجينا" إلى حجرتها لتستريح لفترة من الوقت قبل مجيء ابنها وزوجته، دخلت إلى حجرتها وجلست على الكرسي المذهب الفوتيه ناظرة إلى السرير العاجي ذو العواميد الخشبية العاجية والناموسية تحيط به من كل جانب، متفكرة في كلام "خاتون" و"زبيدة" وهل ستقودها أقدامها إلى هذا الطريق أم أن الفرج قادم لا محال من إنجلترا بلد المعجزات الطبية. إن حالة ابن "خاتون" مثل حالة "منير" مع الفارق إن ابن "خاتون" سبق وأن رزق بأبناء. توقفت "روجينا "عن التفكير لبرهة من الوقت متأملة السرير لتعود بها الذاكرة إلى حيث كان "دوس" باشا زوجها طريح فراش المرض وقاب قوسين أو أدني من

الرحيل عن عالمنا. أمسك بيدتا جاعلًا إياها تحلف على الإنجيل أن "منير" يجب أن يرزق بأطفال وإلا سوف يضيع كل ذلك الثراء والعز ويندثر اسم عائلة "خياط" باشا إلى الأبد، يجب أن يأتي ولي العهد ليحمل اسم العائلة منفذًا وصية "خياط" باشا، فحلفت وأقسمت يومها "روجينا" لزوجها أن تعاهدة على تحقيق أمنيَتهِ وهي لا تدري وقتها كيف ستنفذ؟

ولكنها إرضاءً لباله المعذب ونفسه المسكينة وقتها قررت إرضائه حتي لا يذهب عن عالمنا وهو قلق الضمير؛ لذا تعمدت أن تنفذ ما أقسمت عليه، يجب أن تنفذ وصية زوجها حتي وإن أدي الأمر إلى التحالف مع الشيطان.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٤ -

الشيطان دائماً مظلوم مع بني الإنسان؛ فالإنسان هو من يُخَطط ويتفنن ويبرع في تنفيذ خِطَطِه الشِريرة، ثم يخلق العذر لنفسه ويلصقه بالشيطان المظلوم معنا.

هكذا أقنعت "جانيت" نفسها بأن ما يحدث منذ زمن لم يكن سوى من خطط "خياط" باشا الذي كان دائمًا يفضل "دوس" على زوجها "وفيق" وما حدث يوم السواد الأعظم الذي أصاب العائلة بعد موت "خياط" باشا وبالتحديد يوم فتح الوصية، وصية الباشا الظالم، رجعت بالذاكرة سريعًا حيث كانوا في القصر مع المحامي المسئول الذي ما إن ألقي نص بيان الوصية حتي كانت صدمة للجميع؛ فقد قام المرحوم قبيل موته ببيع جميع أملاكه إلى ابنه البكري بعقود موثقة منتهية بالبيع والشراء الرسمي منه شخصيًا إلى "دوس"، كل شيء ما عدا بيت صغير لعائلة "وفيق" والقليل من الأفدنة باسم أبناء "وفيق" أما "وفيق" نفسه فلم يترك له شيئًا مما جعل الجنون يتمكن من الأخير مقررًا قتل أخيه. وما أن غادر المحامي حتي قام "وفيق" بجلب مسدسه الإنجليزي الصنع ليضرب "دوس" بالنار معتبرًا إياه حائلًا بينه وبين ثروة أبيه ذلك الرجل الظالم الغليظ القلب الذي يتمني من كل قلبه أن تحترق روحه في الجحيم وبالفعل أطلق "وفيق" النار على أخيه الذي أصابته الطلقة بي كتفه، أصابته ولم تمته. ثم تدخل أبناء الحلال وقتها الذين حضروا الواقعة بإبعاد "وفيق" وردعه عن تكملة عمله الجنوني؛ فكيف يقتل أخيه ابن أبيه؟

ومن يومها سطر وفيق الدماء على صفحات عائلة "خياط" واضعًا اللون الأسود

شعارًا له في الحياة والكراهية مدرسة ينطلق منها أبناؤه، بل وجميع ذريته مقنعًا زوجته بتلك الحقيقة التي تنص على أن أبيه رئيس شياطين وأخيه شيطانًا كبيرًا مخضرمًا تحايل على أبيهما حتي استولي على كل الميراث لنفسه مقصيًا إياه إلى الأبد. حاول الأخير معاندة القدر وتحطيم وصية أبيه الشرسة فلجأ إلى القضاء وانقضي العمر في المحاكم المصرية ولم يصل لحل في النهاية لتختتم "جانيت" ذكرياتها الإلمة حينما أرادت أن تهدئ زوجها فما كان منه إلا أن ضربها بالقلم لتنزف أنفها وقتها.

عادت "جانيت" من ذكرياتها وهي واضعة يدها على أنفها لا إراديًا لتجد "غاصب" أمامها مُقَبِّلًا جبهتها، جالس أمامها بغرفة نومها حيث جلست تحيك الكانفاه كعادتها.

غاصب: على فكرة النهاردة هيوصل منير ومراته.

جانيت: عارفة، وهتروح تسلم عليهما.

غاصب: معلش يا مامو، هاعصر على نفسي لمونة وأروح تاني يوم لأن الأستاذ مراد أخينا الفاضل هيروح أول لما يوصلوا.

جانيت: أخوك دة أهبل ورامي نفسه في حضن مراة منير وأعمالها الخيرية.

غاصب: سيبه يتسلي، كل دة هيخلص أوعدك.

جانيت: تفتكر سفرهم لإنجلترا هيجيب فايدة.

ينظر إليها "غاصب" بتمعن مخرجًا علبة سجائر ذهبية جديدة ليشعل سيجارة مدخنًا إياها مطلقًا الدخان بالغرفة قائلًا:

- عن نفسي أنا واثق أن الأرض البور عمرها ما تتعمر أبدًا ويبدو أن منير مش ركيب بس مراته فرسة وعايزة فارس صح.

جانيت: الراجل عمره ما يكون متعاب.

غاصب: لكدة ولا كدة النهاردة بقالهم سنين متجوزين ومفيش أمل يبقي مش زيارة إنجلترا هي اللي هتحقق المعجزة اللي زيارة فرنسا السنة اللي فاتت فشلت فيها، أنا واثق من كدة.

جانينت: طب ولو اتحققت.

لمعت عينا "غاصب" ودخان سيجارته محيطًا به ناظرًا إلى أمه بقسوة ليصبح شبيهًا بأبيه في عينيها قائلًا:

- يبقي ليها حل تاني، مش هنغلب، لازم الحقوق ترجع لأصحابها.

توقفت "جانيت" عن حياكة الكانفاه لتمد ظهرها على الكرسي الفوتيه متأملة ابنها بارتياح شديد.

حل الظلام على الكفر فأضيئت الأنوار الملونة من مدخل القرية وحتي قصر "خياط"؛ تحسبًا لوصول الموكب ووقف رجال العمدة عند أول الطريق ومعهم الغفر والسلاح وراكبو الخيل الراقص بينما أمر العمدة بأن تذهب فرقة موسيقية إلى مدخل القصر مكونة من عازف الطبل والزمار وراقص التنورة وبعض من أبناء البلد لإثارة البهجة والفرح لوصول البيه الكبير والهانم الصغيرة واستعد كل من بالقصر من خدم وحشم للحظة المرتقبة، لحظة رجوع أصحاب القصر بالسلامة.

وقفت "روجينا" ما بين بهو القصر والشرفة الخارجية منتظرة وصول الأولاد على أحر من الجمر بفارغ الصبر، تريد أن تعلم إلى ماذا وصلوا من نتائج في رحلة إنجلترا داعية الله أن يوفقهما فا مساعيها.

انطلقت أصوات ضرب النار من ناحية مدخل القرية وصهلت الجياد ورقصت الأهالي المنتظرة؛ فقد وصلت العربة الأولي ماركة "فورد" ذات الفوانيس الكبيرة داخلة إلى طريق القرية والعربة الأولي هي المحملة بجميع أغراض البيه والهانم. ولم يمض على دخولها دقائق حتي دخلت العربة الثانية موديل "كاديلاك" سوداء اللون لا يكاد يظهر من بداخلها سوى السائق بالكرسي الأمامي أما الكنبة الخلفية فزجاج أبوابها مغطي بالستائر السوداء لتحجب من بداخل العربة، ولم تتحرك تلك الستائر أبدًا لمشاهدة ما يحدث بالخارج. أبطأت العربات السرعة لتسير وسط موكب الأهالي المتجمعة على الجانبين لتحية البيه والهانم .

أخذ المأمور يهندم من نفسه أمام المرآة المعلقة بالنقطة ثم وضع القبعة العسكرية على رأسه ناظرًا إلى هيبته وقامته الفارعة أمام المرآة، ثم نادي على الشاويش "شمندورة" الذي أتي على الفور بالخطوة السريعة وأدي التحية العسكرية.

فكري: خيل التشريفة جاهز.

شمندورة: جاهز يا افندم.

فكري: البيه والهانم وصلوا.

شمندورة: وصلوا يا افندم.

اتجه المأمور إلى جوادة ممتطيًا إياه ومعه نفران من العساكر ممتطيين جيادةما لينطلقوا جميعًا إلى قصر "خياط" باشا.

توقفت العربتان داخل حديقة القصر ليقوم بعض الخدم بالذهاب نحو العربة الأولي وتحميل الحقائب منها. بينما استقرت العربة الثانية أمام باب القصر حيث قام السائق بالنزول وفتح الباب الخلفي و ما هي إلا ثوانٍ وظهرت أقدام أنثوية من داخل العربة واضعة إياها خارجًا لتظهر من بعدةا بكامل شخصها "رفقة" هانم خياط تلك السيدة الثلاثينية العمر، أنيقة، جميلة التقاسيم، متوسطة الطول، بشوشة الملامح، يبدو عليها الأنوثة الطاغية البهية للعين، تراها فتكاد تقسم أنها هانم بنت هانم، سليلة الحسب والنسب، وقفت بقامتها الشامخة ووجهها يغلب عليه مظاهر التعب والإرهاق جراء السفر ومسحة من الحزن غير معروف سببها على وجهها.

انتظر الجميع لبرهة من الوقت ولم يخرج أحد من العربة بعدةا ليغلق السائق باب العربة، فأيقن الجميع أن البيه ليس معها، أقبل العمدة ممنئًا بسلامة الوصول للهانم، ولم يفوته أن يسأل عن البيه الكبير. لم تكن إجابة "رِفْقَة" سوى أنه لدى العديد مِن الأشغال التي سَيُنْهِيْهَا في الإسكندرية وبعَدةا يَعودُ مُباشرةً إلى القَرِيَةِ وهو يُرسِلُ سَلامَه وتحياته إلى الجميع شاكرا لهم اهتمامهم.

تَقَدَّمَ العُمْدَة لمُصَافَحَةِ "رِفْقَةَ" وبعدة المأمور فمراد والعديد من الأصدِقاء وأخيرًا تقدمت "روجينا" مُقبّلةً إياها لتقول "رِفْقَةُ":

- وحشتيني يا ماما.

ربتت "روجينا" على ظهرها قائلة بأسي واضح:

- حَمدًا لله على سَلامَتِك يا حبيبتي.

دخلت "رفقة" بصحبة "روجينا" إلى القصر لتجد بهو القصر جميع الخدم مصطفين لتهنئتها على سلامة العودة من الخارج. تقدمت "رئيفة" لمصافحة "رفقة" التي ابتسمت لها بهدوء شديد ظاهرًا على وجهها علامات التعب فاستأذنت للخلود إلى الراحة، فقام الجميع مغادرين بعد أن شَرِبُوا الشَربَات حلاوة رجوع الهانم والبيه، بينما "رفقة" قررت الاختلاء بنفسها بحجرتها. دخلت وأغلقت بابها لتبدأ في خلع ملابسها حتي فُتح الباب على غَفْلَةٍ مما أصابها بالفزع لتجد "روجينا" أمامها وجمًا لوجه سائلة إياها بخشونة واضحة:

- طمنيني أيه الأخبار؟

نظرت "رفقة" برعب إلى حماتها لا تجد ما تقوله صراحة وبدأ نَفَسها يعلو ويهبط ودقات قلبها تتسارع، وتهبطل من عيونها الرقيقة الذابلة دمعة حزينة على خَدَها الوردي فأخذت "روجينا" نَفَسًا عَمِيقًا مُخْرِجَةً إياه على دفعة واحدة وقد جلست على أقرب كرسي قائلة:

- أنا كنت حاسه بكدة، أنا كنت حاسه إن في حاجة مش مظبوطة من الأول، وطبعًا زي ما سمعتوا في فرنسا سمعتوا تاني في إنجلترا إنك أنتِ ومنير في صحة جيدة ولا مانع من الإنجاب، دي مسألة وقت.

لم تتمالك "رفقة" أعصابها بل انهارت جالسة على السرير باكية بحرقة شديدة دافنة رأسها داخل وسادتها وصوت بكائها ونحيبها يعلو شيئًا فشيئًا و"روجينا" تنظر إليها باشمئزاز واضح مهمهمة بصوت منخفض قائلة:

- صحيح الأرض البور هنستني منها أيه.

انتصبت "روجينا" من مجلسها ناظرة إلى "رفقة" التي أغرقت وسادتها بدموعها الحارة ولم تتفوه بكلمة واحدة، تركت "روجينا" الحجرة مغلقة الباب بقوة شديدة

ارتعد لها كل من بالقصر، يبدو أنَّ الهانم الكبيرة في قمة عصبيتها.

اختلت "روجينا" بنفسها بحجرتها الفخمة الضخمة التي يومًا ما شاركها "دوس" بها. وقفت تحدق في لوحة كبيرة معلقة على حائط غرفتها في مواجهة السرير الخشبي الكبير ذو الأعمدة الأربعة المذهبة والناموسية الحريرية تتدلي من رؤوس الأعمدة، لوحة زيتية لا تفترق عن التي في حجرة المكتب من حيث الألوان الناصعة الهادئة الجميلة التي بنفس ريشة الرسام الفرنسي البارع، ولكن تلك اللوحة "لدوس" باشا وهو جالس ببدلة التشريفة وبجانبه "روجينا" هانم في بفستان أبيض أنيق فرنسي التصميم ويبدو عليهما صغر السن وقوة الشباب وحلاوة الشكل ونضارة الوجوه. كان كلا منهما بقوته وحيويته لتتحرك شخصيات اللوحة بمخيلة "روجينا "راجعة بذكرياتها إلى الوراء وتحديدًا حينما كانوا جميعًا بالنادي إلسوناني بالإسكندرية على البحر يتناولون طعام الغذاء، "دوس" باشا وهي بجانبه وفي الجهة الأخري "منير" و"رفقة" يأكلون جميعهم بينما "دوس" يأخذ الطعام واضعًا إياه في أطباق كل من "منير" و"رفقة" قائلًا في حبور أبوي لطيف:

- بقولكوا أيه يا أولاد أنا عايز أعد تسعة أشهر ألاقي معايا حفيد وحفيد وحفيد، عايزكم تملوا حياتي أحفاد أنتم سامعين.

منير: حاضر يا بابا، بس الأكل دة كله هنودي فين.

روجينا: هتاكلوه كله، السمك والجمبري والإستاكوزا، أكل بحري مفيد للعرسان الجدد، كلي يا رفقة يا بنتي.

نظر "دوس" إليهم بحنان شديد قائلًا:

أول حفيد لازم يكون ولد يا رفقة -لمعت عيناه ثم أكمل حديثه- وهنسميه خياط على اسم الباشا الكبير هيبقي اسمه خياط منير دوس خياط.

ابتسم "منير" قائلًا:

- قوام خليته واد وسميته كمان يا باشا.

أشعل "دوس" السيجار الخاص به قائلًا:

- لازم ولد علشان يشيل اسم العائلة ويكمل المشوار، مشوار خياط باشا.

رفقة: طب ولو جبنا بنت.

نظر إلهـا الباشـا بتمعـن رهيـب وعينـه بهـا لمعـة غريبـة ودخـان السـيجار يتطايـر مـن فمـه قائـلًا:

- يبقي رزق، خلفة البنات رزق، بس لازم التاني ولد.

رنـت كلمـة ولد بصـوت "دوس" في أذن "روجينـا" معيـدة إياهـا ثانيًـا إلى مكانهـا بالحجـرة قابعـة أمـام اللوحـة الزيتيـة ودمعـة صامتـة مقهـورة مـن الغيـظ عـلى خدهـا وحـال عقلهـا يقـول:

- ولد، منين يا دوس باشا، يبدو كدة إن إحنا مش عارفين نجيب فار، تقولي ولد، الرحمة من عندك يا رب.

أقبـل الصبـاح وأقبلـت الوفـود للتهنئـة بسـلامة عـودة الأبنـاء والأصدقـاء وبـدت دهشـتهم مـن عـدم وجـود "منير"، لذا اجتمع في أحـد جوانـب الحديقـة بالقصر كلا مـن "روجينـا" وصديقاتهـا "زبيـدة "و" إنجي "و "خاتـون" وعـلى مقربـة منهـم جلسـت كل مـن "رفقـة" وصديقاتهـا "مفيـدة "زوجـة "حسـنين" بيـه، و"إسـعاد" زوجـة "منـدور" بيـه و"تحيـة" أرمـلة "تادرس" باشـا و"شريفـة" حـرم "أوطـه" بيـه، كلهـم أبنـاء عائـلات محترمـات جلسـن يتحدثـن عـن رحلـة "رفقـة" وقـد قامـت بتوزيـع الهـدايا التذكاريـة عليهـن والـتي جلبتهـا لهـن خصيصًـا مـن إنجلـترا والجميـع يشـكرنها. وضعـت "مفيـدة" فنجـان الشـاي أمامهـا قائـلة في ود وصفـاء:

- بس أنت وشك مورد يا رفقة، صحيح السفر لإنجلترا متعة يا هوانم.

نظرت إلها "رفقة" لتظهر على وجهها مسحة من الحزن قائلة:

- بلد زي أي بلد يا مفيدة هانم، وغلاوتك مفرقتش حاجة عن هنا.

إسـعاد: أنا قلـت للبيـه جـوزي نفـسي أزور إنجلـترا فيضحـك عـلى وياخـدني إسـكندرية ويسَـكِّتني.

رفقـة : طـب أيـه رأيـك إن إسـكندرية عنـدي أحـلي مـن إنجلـترا، لنـدن مدينـة كئيبـة

ومفهاش شمس وأهلها تحسي إن دمهم بارد.

شريفة: والموضه عندهم يا رفقة أخبارها أيه؟

رفقة: مفيش جديد، طب أيه رأيك إن أتيليه مدام توسكنيني الإيطالية هنا في القاهرة عندها قصات أحسن وأشيك من بيوت الأزياء الإنجليزية، صدقيني.

ظهر الاندهاش على وجه "شريفة" فاسترسلت مكملة:

- عمار يا مصر، خلاص يبقي إسكندرية هنا أحسن ألطف يا إسعاد هانم.

ضحك الجميع بينما ظهرت على وجه "رفقة" ابتسامة هادئة وعلى الجانب الآخر نظرت السيدات الهوانم الكبيرات السن بتمعن وتفحص شديد إلى مجموعة الهوانم الصغيرات وبالأخص "رفقة" لتهمس "خاتون" قائلة:

- يعني سفرهم لإنجلترا جه على الفاضي، لا حول و لا قوة إلا بالله.

نظرت إلها "روجينا" بآسي بالغ وعلى وجهها علامات الخيبة والألم الواضحة.

إنجي: خلاص يبقي مفيش غير الحل اللي قولنالك عليه يا روجينا هانم.

روجينا: وتفتكروا هيجيب نتيجة.

خاتون: أكيد، إحنا مش حكينالك إن اللي فشل فيه الطب والحكماء، هو نفع فيه.

روجينا: طب وتفتكروا يا هوانم أقنعها إزاي إنها تيجي معانا للراجل دة.

إنجي: مفيش حاجة اسمها إقناع، دة بالأمر وإن أدّي الأمر تجيبيها من شَعْرِها، دة كله علشان مَصْلَحِتْها، إحنا هنهزر ولا أيه، دة مصير عائلة يا روجينا هانم مش لعب عيال.

ضاقت عينا "روجينا" وقد بدي عليها التصميم والإرادة والاقتناع بمبدأ الهوانم وبالأخص طريقة "إنجي" هانم. والله كريم.

تعالت ضحكات الهوانم الصغار و"تحية" صامتة تنظر إلهم.

شريفة: مالك يا تحية، من ساعة لما جينا وأنتِ ساكتة، في حاجة يا حبيبتي.

تحية: أبدًا يا شريفة هانم، مبسوطة بمجلسكم الجميل، إلا صحيح يا رفقة هانم مفيش جديد في موضوع الحمل.

بدا الارتباك على وجه "رفقة" من جراء هذا السؤال الذي تتميز به "تحية" دائمًا وأبدًا في أي مجلس اجتمعت فيه معهن، لكن "رفقة" دائمًا صدرها رحب لأنها تعلم ظروف "تحية" النفسية. أجابت بهدوء ورزانة لامتصاص حالة الهياج النفسي التي أصابت الجميع حيث وضحت معالمه على وجوههن ونظراتهن المخترقة "تحية" قائلة:

- لسه ربنا ما أزدش يا حبيبتي، صلِ لي وادعِ لي.

- مفيدة: صحيح اللي اختشوا ماتوا، أنتِ هتفضلي يا تحية ترمي طوب في كلامك.

تدخلت "رفقة" لتلطيف الجو العام قائلة:

- حصل خير يا هوانم، تحية هانم أختنا وصديقتنا، هي قصدتا تطمئن.

رأت "تحية" أنه قد حان وقت مغادرتها فاستأذنت على أمل اللقاء مرة أخري. وبعدها بقليل استأذن الجميع وخلا القصر على كل من "روجينا" و"رفقة".

أقبلت "رئيفة" تهادي الهوينى وعلى رأسها مشنة بها من خيرات الله تفوح منها روائح الخبيز الجميلة الفاتحة للنفس. وقفت أمام "رفقة" قائلة بوجه بشوش:

- حمدًا الله على السلامة يا ست هانم، نورتِ بيتك يا قمر.

ابتعدت "روجينا" نوعًا ما فهي من داخلها غير راضية عن العلاقة التي تجمع "رفقة" و"رئيفة"؛ إنها علاقة ليست من طبيعتها الأرستقراطية، و لم تر مثلها من قبل تحت سقف هذا القصر، إن "رفقة" تعامل "رئيفة" كأختها الصغري أو ما شابه وهذا لا يعجب "روجينا" بالمرة لأنها تنظر إلى نوعية "رئيفة" وأمثالها نظرة الشفقة والرحمة ليس أكثر؛ لأنهم في الأول والآخر خدمًا و يجب ألا ينسوا هذا فالحياة هكذا أسياد وخدم.

رفقة: أيه الروائح الحلوة دي يا رئيفة.

رئيفة: دة فضلة خيرك فطير مشَلْتِتَ وزبدة وعسل أبيض شَهْد.

كشفت القماش عن المشنة مخرجة فطيرة كبيرة ومن ثم قالب الزبدة وبلاص العسل الصغير لتضعها أمام "رفقة" التي لم تتوانَ في أن تقدمت بيدتا آخذة من الفطيرة الطازجة واضعة بها قطعة من الزبد وقليل من العسل ملتهمة إياها في سرور وشوق مستمتعة بطعمها الشديد الجمال وقد وقع العسل من فمها لتمسحه بيدتا وهي تقول "لرئيفة":

- تسلم إيدك، صحيح نَفَسِكْ حلو في الفطير المشلتت.

ابتسمت "رئيفة" قائلة:

- بالهنا والشفا يا ست الكل، منين ما يسري يمري وإن شاء الله لما يجي منير بيه هاعمله فطير كتير برضه دة جعود جوزي كان هاين عليه ينزله إسكندرية يشوف طلباته ويخدمه هناك.

امتنعت "رفقة" عن الأكل ناظرة إلى "رئيفة" بمودة قائلة:

- كفاية إنه واخد باله من الشغل هنا، أيه الأخبار يا رئيفة مفيش حاجة جاية في السكة؟

بدت على "رئيفة" المرارة وقلة الحيلة قائلة بصوت منخفض:

- لسه رب العالمين ما أرادش يا ست هانم، كله بإذنه.

تَنَهَّدَت "رفقة" غير عالمة بماذا ترد على "رئيفة" سوى بشيء واحد:

- ونعم بالله يا رئيفة، ونعم بالله، جوزك عامل معاك أيه؟

- شايلني شيل يا ست الكل، والله أنا مش عارفة بدونه كنت هاعيش إزاي.

- ولسه حماتك بتضايقك؟

- معلش كله يهون يا ست هانم، بس هي والله عندتا حق يبدو كدة إن ربنا مش راضي يرزقني بالخلف الصالح ، يبقي مفيش غير إن جعود يتجوز تاني و أنا يتولاني ربنا برحمته .

نظرت "رفقة" بتمعن إلى "رئيفة" التي سقطت منها دمعة دون إرادتها لتقوم بمسحها بكم جلبابها لتقول لها "رفقة" :

- بكرة تتعدل يا رئيفة.

- اقترب "لبيب" من "رفقة" قائلًا:

- الست هانم الكبيرة عايزة حضرتك.

استاذنت "رئيفة" من "رفقة" على أمل اللقاء مجددًا في القريب العاجل لتتوجه "رفقة" إلى" روجينا" التي كانت تنتظرها على الغذاء بحجرة السفرة. جلست "رفقة" وأمامها طبقها وقد بدأت "روجينا" في تناول الطعام، وهي تقول بلهجة صارمة حادة:

- هو منير هيتأخر في إسكندرية؟

- مقالش يا ماما، بس هو كل اللي قاله إنه عندة شغل كام يوم في إسكندرية هيخلصه وهيرجع ولو حضرتك عايزة تطمئني عليه اتصلي بيه.

- طب حضري نفسك بكرة الصبح عندنا مشوار لازم نروحه ضروري.

نظرت "رفقة" إلى "روجينا" باستغراب متسائلة في نفسها عن هذا المشوار الذي يجمعهما، بينما أكملت "روجينا" طعامها في هدوء وصمت قالت "رفقة":

- بس يا ماما أنا كنت بكرة عايزة أروح الجمعية وبعد كدة أزور أمي.

قاطعتها "روجينا" بحدة قائلة:

- كل دة هتلاحقي عليه، المشوار اللي أنا عايزاكِ فيه مهم جدًا ومش هنتأخر، روحي جمعيتك الصبح وعلى الساعة واحدة بعد الظهر هنتحرك من القصر هنا.

- طب ممكن أعرف هنروح فين.

- نظرت إلها "روجينا" نظرة قاسية رافضة حقها في التساؤل، ولكن عليها السمع والطاعة فقط قالت بحزم:

- كُلي.

obeikandl.com

-٥-

- مليش نِفس خالص.

تفوه "منير" بتلك الكلمات إلى "حسنين" صديقه بينما هما جالسين بصالة المطعم داخل فندق «لومتربول» بالإسكندرية يتناولان الغذاء.

حسنين: غريب أمرك يا أخينا، طب فطار ومفطرتش عندي في الشإله وعزمتني هنا على الغداء ومش عايز تاكل زي الناس، في أيه يا منير يا أخويا، أنت تعبان.

نظر "منير" إلى "حسنين" الذي أنهي أغلب الأكل محتسيًا زجاجة نبيذ فرنسي وها هو يطلب أخري بينما يشعل سيجارًا واحدة له وأخري "لمنير" الذي قال:

- أنا زهقت من الدنيا يا حسنين.
- لا إله إلا الله، أيه الكلام الفارغ دة يا منير، خليك متفائل يا راجل دة أنت دايمًا اللي كنت تفاحة شِلِّتْنا الحلوة.
- كان زمان يا حسنين يا أخويا.

ثم أطلق زفيرًا عميقًا من صدره بينما الجرسون يصب كأس النبيذ أمام "حسنين" الذي تذوقه أولًا ليعرف مدي صلاحية الزجاجة وجودتها ومن ثم إذا أعجبته نكهتها أشار للجرسون بأن يصب منها، ففعل منسحبًا في هدوء بينما "حسنين" أخرج ما في صدره من دخان السيجار قائلًا:

- بقُولَك أيه يا منير، اتجوز عليها، أنت مش أول ولا آخر راجل يعمل كدة.

obeikandl.com

حملق "منير" في وجه "حسنين" واضعًا كأس النبيذ بعد أن احتسي منه جرعة.

منير: إزاي يا حسنين، إحنا مفيش عندنا طلاق ومفيش جواز إلا بعد موت مراتك، أقتلها يعني.

ظهرت على وجه "حسنين" ابتسامة هادئة من منطق "منير" قائلًا:

- يا سيدي هو مين اللي جاب سيرة القتل بس، في حلول تانية يا منير بيه، أنت بس اللي مش صايع يا صديقي.

قطب "منير" حاجبيه مخرجًا دخان السيجار على دفعة واحدة قائلًا:

- يعني أيه مش صايع، نورني يا حسنين مع إن مش عارف ليه كدة حاسس إن في مصيبة ورا كلامك زي عوايدك يعني.

قاطعه "حسنين" ضاحكًا قائلًا:

- مسمحلكش يا منير، أنا بتاع مصايب، يعني البنتين الجريكية والنمساوية اللي كانوا معايا في الشاليه الصبح مصائب.

ابتسم "منير" حتي كاد أن يصاب بشرقة أثناء تناوله النبيذ فسيطر على نفسه بالكاد تاركًا الكأس قائلًا:

- أهو دي كوم تاني يا سيدنا، أُمَّال لو مكنتش متجوز ومراتك صديقة مراتي كنت عملت أيه.

- لا يا حبيبي دي نقرة وتلك نقرة، الجواز والعيال في البلد وإنما أنا هنا في أجازة، يعني دلع وحب من نوع تاني، آه لو كنت سمعت كلامي كان زمانك ناسي الهم والغم دة كله.

شرد «منير» نوعًا ما بذهنه ثم عاد مرة أخري منفثًا دخان السيجار الخاص به قائلًا:

- أنا الهم اللي عندي يا حسنين مينفعش يتنسي وملهوش حل.

- لا ليه حل، أنا حكيتلك قبل كدة على المعلم بقطر السماك صاحبي.

نظر «منير» باندهاش وعدم تمييز عند ذكر اسم «بقطر» هذا ليكمل «حسنين»:

- يبقي شكلي محكتلكش قبل كدة عنه، خلاص يبقي النهاردة جمز نفسك

هأعدي علىك الساعة عشرة بالليل وهنسهر مع المعلم بقطر السماك، ملك الكورنيش والسمك البحري.

استأذن «حسنين» من منير للذهاب لانشغاله بميعاد عاطفي آخر مع فتاة بلجيكية. وربنا يكثر من أمثال تلك الجواهر التي تهون الحياة على «حسنين» ذلك الصديق الوفي «لمنير»، تربية طفولة وعشرة عمر دامت ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا أو أكثر، جيران وأحباب والله يديم المعروف، دار كل ذلك في ذهن «منير» دفعة واحدة مكملًا زجاجة النبيذ بمفردة مع السيجار الإنجليزي الفاخر، وفكره يعيد ذكريات قديمة جميلة على قلبه مع أصدقائه من القرية عندما كان البال خالٍ ومن أشقاهم وأحبهم إلى قلبه هو «حسنين» الذي يبادله نفس الشعور وما يميزه هو حبه وولعه بالنساء أيًا كان نوعهن، المهم أن يجرب كل ما هو جديد في عالم النساء، عاشر الإيطالية واليونانية والإنجليزية والشاميه حتي الأثيوبية، زير نساء محترم ومع هذا يكن كل الاحترام إلى المصرية حبيبة قلبه، لكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن اكتشاف الحقيقة الثابتة التي رسمها لنفسه ألا وهي أنَّ النساء هم كل السعادة في حياته، كلهن وليست واحدة.

أخذ «منير» نَفَسَه وقرر أن يهضم أكلة السمك اللذيذة التي تناول منها قدرًا ضئيلًا منذ قليل مع «حسنين»، قادته قدماه إلى خط الكورنيش ليسير على البحر مفكرًا مليًا في حاله، حالًا عجيبة وضعتها الأقدار بداخله ومصيرًا غريبًا يواجهه بمفردة. إنها حكاية طويلة إذا قيست ستكون في طول الكورنيش أو أطول بكثير.

ابتسم «منير» بهدوء من منطقه البسيط في فرض مشكلته العنيفة على واقعه المرير التي من وجهة نظره لا يوجد لها حل في عالمه الواقعي سوى الدعاء إلى الله فهو كشخص مصري مسيحي أرثوذكسي لا يوجد عندة بالشريعة طلاق سوى لعلة الزنا فقط. لذا فإنَّ فكرة الطلاق مستبعدة تمامًا، ولا يوجد حل آخر يستطيع أن يتخذه للتخلص من زوجته. إنه يحبها ويكن لها مشاعر الاحترام والود؛ إنها عشرة ست سنوات أو أكثر بقليل حتي الآن ولا يوجد بادرة أمل للحصول على طفل بأي

شكل من الأشكال، توقف «منير» قليلًا أمام البحر مطفئًا السيجار الذي انتهي منه تمامًا. لمحت عيناه طفلًا يلعب بالكرة وقد سقطت الكرة أمام منير الذي التقطها ليجد الطفل تحت قدميه في لمح البصر طالبًا كرته الصغيرة. انحني «منير» إلى الطفل الصغير ماسكًا إياه مبتسمًا سائلًا إياه:

- اسمك أيه يا بطل؟
- اسمي رشدي.
- اسم جميل، وعايز تطلع أيه لما تكبر يا رشدي أفندي.

نظر الطفل ذو السبعة أعوام إلى «منير» بتمعن قائلًا بطفولة بريئة:

- نفسي أطلع ملك.

أصابت «منير» قشعريرة وهو يمسك بالطفل، إن مشاعر الأبوة اجتاحته بشكل غريبة كادت تطيح به من هذا العالم حتي أنه تمالك نفسه، لتلمع عيناه حتي قطع خلوته بالصغير صوت مناديًا من بعيد:

- رشدي ... رشدي.

أجاب الطفل قائلًا:

- بعد إذنك علشان أروح لبابا وماما.

ابتعد الطفل الصغير عن «منير» الذي ظل متشممًا رائحة الطفل، والقشعريرة لم تفارقه حتي بدأ بالسير من جديد مُشْعِلًا سيجارًا آخر مدخنًا إياه محاولًا السيطرة على نفسه متذكرًا حديث الطبيب الإنجليزي معه وزوجته.

الطبيب: الحقيقة الفعلة إنكما أنت وزوجتك بكامل الصحة والعافية ومفيش أي مانع يعوق الحمل، كل الفحوصات والتحاليل تدل على هذا، الأمر مش في يد الطب الآن.

رجع «منير» بالذاكرة من إنجلترا ليلتحم مع أبيه في حوار دار بينهما منذ أكثر من ست سنوات وقبل زواجه من» رفقة «.

دوس: أنت لازم تتجوز وتخلف يا منير علشان كل اللي عمله جدك خياط باشا ميروحش هباءً.

نظر «منير» بتمعن إلى أبيه غير فاهم سياق حديثه فيكمل أبيه قائلًا:

- أنت كبرت ولازم تعرف الحقيقة، لازم سلسال عائلة دوس يستمر وإلا عائلة وفيق عمك تورث في كل أملاكنا، لازم تفضل أولادنا موجودة على وش الدنيا، أنت فاهم.

توقف «منير» ناظرًا إلى البحر العميق الممتد إلى ما لا نهاية أمامه قائلًا في نفسه:

- أنا أتجوزت لكن لسه مخلفتش يا باشا، لسه، أعمل أيه؟ أنا حاسس إني بأكسر وصيتك، أعمل أيه؟

تطلع «منير» إلى السماء الزرقاء الصافية لا يعرف ماذا يفعل مكملًا حديثه مع نفسه:

- حد سامعني، حد يفهمني طيب، حد حَاسِس بالنار اللي جوايا دي، أنا حاسس إن النار دي هتولع في البحر، طب أعمل أيه تاني، كل حاجة عملتها، مفيش حل تاني، يا باشا أنا آسف.

وحل الليل الجميل بالإسكندرية المعشوقة من أهلها كما يري «حسنين»، الذي ظل طيلة الطريق برفقة منير في اتجاههم إلى «بقطر» يتحدث عن جمال الإسكندرية ليلًا وعن روعة نساء الإسكندرية، عاشقًا ولهانًا ذاب في الحب صبابةً هكذا وصف «حسنين» نفسه. و«منير» ينظر إليه مبتسمًا عارفًا مقصد صديقه، وَصَلُوا إلى شاطئ أبي قير حيث وجدوا في انتظارهم المعلم «بقطر» السماك، رجلٌ في الستينات من عمره أصلع ممتلئ القوام طوله مثل عرضه وتبدو عليه المهابة والاحترام، الخواتم الذهبية تملأ يدي. هذا هو المعلم «بقطر» السماك، أكبر معلم سمك في وجه بحري هكذا قدمه «حسنين» إلى «منير».

منير: يا أهلًا يا معلم.

بقطر: يادي النور يادي الهنا، إحنا زارنا النبي النهاردة والله، اتفضلوا يا بهوات.

حسنين: أقدملك يا معلم، صديق عمري وأخويا منير بيه خياط.

بقطر: يا ألف مرحب بأحسن الناس.

جلس كل من «منير» و«حسنين» على شاطئ البحر أمام شإله المعلم «بقطر» والمجلس عبارة عن كراسي بامبو فاخرة وأمامهم منضدة كبيرة عليها من خَيْرَات ربنا الكثير؛ من الطعام البحري والفواكه ولا تكتمل الجلسه الحلوة بدون الخمور لإنجليزية الجيدة الصنع الرائعة المذاق. اقترب أحد رجال «بقطر» بالشيشة الخاصة بالمعلم ولم تكن التعميرة سوى حشيش مغربي معتبر وهذا ما لاحظه «حسنين» فهتف بالمعلم قائلًا:

- اللي يشرب لوحدة يا معلم يحصله أيه.

نظر إله المعلم ضاحكًا قائلًا:

- القطة تاكل لسانه، دي شيشتك يا حسنين بيه.

وضع الرجل الشيشة أمام «حسنين» آتيًا بأخري إلى المعلم وما كان من «منير» إلا أنْ رَفَضَ تدخين الشيشة مكتفيًا بالسيجار الخاص به.

أمر المعلم رجاله بصب الخمر ماركة الأستاذ فهتف «حسنين» مازحًا:

- مش قولتلك يا منير يا أخويا أنا جايبك عند الأستاذ.

بقطر: الله يعز مقدارك يا حسنين بيه ويديم المعروف، دة أنتم الأساتذة.

حسنين: شوف بقي يا معلم بقطر، مجد سيدك.

بقطر: المجد لاسمه.

حسنين: أحنا نعرف بعض بقالنا أد أيه.

بقطر: ربنا يديم العشرة، سنين يا حسنين بيه.

حسنين: فاكر لما كنت حكتلي عن جوازتك الأخيرة واللي أنت عملته.

قطب «منير» حاجبيه غير مستوعبٍ حديث «حسنين» «لبقطر»، فما معني زواجه الأخير، حاول أنْ يستفهم عن ملة بقطر فعرف أنه أرثوذكسي لا غش فيه مثله

تمامًا وأنه سبق له الزواج وزوجته لازالت على قيد الحياة وله من الأبناء سبعة، فكيف استطاع أن يتزوج ثانية بدون أن يحصل على تصريح طلاق، ذلك ما حير «منير»، ولكن حيرته تبددت عندما أكمل المعلم «بقطر» مخططه بنجاح ساردًا ما فعله بالضبط. لقد تعرف «بقطر» على أحد موظفي الشهر العقاري الذي بدوره عَرَّفه على آخر بمصلحة الأحوال المدنية المسئولة عن إصدار الوثائق كالوفيات وشهادات المواليد لذا كان الأمر سهلًا وبسيطًا؛ ورقة مدمغة ومختومة بشعار الملكية المصرية تدل على أنَّ زوجته أصبحت في عداد الأموات، إنها شهادة وفاة باسم زوجته السابقة الله يرحمها مما يجعل «بقطر» السماك أرمل وعليه يستطيع في تلك الحالة التقدم إلى الكنيسة والحصول على ترخيص زواج جديد، وتمت الخطة على هذا الأساس، أمات زوجته الأولي على الأوراق وهو المعروف في شرعه بالموت الورقي وربنا غفور رحيم، وتقدم إلى رجال الدين المختصين واستخرج تصريح زواج على أساسه يحل له أن يقترن بزوجته الثانية التي تصغره بحوالي الأربعين عامًا. أنهي «بقطر» قصته وما كان من «منير» إلا أن وضع يدة على خدة مستمعًا ناهيًا على ما يقرب الأربع كاسات من الويسكي ماركة «الأستاذ» و«بقطر» جالسًا يدخن الحشيش المغربي بينما «حسنين» ينتظر رد فعل صديقه وهو يحتسي الخمر ويدخن الشيشة العامرة بالحشيش الذي يذهب العقل وقد ذهب «حسنين» فعلًا ليجد نفسه يوجه حديثه إلى «منير» وهو منتعش قائلًا:

- أظن مفيش أحسن من كدة حل.

لم يتفوه «منير» ببنت شفة قط، بل ظل يشرب الويسكي قائلًا «لبقطر»:

- صحيح أنت طلعت أستاذ، وبيقولوا علنا بهوات، دة أنت طلعت باشا كبير يا معلم، إزاي خلصت القصة كلها بدون ما حد يكشفك.

ابتسم «بقطر» بهدوء شديد آخذًا نَفَسًا عميقًا من الشيشة منسجمًا مخرجًا إياه على دفعات لتحلق دوائر دخانية أمامه منتشيًا برجولته وذكائه قائلًا:

- الفلوس يا منير بيه، بفلوسك تقدر تعمل كل اللي نفسك فيه.

شرح «بقطر» لمنير أنه بالمال قد أنهي مشكلة شهادة الوفاة، ففي الأول والآخر موظف مصلحة الأحوال المدنية إنسان من لحم ودم وله متطلبات عائلية ترهقه؛ لذا قليل من المال يملأ المحفظة ويصنع المعجزات ويفعل الأعاجيب، يحي الأموات ويميت الأحياء ولا ضرر في ذلك فالكل في النهاية سعيد وراضٍ. وبالنسبة لتصريح الزواج فليس هناك مانع من تبرع مناسب للكنيسة النائية البعيدة عن موطنك ستجعل أهل الدن لا يسألون عنك بالمرة. والخير كل الخير لشهادة الوفاة التي تثبت للجميع إن المسكين «بقطر» ليس سوى أرمل وعليه فمن حقه أن يتزوج من جديد حتي ولو كانت تصغره العروسة بأربعين عامًا. وهنيئًا للجميع تحت سماء المملكة المصرية و لن يكتشف أحد أي شيء.

نظر» منير» بتمعن بعد أن أجهز على ما يوازي نصف زجاجة «الأستاذ» بمفردة قائلًا والحزن قد ظهر على عينيه:

- وربنا يا معلم هتقابله إزاي، ممكن تضحك على كل الناس بمن فيهم الملك، لكن ملك الملوك يستحيل تضحك عليه.

أنهي بذلك «منير» الجلسة التي بدأت طيبة وانتهت مخيبة للآمال، انسحب كل من «حسنين» و»منير» من مجلس المعلم «بقطر» السماك تاركين إياه في عالمه الخاص بسلام كما جاءوا إليه في سلام و»منير» غير مقتنع بأي كلمة من كلام «بقطر»، لكنه حل واقعي قد يلجأ إليه إذا ضاقت به كل السبل. والسؤال الذي فرض نفسه عليه بعد أن تركه «حسنين» على أمل اللقاء غدًا هو:

- ألم يستنفد كل الحلول المباشرة الظاهرة ولم يتبقَ سوى ذلك الحل؟

وقف «منير» أمام باب فندقه لبرهة من الوقت، ثم غير وجهته ليعبر طريق الكورنيش واجدًا نفسه أمام البحر تحت قمر الليل المعتم ناظرًا إلى البحر الممتد أمامه تارة ثم يرفع بصره إلى السماء تارة أخري ملقيًا ببصره على القمر مناجيًا أهل السماء لعلهم يجدون له حلًا من عندهم بعد أن أغلقت جميع الأبواب الأرضية في وجهه. وقف مفكرًا في دخيلة نفسه متحسرًا متألمًا لما يعاني منه قائلًا:

- سنين بتعدي ومفيش فايدة، أعمل أيه يا باشا دبرني، أنفذ فكرة بقطر السماك وأغش ربنا ولا أمَوّث مراتي وأتجوز غيرها ولا أقتل نفسي وأستريح؟ أنا تعبت أو بمعني تاني أنا انتهيت خلاص، سامحني يا بابا مش هاقدر أجيب عيال تشيل اسمك واسم العائلة وتحافظ على الورث، الورث دة اللي شوكة في ظهري مش عارف أخلص منها، كان مإلى أنا والوحلة دي، أشيل أنا الوصية لوحدي ليه، أنا حاسس إن خلاص مبقاش عندي حيل، ظهري إتني، ونفسي مررت بالذل، يا رب خذ روحي وريحني أحسن.

لم يتمالك المسكين نفسه ليجلس على أقرب صخرة أمامه على شاطئ البحر ومن ثم رقت عيناه بالدمع الصامت الحزين، لا يعلم كيف يعالج حالته، إنه سليم معافي جسمانيًا، ولكن لا نصيب في ذرية صالحة. دار بخلدة أن يكون الله ناقمًا على عائلته الصغيرة أو إنها لعنة أصابتهم مبددة أحلامهم في الحصول على طفل صغير يملأ حياتهم بالبهجة والسرور والفرحة حاملًا اسم عائلة «خياط» محافظًا على الثروة التي تركها الباشا أمانة في عنق ابنه مؤتمنًا عائلة «دوس» فقط مستبعدًا عائلة عمه «وفيق».

أنهك التفكير عقل «منير» ليغمض عينيه وروحه تناجي خالقه بأن يجد له باب العون والمساعدة وأن يحن عليه ويرفع عنه ذله وعاره وسط الناس الذين حوله، إنه يتمني أن يحمل ابنه على يدة بدلًا من أن يحمل همومه القاتلة بداخله الآن، بدلًا يجد نفسه سابحًا في بحور أفكاره القاتلة التي تركته صريعًا على شاطئ الحياة نازفًا من عمره السنة تلو الأخري ولا يوجد رجاء أو بادرة أمل حتي.

أغمض عينيه على أمل أن يقذف له البحر طفلًا الآن يأخذه في أحضانه سامعًا منه كلمة أبي ليحنو عليه داعيًا إياه ابنه، لكن هيهات يا عقلي المسكين.

هكذا وجد «منير» العذر لنفسه في ما يتمني من أماني ليس سوى في قصص الخيال فقط والأساطير التي لا تتحقق أبدًا، لكنه يريد أسطورة، يريد ابنًا من صلبه، أين يجدة؟ كيف يحصل عليه؟

لم يجد إجابات لأسئلته التي أدخلته في دائرة مغلقة من الحيرة والشك لتزيد حالته البائسة واضعة إياه بترس إلىأس الطاحن واجدًا نفسه فاتحًا عينيه من قوة أشعة الشمس الحارقة التي سقطت على وجهه؛ فقد أمضي ليلته البائسة وحيدًا على صخرة التجربة القاسية التي يشعر بها الآن.

نظر حوله وهو غير مصدق أنه ظل هكذا طيلة الليل المنصرم ليستيقظ بفعل شعاع الشمس الذي لفح وجهه، رمي ببصره يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا على الشاطئ، أخرج ساعته الكاتينا من جيبه ليجدها قد تجاوزت السابعة صباحًا بقليل. حاول النهوض من مجلسه، لكن يبدو أن جسدة لم يسعفه في البداية بسبب جلوسه هكذا لمدة طويلة مما جعله يشعر بألم وعدم ارتياح بظهره فقرر الانتظار وقتًا مخرجًا السيجار الخاص به مشعلًا إياه مدخنًا في صمت مراقبًا دخان السيجار المتصاعد من أنفه وفمه مقتنعًا بأنَّ حياة الإنسان مثل دخان السيجار ما يكاد يظهر حتي يضمحل في الهواء ويتبخر ولا يتبقي وراء الإنسان سوى الأعمال والبنين، البنين.

انتصب من مجلسه مقررًا المحاولة من جديد ولا سبيل سوى المحاولة حتي انقطاع الرجاء ونهاية العمر، لا بد من الحصول على البنين ... البنين.

-٦-

- البنون هم صلب الإنسان على الارض، هُمَّا اللي يشيلوا اسم العائلة ويملأوا البيت بالفرح والحنان.

نظرت «روجينا» إلى «خاتون» وهي لا تدري بما ترد عليه، شردت بذهنها لتخرجها «خاتون» من شرودها مسترسلة بحديثها قائلة:

- أنا قصدت أعدي علىكِ النهاردة بدبي قبل أي حد علشان نتفق هنأخذ رفقة ونروح بيها إزاي للشيخ عبد القدوس.

قالت «روجينا» بثقة متناهية:

- النهاردة يا خاتون هانم هنروح، ومفيش إزاي، خير البر عاجله.

- خلاص يا روجينا هانم، إحنا هنروح على غروب الشمس، هاعدي علىك ونطلع كلنا في عربية واحدة علشان منلفتش النظر ومدام زبيدة هانم بتعتذر مش هتقدر تيجي.

- يا خاتون هانم، رجاء منك محدش يعرف حاجة.

- يا روجينا هانم رفقة زي مراة ابني بالظبط. اطمئني.

- ودة العشم برضه.

خرجت «رفقة» من القصر متأهبة للرحيل ومعها لفائف هدايا كثيرة ساعدتا الخدم

obeikandl.com

في نقلها إلى العربة، توجهت حيث «روجينا « و»خاتون» جالستين وهي مبتسمة ملقية تحية الصباح عليهما، بادلاهما التحية بينما «روجينا» تسالها:

- بدري كدة على فين.
- على دار الأيتام، الأولاد هناك وحشوني ومعايا هدايا ليهم.

ردت «خاتون» باستهجان شديد قائلة:

- بس مش كنت تستريحي يا حبيبتي الأول من السفر وبعد كدة تلاقي على الأولاد الأيتام.
- معلش يا خاتون هانم خلينا نِفَرّح الأولاد إلتامي بأي حاجة.
- عقبال لما تِفْرَحي بأولادك يا حبيبتي.

تمعنت «روجينا» في وجه «رفقة «قائلة بحزم:

- متنسيش ميعاد النهاردة مش عايزة تأخير.
- حاضر يا ماما.

نظرت «رفقة» إلهما باستياء بسبب تلك المعاملة الجَافة، ولكن ما بالبد حيلة لا بد أن تنصاع لأوامر حماتها. ركبت عربتها ومعها السائق الذي انطلق في طريقه إلى جمعية « دار السلام « لرعاية الأيتام.

وصلت «رفقة» إلى الدار حيث وقف في استقبالها لفيف من العاملين بالدار والمشرفين عليه منتظرين قدومها بفارغ الصبر، وها هي قد وصلت لتجد الدار كلها على أهبة الاستعداد لها. ترجلت «رفقة» من العربة شاكرة الجميع لهذه الحفاوة البالغة في الترحيب وأبناء الدار واقفون يغنون لها أغنية «سيد درويش» الشهيرة .. «سالمة يا سلامة ماما رفقة رجعت بالسلامة»

شعرت «رفقة» بنغزة في صدرها عند ذكر الأطفال لكلمة ماما، لقد قاموا بتغيير كلمات أغنية «سيد درويش» لتناسب أهواءهم الشخصية لتحية ماما «رفقة» العزيزة على قلوبهم والشهادة لله فإن الأخيرة تُكِنُّ لهم حبًا غاليا جدًا ومَعَزَّةً خاصةً لا يعلم حجمها سوى الله فقط.

أقبل الأطفال عليها لتقبيلها وهي تعطيهم الهدايا التذكارية التي جلبتها لهم خصيصًا من إنجلترا والأطفال في قمة السعادة البالغة حتي انتهت من توزيع أغلب الهدايا ليتبقي طفل واحد ألا وهو «طه»، ذلك الطفل المعاق جسديًا الذي لا يقوي على الحراك، لم يعرف كيف يذهب إلى ماما «رفقة» وتناساه أغلب العاملين لصعوبة حمله ولم يفكر فيه أصدقاؤه لانشغالهم بتأدية الأغنية وانتظار الهدايا التي داومت «رفقة» على جلبها لهم عند عودتها من كل رحلة سفر إلى الخارج؛ لذا وجد «طه» نفسه وحيدًا بغرفته ودموعه على عينيه مناديًا على ماما «رفقة» التي لم يمض دقائق وهو على حالته تلك حتي دخل الأطفال عليه بهداياهم يلهون بها وهو لا يصدق أن ماما «رفقة» قد نسته، لقد وعدته قبل سفرها بأنها ستأتي له بمطلبه، المطلب الوحيد الذي طلبه من كل قلبه ولكن يبدو أن ماما «رفقة « لم تفِ بالوعد، هكذا ظن «طه» الصغير الطفل الكسيح ذو العشرة أعوام.

هدأ الوضع لبرهة من الوقت حتي دخلت حمامة بيضاء طائرة من باب الغرفة لترفرف والأطفال يصفقون لها لتجذب أنظار الجميع باستثناء «طه» الذي اغرورقت عيناه بالدموع شاعرًا أن العالم قد توقف من حوله مغلقًا أذنيه. ركز نظره على باب الغرفة المفتوح على مصراعيه. وبالخارج أناس يتمشون حتي اختفوا جميعًا ليجد فجأة كرسيًا متحركًا يدخل من الباب بمفردة وخلفه دخلت ماما «رفقة» معها هديته الملفوفة بالورق الملون فاتسعت عينا«طه» مصفقًا بيدي الصغيرتين يريد أن تحتضنه ماما «رفقة» التي لم تتوان أن تلبي له طلبه الصغير المحبب إلى قلبها. أقبلت على «طه» ليُقبّلها قُبلَةً كبيرة وهي تحمله يساعدها في هذا العاملون بالدار لوضعه على الكرسي المتحرك الذي سيكون المنفذ له للخروج مثل بقية الأطفال والتريض معهم بقدر الإمكان بدلًا من حمله ووضعه بالحديقة كالتمثال مشاهدًا أقرانه وهم يلعبون من حوله. لقد جاء الوقت الذي يتحرر فيه من ركودة هكذا وحيدًا. لقد حققت له ماما «رفقة» المعجزة التي طالما حلم بها، الكرسي المتحرك الذي رأي صورته يومًا ما بإحدي المجلات الأجنبية التي تداوم «رفقة» على جلبها إلى الدار لتثقيف الأطفال وما أن وقعت عيناه عليها حتي أصبح مطلبه وإلموم أصبح حقيقة، تلك هي ماما

«رفقة « في نظر أطفال بيت «دار السلام» لرعاية الأيتام، حبًا فوق حبٍ ورعاية واهتمام لكل الأطفال بدون تفرقة.

أنهت «رفقة» جولتها التفقدية بالدار مطمئنة مشرفة على سير حال جميع العاملين وتأدي أعمالهم على أكمل وجه. ثم تباشر حالة الأطفال الذين لم يكونوا سوى في أحسن حال منتهيًا الحال بها داخل مكتبها منغمسة في أعمالها الإدارية المتأخرة. كان في انتظارها «عمرو» أفندي سكرتير الدار والمساعد الشخصي لها، في الخمسين من عمره أصلع ولم تبق له سوى بضع شعيرات للذكري الحميدة، ذو كرش متوسط الحجم، نظرت إليه «رفقة» مبتسمة قائلة في حبور:

- أولادك عاملين أيه يا عمرو أفندي.

تلجلج «عمرو» في بدأيه كلامه؛ فتلك عادته دائمًا التلجلج متي وقف في حضرة الهانم قائلًا:

- الحمد لله يا هانم.

- أنا جبتلهم هدايا، يا ريت تأخدها من العربية، ومنستش طلبك.

تهلل وجه «عمرو» أفندي جدًا وظهرت عليه ملامح السرور والبهجة حيث أخرجت «رفقة» الكوفية الصوف إلانجليزي المحترمة المصنعة يدويًا التي ما أن وقع بصر «عمرو» أفندي عليها حتي كاد يقفز بكرشه الصغير فرحًا في الهواء شاكرا الهانم قائلًا:

- كتر خيرك يا ست الكل، أهوه كدة أموت وأنا مستريح إني عشت وشفت إلموم اللي إيدي مسكت فيه الكوفية الإنجليزي، يا ما أنت كريم يا رب.

ابتسمت «رفقة» لمنطقه البسيط، مثله مثل كل العاملين الذين لم تنساهم في الهدايا، حتي أنها تذكرت مقولة زوجها متهكمًا عليها قائلًا:

- أنت عايزة مركب تانية للهدايا بس، أنت جايبة هدايا لمصر كلها.

ولم يكن هذا سوى مزاح فهو يعلم أن «رفقة» تميل إلى فعل الخير وإدخال البهجة على نفوس الناس البسطاء بدون حساب متبعة مبدأ «أعط لله، يعطك الله من

خيرات السماء» غير مفرقة بين أحد. تلك «رفقة هانم خياط»، يعاونها لفيف من الهوانم الذين لا يقلون عنها حبًا للخير ومساعدة المحتاج وإجابة سؤال المريد.

نظر «عمرو» أفندي إلى رفقة قائلًا:

- اجتماع مجلس الإدارة هينعقد يا هانم بعد نصف ساعة وأجندة الأعمال على مكتب سعادتك، تأمريني بأي حاجة.

- شكرًا يا عمرو أفندي، اتفضل أنت ولو وصلت مفيدة هانم بلغها إني وصلت وعايزاها.

استأذن «عمرو» أفندي خارجًا من المكتب حيث بدأت «رفقة» في استئناف مُباشرة أعمالها لتجد ما يسرها داخل أجندة أعمال مجلس الإدارة. لقد كان تحقق أخيرًا، ستكون مفاجأة الاجتماع إلوم. لم يمض وقتٌ حتي حضرت «مفيدة» مذهولة مما تراه بمكتب «رفقة» قائلة:

- والمصحف أنت مجنونة، حد يبقي لسه راجع من لندن وينزل الشغل على طول، أنت بعقلك يا ست أنت.

تنظر إلها «رفقة» مبتسمة قائلة:

- وهأقعد في البيت أعمل أيه، هنا أحسن وسط الولاد اللي بنحبهم ويحبونا، شغلنا.

- مجنونة، بكرة ربنا يرزقك بشلة عيال تطلع عينك.

تلاحظ «مفيدة» أنها تكلمت في موضوع حساس بالنسبة «لرفقة» بدون قصد، فهي ذلة لسان لا أكثر ولا أقل، توقفت «رفقة» عن العمل ناظرة إلى «مفيدة» بتمعن، التي غيرت مجري الحديث قائلة:

- مفيش أخبار عن البهوات اللي في إسكندرية حسنين جوزي ومنير جوزك.

تبتسم «رفقة» وهي تخط بعض الكلمات في الأوراق التي أمامها قائلة:

- لا حس ولا خبر، تقريبًا ما صدقوا خِلصُوا مننا.

تخرج «مفيدة» من حقيبتها علبة السجاير الخاصة بها مشعلة سيجارة مدخنة إياها بعصبية قائلة:

- وأنا أترزع مع العيال لوحدي وهو يتفسح في إسكندرية و يدُور على حَل شعره.

- متظلميش الراجل يا مفيدة.

- اسكت، أنت مش عارفة حاجة دة حسنين من زمان، لكن أعمل أيه مفيش حاجة في إيدي، ما هو الواحدة مننا بعد العيال بتبقي زي الحمارة وبس.

- يبقي أنا لسه بغلة بقي.

نظرت إلها «مفيدة» ضاحكة لتبادلها «رفقة» الضحك بينما الأخيرة تشيح بيدها دخان السجائر الذي ملأ الحجرة قائلة وهي تسعل:

- حرام علك، أيه الحريقة دي، أنت صدرك كدة يتحرق.

- صدري يتحرق أحسن ما دمي يتحرق.

- بعد الشر يا مفيدة وغلاوتي عندك أطفي السيجارة دي.

ابتعدت «مفيدة» متجهة ناحية النافذة مكملة تدخين سيجارتها بعيدًا حيث تطلق الدخان في الخارج قائلة:

- أصعب حاجة إنك تعرفي إن جوزك بيخونك ومفيش في إيدك حاجة تعمليها.

تنظر إلها «رفقة» بحنان شديد قائلة:

- أنت أتأكدتي إزاي.

تظهر على وجه «مفيدة» ابتسامة حزينة باهتة قائلة:

- مش محتاجة تأكيد يا رفقة يا أختي، إحساس الواحدة مننا دليلها. ورغم دة التأكيد جالى عن طريق الخدم، الخدم اللي معاه في الشاليه هما عيني اللي بأشوف بيها وأنا هنا في قرية الطين والبيه في إسكندرية بيلعب كل شويه مع واحدة من كل جنس و لون، كل يوم واحدة شكل.

يبدو على «مفيدة» الضيقة الشديدة وتهم بإشعال السيجارة الثانية فتمنعها «رفقة» مذكرة إياها باجتماع مجلس الإدارة مخرجة إياها من حالتها تلك ليذهب عقلها بعيدًا. هل من الممكن أن يكون «منير» زوجها كحال «حسنين» مع العلم أن الاثنين أصدقاء منذ أيام الطفولة؟ هل من المحتمل أن يكون «منير» أيضًا له علاقات بنساء أخريات؟ شردت «رفقة» قليلًا بذهنها لتعود سريعًا مستجمعة تفكيرها ونقاوة ذهنها في اجتماع مجلس الإدارة حيث اصطفت الهوانم الأعضاء جالسات. واللاتي لم يكن سوى صديقات «رفقة»، فها هي «إسعاد» هانم و«تحية» هانم و«شريفة» هانم، والسيد المحترم «مراد خياط» ابن عم زوجها حيث هو المدير المإلى لدار الأيتام.

بدأت الجلسة وسط ارتياح لوجود «رفقة» في وسطهم مرحبين بعودتها. تقدم السيد «عمرو» أفندي بقراءة جدول الأعمال المقترح لدار الأيتام في الشهور المقبلة حتي وصل للبشري السارة التي وصلت إلى الدار وعلى أساسها تم انعقاد الاجتماع ألا وهي المرسوم الملكي الصادر من دار المعارف وعليه منحت المملكة المصرية في تاريخه و يومه الترخيص و إلاذن من دار المعارف المصرية ببناء مدرسة بقرية الطين بناءً على طلب السادة أعضاء اللجنة المشرفة على رعاية «دار السلام» للايتام ، و يكلف جميع المسئولون المنوط بهم تنفيذ القرار بالعمل من أجل رفعة و تقدم المملكة المصرية و شعبها الكريم ، إمضاء جناب معإلى وزير المعارف .

صفق جميع الحاضرين بحفاوة بالغة لمثل هذا الخبر السار الذي طالما انتظروه طويلاً منذ أن قَدَّموا الطلب تحت رعاية «رفقة» هانم كرئيسة مجلس إدارة «دار السلام «للأيتام منذ ما يقرب من عامين و ها هو الرد قد وصل و سيتحقق الحلم ، سَتُبْنَي المدرسة لتوفر على ابناء القرية سلاح التعلم ، فكم طفلاً في القرية افتقر إلى هذا السلاح بسبب بعد المدرسة عنه ، لذا بناء مدرسة بالقرية سيخلق جيلاً متعلم و من يدري غداً ماذا يخبئ القدر لهؤلاء الأطفال؟ إنها البداية فقط لكسر شوكة الجهل كما رأت «رفقة» و أعوانها .

- و الآن كلمة رفقة هانم رئيسة مجلس إدارة الجمعية .

هكذا نطق «عمرو» أفندي لتنهض «رفقة» من مجلسها مبتسمة ناظرة إلى الجميع قائلة :

- بسم الله القوي ..

أيها الهوانم الفضليات والسادة المحترمون الحاضرين معنا، إني أشكركم لثقتكم الغالية في دارنا الموقرة لرعاية الأيتام وحرصكم على دعمنا ومساعدتنا في عمل الخير من أجل صالح أهل القرية جميعًا. وما المدرسة إلا خُطْوَةٌ أولي ستعقبها خطوات متتالية لإيصال التعلم والصحة إلى أبناء بلدنا العزيزة وعليه أتوجهُ بالشكر والعرفانِ إلى كلِ فردٍ ساهم ولو بجزء يسير في بناء ذاك الصرح وأدعو لأن يكمل معنا بروح المحبة والأخوة التي عهدناها منكم لإكمال الطريق حتي نهايته وفي النهاية تلك الجمعية لكم وبكم ومعكم والله ولي التوفيق .

صفق الجميع لتلك الكلمات الطيبة من «رفقة» ودمعت عين «عمرو» أفندي، بينما وجه «مراد» إلى جميع الحاضرين كشف حساب بتكإليف المدرسة التي تبرعت بأرضها السيدة «رفقة» هانم على أن يشرعوا في البناء والتشييد في أسرع وقت ممكن لينفض المجلس على أن يعقد أثناء وضع حجر الأساس للمدرسة.

عادت «رفقة» إلى القصر لتجد كل من «روجينا» و«خاتون» في انتظارها على أحر من الجمر و«روجينا» تكاد تغلي بسبب تأخر «رفقة» عن الميعاد المتفق عليه. لذا لم تدع لها فرصة لتناول الغذاء بل ركبوا جميعهم سيارة «خاتون» هانم التي انطلقت مسرعة والسائق يلتهم الطريق قبل غروب الشمس ليصل بهم إلى أصحاب العالم السفلي، أنهي السائق الطريق الممهد للقرية و«رفقة» لا تدري إلى أين وجهتهم ولا يوجد على وجهها سوى علامات الاندهاش والتعجب من هذا المشوار السري الذي لا تعلم نهايته حتي الآن ولا تريد هل تسأل حماتها أو صديقتها؟ علمًا بأن هذا الطريق له نهاية وبالفعل وصلوا إلى نهايته ومن ثم أخذ السائق طريقًا آخر غير ممهد بالمرة فهو أشبه بالطريق المهجور الذي لم تطأه قدم إنسان منذ زمن بعيد. فالواضح من كثرة الأشجار التي على جانبيه والحشائش التي اعتلت الطريق الذي يبدو أنه كان

فيما مضي ممرًا ما، ولكنه اندثر مختفيًا عن ارتياد الناس لذا لم تتمالك «رفقة» نفسها من السؤال عن هذا الطريق العجيب الذي تراه لأول مرة على مشارف البلدة، فلم يكن هناك إجابة سوى من «خاتون» التي قالت:

- دة طريق قديم جدًا من أيام الحملة الفرنسية، والناس نسيته خالص علشان كدة اتهجر ومحدش بيستخدمه، طريق المجهول، دة اسمه عند أهل البلد.

تعجبت «رفقة» من وجود طريق مثل هذا الطريق المجهول الذي أول مرة تعرف عنه، وهي التي تربت بالقرية ونشأت بها. ولله الأمر لتري نهاية طريق المجهول هذا.

وقفت العربة أمام أحد البيوت الطينية ذات السقف الخشبي المعرش لحماية من بداخله من حر الصيف وأمطار الشتاء، بيتٌ بسيطٌ من الطين مكون من دور واحد وهذا منظرة للرائي من الخارج وعلى مسافة من باب البيت يوجد زير ممتلئ بالماء ويظهر ذلك من القماش المبلول المغطي به مما يدل على أنَّ هناك حياة داخل هذا البيت الذي يبدو شبه مهجور من الخارج، لم تشعر «رفقة» بارتياح لمنظر هذا البيت الكئيب من وجهة نظرها أو لنهاية ذلك الطريق بالمرة، ولكن لتكن ليس كإرادتها بل كإرادة حماتها.

ترجل الجميع من العربة وآخرهم «رفقة» التي قدمت قدمًا وسحبت الأخري فهي غير مستريحة بالمرة. فتح باب البيت الخشبي مصدرًا ازيزًا عاليا حتي أنَّ العصافير التي اعتلت الأشجار طارت في السماء عند سماعها صوت الباب الخشبي المخيف. دخل الخوف قلب «رفقة» نوعًا ما، ولكن لا مفر فإنها تتبع «روجينا» و«خاتون»، غرفة داخل غرفة ثم غرفة أخري حتي وجدوا أنفسهم أمام «عبد القدوس» ذلك الرجل الذي كسر حاجز المائة عام، نحيل، أسمر اللون، يبصر بالكاد، أمامه مبخرة فخارية عتيقة وعلى جدران الحائط علقت أفاعٍ محنطة وسحالٍ وعديد من الزواحف المقززة للنظر جدًا، جلس الجميع أمام الرجل المغطي الرأس وجلبابه يكاد ينقسم من كثرة التهرؤات التي به ورائحة عرقه الزنخة تكاد تشق أعنان السماء، حتي كاد أن يغمي على «رفقة» من هذه الحالة التي زُجَّ بها فيها، لكنها تمالكت نفسها حتي لا تصيب

الجميع بالإحراج وبدأت «خاتون» تتمتم في مسامع «عبد القدوس» ولم تمض نصف ساعة حتي خرجت «رفقة» محمولة صارخة، ولم تكد تعبر باب البيت حتي وقعت مغشيًا عليها فحملتها كل من «روجينا» و«خاتون» يساعدةما السائق حتي دلفوا إلى العربة عائدين مسرعين من حيث أتوا تاركين ورائهم بيت «عبد القدوس» والغروب قد حل واختفت الشمس وبدأ الليل الحالك الظلام. وعلى جانب آخر تحت جنح الظلام الدامس علت أصوات من أحد بيوت القرية المنتشرة على طريق الزراعات ولم يكن سوى بيت «جعود»، حيث انتصبت النساء بالداخل يدورن حول بعضهن البعض وفي المنتصف تقف «رئيفة» تتمايل يمينًا ويسارًا وأم «جعود» واقفة وعيناها كالصقر تنظر في جميع الاتجاهات تراقب «كودية الزار» التي أقامتها «لرئيفة» حتي يفك الله كربها ويساعدةا أهل الخطوة والقوة إذا كان لدنا شيء معقود أو ممسوك عليها من قِبَلْ الأهالي السفليين، صرخت المرأة النوبية قائلة:

- يا علم يا سميع ارزق المسكينة بعبد السميع أو عبد العلم.
- صرخ النسوة اللاتي يدورن في دوائر حول «رئيفة» قائلًات:
- الله حي، حي، الله حي.

بينما «رئيفة» لازالت تتمايل يمينًا ويسارًا قائلة:

- الله، الله، آمين يا رب العالمين.

صرخت المرأة النوبية:

- يا ستار، يا قهار ارزق عبدتك ونجيها من أهل النار.

أم جعود: آمين، أشتاتًا اشتوت أبعد عنا أهل النار يا كريم يا جبار.

يؤمن النسوة على دعائها قائلًات:

- آمين.

تعالت أصوات النساء بالصياح طالبات الرحمة من رب العالمين لكي يرزق «رئيفة» بابن يدخل الفرح إلى قلبها.

اقتربت إحدي النسوة من أم «جعود» هامسة في أذنها قائلة:

- الحاجّة بتقولك إن اللي على مراة ابنك صعب وعنيد وعايز شغل كتير، فالمعلوم هيزيد.

نظرت لها أم «جعود» بتمعن شديد وعيناها ملتهبة من كثرة دخان البخور الذي عبأ المكان فأصبحن كأنهن جالسات داخل الفرن المحمي بالنار، والعرق يتصبب من أجسادهن كالأنهار، أخرجت أم «جعود» من صدرها نقودًا معطية إياها إلى السيدة التي صرخت بصوت عالٍ قوي قائلة:

- يا حي يا قيوم زيل الغم والحزن من قلب ست الحسن.

صرخت النساء بأصوات أعلى من سابقتها لتزيد الوضع اشتعالًا والبخور دخانه يتزايد متصاعدًا وبدأ يخرج من نوافذ البيت بغزارة كثيفة للعيان حتي أن الواقف بالخارج يعتقد أن المنزل يحترق من الداخل. اقتربت السيدة النوبية وبيدها ديك لتقوم بخنقه بيدها الضخمة ومن ثم خلعت رقبته عن جسدة واقتربت من رفقة لترشها بالدم والنساء يصرخن بينما رئيفة قد أصابتها حالة رعب من ذلك المنظر وما زاد الرعب هلعًا هي الدماء التي نثرت عليها لتصيبها بالاشمئزاز والرغبة بالتقيؤ حتي أنها تقيئت بالفعل في وسط الدائرة النسائية التي تحيط بها فزاد صراخ النساء الجنوني الشكل وأخذت السيدة النوبية تصرخ بجنون وهي تزغرد قائلة:

- اللي عليها خرج ، اللي عليها خرج و ما عاد هناك هرج و مرج .

تعالت الصيحات حتي أنها استدرجت «جعود» الذي سمعها من بعيد لدى رجوعه إلى داره فما أن رأي الدخان يتصاعد من النوافذ وصراخ النساء وصل إلى مسامعه؛ جعله كل هذا يجري كالحصان الجامح ليري أي لعنة أصابت منزله. حاول فتح الباب فلم يقدر لأنه موصد من الداخل لذا سارع بالدخول من النافذة والسقوط داخل المنزل. ليجد كمية النساء غير الطبيعية القبيحة المناظر التي تكدس بها داره من الداخل وتلك السيدة النوبية التي لازالت ترش من دماء الديك في جميع أرجاء المنزل. صمت الجميع متوقفات عند رؤيته كأنهن أصابهن رعب أو حل عليهن شيطان من الجحيم ليصرخن تلك المرة وهن خارجات من المنزل جريًا و«جعود» يتعقبهن

طاردًا وقذف أي شيء يجدة أمامه عليهن حتي فرغ المنزل في أقل من دقيقة عائدًا إلى هدوئه. اقترب «جعود» من أمه وعيناه تطلق شررًا فانزوت هي بأحد أركان المنزل وكأنها لم تفعل شيئًا بالمرة ناظرة إليه ببرود شديد وهو لا يعرف ماذا يقول لها حتي تكلمت هي محركة فمها يمينًا ويسارًا قائلة:

- ما هو من خيبتكم أنتم الاتنين.

لم يستطع «جعود» أن يتفوه معها بكلمة واحدة فذهب إلى زوجته التي دخل قلبها الخوف منه فنزلت منحنية تقبل قدميه فما منه إلا أن زجرها بقدمه لتقع على الأرض إلى الخلف ساقطة برأسها على حجر الرحي لتنفجر الدماء من رأسها مغرقة أرضية المنزل، رأي «جعود» هذا فأصابه مسًا من الجنون صائحًا في أمه:

- عاجبك كدة.

لم تتفوه أمه بكلمة واحدة بل أسرع هو إلى كبس الجرح بالبن حتي يوقف الدماء ويذهب بها إلى الحكيم.

obeikandl.com

-٧-

- الحكيم العلم بالغَيبِ هو ربنا يا روجينا هانم مش ساحر مشعوذ.

نَطَقَتْ أم «رفقة» بذلك الكلام وهي جالسة بجانب ابنتها النائمة في سبات عميق مرهقة. لم تنطق «روجينا» بكلمة واحدة وهي جالسة من الجانب الآخر لسرير المسكينة الصغيرة.

أم رفقة: الصراحة أنا اللي أعرفه إن الناس تروح الكنيسة، تشوف كاهن يصلي ليها ويدعيلها مش تروح لمشعوذ.

لم تتمالك «روجينا» أعصابها فهتفت قائلة:

- عملنا كل دة يا هانم، لكن يبدو إن بنتك وشها شؤم، ست سنين وأكتر ومفيش حمل، اسألي نفسك ليه كدة؟ ابني سليم وأخذها وراح لآخر الدنيا علشان يعالجها ومفيش فايدة، عارفة دة معناه أيه، يعني لو ابني اتجوز تاني ممكن يخلف بسهولة، لكن نعمل أيه اتكتب علينا الغم.

صُدمت أم «رفقة» حين سماعها هذا الحديث من «روجينا» هانم ولم تعرف بماذا ترد عليها فأجهزت عليها الأخري مكملة:

- والحكيم جه وكشف عليها وطمنا، أعصابها تعبت وخلاص، انتهينا.

نهضت «روجينا» من مجلسها تاركة «رفقة « وأمها بمفردهما.

استيقظت «رفقة» وهي تشعر بصداع نوعًا ما طالبة من أمها قليل من الماء فما من الأخيرة سوى أن روت ابنتها ماسحة عرقها من على جبينها سائلة إياها عن حالها الآن لتطمئنها «رفقة» بالخير، ربتت الأم على رأس ابنتها في حنان بالغ قائلة:

- على فكرة أنا اتصلت بجوزك علشان يجي يشوف اللي حصل دة.

نظرت «رفقة» بتمعن إلى أمها وقد ظهر عليها القلق الشديد من جراء ما ذكرته والدتها قائلة بحدية:

- ليه يا ماما قولتي لمنير، هيزعل دلوقتي من أمه علشان الكلام الفارغ دة و هتبقي خناقة مع الهانم الكبيرة.

أكدت الأم على أن موقفها سليم وأنه يجب أن يعلم بما حدث حتي يتصرف مع أمه بهذا الشأن فذاك الأمر لن يمر بسهولة متناهية. ويجب أن يكون هناك رد رادع على ما حدث. مستفسرة الأم عن حال تلك الأيام التي جاءت على أبناء الناس حتي يرموا بأنفسهم في أيدي رجال السحر والدجل باسم تحقيق الآمال. شعرت «رفقة» بأنها تريد أن تغادر الفراش الآن فهي تعلم ماذا تريد بالضبط لكي تعود إلى حالتها الطبيعية. حاولت والدتها أن تثنيها عن عزمها زاعمة أن الأب «أغابيوس» كاهن الكنيسة سيأتي لزيارتها عند رجوع زوجها المنتظر وصوله بين الفنية والأخري إلا أن «رفقة» صممت على تنفيذ مرادها لتنفث عن غضبها المكبوت.

ارتدت ملابس الصيد الخاصة بها ومن ثم تناولت بندقية والدها الذي علمها أصول الصيد عندما كانت حديثة السن لأن الدكتور «مكاري» رحمة الله عليه والد «رفقة» كان من أبطال الصيد، صيد الحمام، كما كان يجيد الصيد بسهولة وكفاءة نادرة على الأهداف الحية لقوة إبصاره ودقة تركيزه وقد ورثت عنه هذه الصفات ابنته الوحيدة «رفقة» التي اشتهرت مثل والدها بصيد الحمام بين كل أهل القرية والنجوع والكفور المجاورة لهم؛ لذا عندما تشعر بأنها تريد الاختلاء بنفسها وجدت حالها مع بندقية أبيها المحشوة بالخرطوش تحت سماء القرية لتصطاد الحمام الطائر واضعة نهاية له بقرية الطين.

اتصلت «رفقة» برفيقة عمرها وصديقتها «شريفة هانم أوطه» لترافقها برحلة الصيد تلك، فلبت الأخيرة النداء حيث اشتهرت «شريفة» منذ صغرها باقتناص الحمام بجدارة ومهارة عالية لا تقل عن صديقتها «رفقة» حيث غلبت عليها تلك الهواية، فإذا قررت واحدة أن تخرج لم تجد ملاذها إلا برفقة قرينتها وبالفعل لبت «شريفة» طلب «رفقة» لكي يكون التجمع بنواحي القرية في تمام الظهيرة عند «أرض الصياد» التي اشتهرت في القرية بوفرة الحمام الطائر فوقها حيث السماء مكشوفة تحت الأرض الخصبة الواسعة، لذا لا يجدون عائقًا بينهما وبين ضالتهما.

أنهت «رفقة» استعدادتها وأمها تحاول أن تمنعها، لكن لا جدوي. أمرت «رفقة» رئيس الخدم «لبيب» بتجهيز الحصان «رعد» الخاص بها. وما هي إلا دقائق حتي عبرت بهو القصر واجدة «روجينا» تحتسي القهوة لينظرا إلى بعضهما البعض بتحدٍ نوعًا ما و»روجينا» غير مصدقة كيف استعادت «رفقة» عافيتها بهذه السرعة ما بين عشية وصباح هكذا. نظرت «رفقة» بتمعن شديد إلها ثم قالت بصوت قوي جهوري واثقة من نفسها:

- بنجور ماما، أنا رايحة أصطاد .

لم تتفوه «روجينا» بكلمة واحدة بل أكملت شرب قهوتها في صمت فما من «رفقة» إلا أن أكملت طريقها للخارج لتقوم روجينا بالنداء على «لبيب» طالبة منه تأمين حصان الهانم الصغيرة ومرافقة اثنين من الخدم المسئولين عن نزهات الصيد لها فلم يكن من «لبيب» إلا أنه أكد أن كل شيء تم إعدادة على أكمل وجه.

ارتقت «رفقة» جوادتا الأسود «رعد» الذي ما أن أحس بها حتي صال فرحًا بقدومها ليرفع قدميه الأماميتين وهي فوقه حيث ارتعش قلب أمها مشاهدة ابنتها من الشرفة، لكن تبددت مخاوفها حينما نظرت إلها ابنتها مُلَوِّحَةً لها مُطَمْئِنَة إياها بأن كل شيء على ما يرام ولسان حال أمها يقول:

- عنيدة زي أبوك.

أما عن حال «روجينا» فلم تصدق في البداية كم قوية هذه الشابة التي نست أو

تناست كل ما حدث بالأمس القريب لتكون إلى اليوم أول من ينهض من الكبوة، أعجبتها قوة كتها، ولكنها لازالت تريد الحفيد الذي سيحمل كل خير العائلة ولعل ما حدث ليلة أمس يكون بادرة أمل، فكل ما حدث لم يتخطَ سوى تمتمة الرجل «عبد القدوس» ببعض الكلمات الغريبة التي لم يفهم مغزاها سواه ومن ثم طلب من الجميع التماسك والجلوس في شبه دائرة على أن يمسك الجميع بأيدي بعضهم البعض وترديد كلمة قدوس، بينما هو لازال يردد كلمات غريبة مشعلًا أمامه مبخرة فخارية واضعًا من حين لآخر يد بخور طيب الرائحة ليملأ الغرفة الصغيرة التي كانوا بها حتي اختنق الهواء تمامًا من كثرة الدخان الكثيف لتسعل «روجينا» بشدة أعقبتها «خاتون»، أما الصغيرة فتحاملت على نفسها حتي بدأت تحدث أشياء غريبة عندما صرخ الرجل قائلًا:

- حضروا، حضروا، ملائكة النجدة حضرت.

رأي الجالسون حوله أعين سوداء منيرة قد هبطت من سطح الغرفة لتستقر حولهم وتدور في دوائر ومازال «عبد القدوس» يردد قدوس، قدوس، قدوس، ليصيب الجميع الرعب. أما «رفقة» فلم تتمالك نفسها عندما وقفت الأعين أمامها جاحظة شاخصة إليها وحدث ما حدث لتفقد الوعي تمامًا.

انطلقت «رفقة» راكضة بحصانها «رعد» ذلك الحصان العربي الأصيل الذي أهداها لها «دوس» باشا في عيد زواجهما الأول عالمًا وَلَعِهَا بمثل تلك الجياد، كان وقتها «رعد» مهرًا صغيرًا شديد الجسم، جميل القسمات، أسود كالليل، سريع كالهواء، خفيف كالماء. تتذكر «رفقة» حنان الباشا وطيبة قلبه هامسًا في أذنها:

- دي هديتي لك ومستني هديتك لي.

رحل الباشا عن عالمنا ولم يستلم هديته، هكذا أقنعت «رفقة» نفسها بذلك ملتمسة العذر لحماتها عن ما حدث أمس، فالجميع رابض على مركب واحدة وإما أن يهلكوا جميعًا أو أن ينجوا جميعًا وعلى الناحية الأخري من الشاطئ توجد عائلة «وفيق» منتظرة كالضباع ما سوف يحدث لتنهال على أجسامنا الغريقة فاتكة بها.

لم تخرج «رفقة» من أفكارها تلك سوى التحاها «بشريفة» التي امتطت حصانها «برق» بيضاء اللون، قوية البنية ذات العيون الواسعة الرائعة التي ما أن تنظر إليها حتي تأسِرُكَ بجمالِها وسِحْرِها فهي أنثي شرسة، صهلت «برق» عندما التقت «برعد» بينما التحم خدم الهوانم لتأمين رحلة الصَيْدِ الفُجَائِية تلك، نظرت «شريفة» إلى «رفقة» بتحدي أخوي قائلة:

- والله زمان يا بنت الدكتور.

ابتسمت «رفقة» من حديث صديقتها المسلية «شريفة»، صديقة الطفولة حتي الآن، أكثر من ثلاثين عامًا صداقة وإخوة و»شريفة» ليست سوى ابنه «حسونة باشا الأناضولي»، جميلة مثل أمها التي من أصول تركية، بيضاء اللون ذات شعر أسود داكن، تهوي الصيد مثل والدتها رحمة الله عليها التي كانت ندًا للدكتور وهكذا انتقلت تلك الصداقة والندية إلى البنات الذين كانوا رفقاء الآباء والأمهات في رحلات الصيد وهاهما الآنَ وجهًا لوجه رفقاء كهدتم دائمًا. قالت «رفقة»:

- هانشوف لسه إيدك بترعش بعد الطلقة الخامسة ولا لا.

وبدأت الجولة، خرطوشًا أمام خرطوشًا، ضرب نار يعقبه ضرب نار و أرض الصياد شاهدة على كمية الحمام المتهاوي من السماء كالسيل الجارف، فنادرًا ما تخيب طلقة من يد كلتا السيدتين المحنكتين. والخدم يجرون يمينًا ويسارًا بالجياد يلتقطون الحمام الساقط من الأعالي. ظلوا هكذا وقتًا يسيرًا و»رفقة» و»شريفة «لم يصبهما التعب أو الإرهاق؛ فرحلة الصيد بالنسبة لهما أكثر من اللهو والتسلية إنها متعة ما بعدها متعة.

أخرجت «شريفة» ساعتها الكاتينا الذهبية لتجد أن الوقت قد تخطي الساعة الثالثة عصرًا فقررت إنهاء الجولة للعودة إلى زوجها وأبنائها على أمل اللقاء مرة أخري. لم تتردد «رفقة» في إنهاء الجولة بينما الخدم يحصون عدد أزواج الحمام لكل من السيدتين ليعلنوا النتيجة، فيجب أن تفوز واحدة منهما وظهرت النتيجة لصالح «شريفة أوطه»، لقد أحصت أكثر من زميلتها، التهبت مشاعر «رفقة» وهي تتصبب عرقًا لا تعلم كيف خسرت؟!

نظرت «شريفة» إلى صديقتها فرحة بانتصارها على غريمتها قائلة:

- بقإلى زمن مغلبتش بنت الدكتور، شكلك تعبانة، روحي ادربي تاني وتعإلى.

ابتسمت «رفقة» قائلة:

- دة علشان متزعلش بس، لكن المرة الجاية هيبقي فوز ساحق ماحق.

استأذنت «شريفة» لتخرج من أرض الصياد يتبعها خدمها بينما بقت «رفقة» بمفردها وقد أنهكها التعب آمرة خدمها أن يسبقوها فترددوا في البداية، فكيف يتركونها بمفردها، لتأمرهم ثانية بِلَهْجَةٍ صارمة فما منهم إلا أن أطلقوا العنان لخيلهم.

وقفت «رفقة» بحصَانِها «رعد» تحت سَماء الله الواسعة شاعرةً بضيقها عليها هي فقط، لا تدري إلى أين تذهب؟ أو مع من تشكو همها؟ فكم مرة وقفت مثل هذه الوقفة تحت السماء مناجية ربها أن يزيل عنها عارها ويعطيها كرامة وسط الناس منعمًا عليها بحياة جديدة تدخل إلى عالمها هي وزوجها، لكن لا استجابة، شعرت أنه ربما هي المذنبة أو أنها لا تستحق تلك النعمة التي ينعم بها الله على كل النساء من حولها. أما هي فأحشائها لا تزال جافة فارغة كالهاوية التي ليس فيها سوى موت، أي قدر هذا الذي حاصرها واضعًا إياها في خندق مليء بماء يكاد يغرقها، لقد وصلت بها الحال أنها فكرت كثيرًا في الهرب أو الانتحار لتعطي فرصة لزوجها الذي تحبه من قلبها متمنية له كل السعادة والبهجة بأن يقترن بأخري لعلها تعطيه الأمل والحياة الجديدة التي طالما أرادة الانقاذ عائلته منفذًا وصية أبيه. شعرت «رفقة» بالعجز الكامل وشلل التفكير فأمسكت ببندقيتها موجة إياها إلى صدغها ويدها على الزناد وانتظرت قليلًا من الوقت ومن ثم وجهتها إلى السماء مطلقة الأعيرة النارية وهي تنظر إلى الأعإلى صارخة بقوة، صرخة العجز والاستحالة طالبة قوي إعجازية من سكان السماء، إنها تريد معجزة معتبرة ذلك حقها

- استيقظت «رئيفة» من نومها لتجد نفسها بمفردها بغرفتها مستلقية على المرتبة المفترشة أرضية الحجرة ورأسها به صداع رهيب؛ نتيجة الارتطام الذي حدث بالأمس، تحسست مكان الألم شاعرة بنغزة من تحت الرباط الطبي الموضوع عليها، نظرت حولها

يمينًا ويسارًا لتجد نفسها تبكي بحرقة شديدة شاعرة بأنها لا حول لها ولا قوة ويبدو أنه لا فائدة من كل ما يحدث. حاولت النهوض رويدًا رويدًا فهي لا تزال تشعر بدوخة وعدم اتزان؛ نتيجة السقطة التي نتج عنها شق صغير بفروة الرأس استلزم أن تأخذ غرزتان في مستوصف القرية.

نهضت بالكاد وهي تجر أقدامَها جرًا خارجة إلى فناء الدار فلم تجد أحدًا. أخذت جلبابًا نظيفًا من على حبل الغسيل مغيرة جلبابها الملطخ بالدماء، دماء الديك الذي لا تعلم إن كان مباركًا أم ملعونًا؟ سيأتي بفائدةٍ أم بالخرابِ؟ وجدت نفسها واقفة وسط فناء الدار قائلة بصوت هامس:

- الله يسامحك يا حماتي.

شعرت بحركة غريبة بعد أن ارتدت الجلباب النظيف ولم يكن هذا سوى زوجها «جعود» الذي وجدتا مستيقظة واقفة أمامه وقد ظهر عليها التعافي نوعًا ما، لم تعرف «رئيفة» في البداية ماذا تقول؟، فأذعنت إلى الصمت لبرهة حتي جلس «جعود» على المصطبة مخرجًا سيجارة سبق ولفها لنفسه مشعلًا إياها مدخنًا ناظرًا إلى زوجته بتمعن ووجمه لا يبشر بالخير فقررت هي أن تدافع عن نفسها قائلة:

على فكرة أنا مليش دعوة، هي أمك اللي جابت الناس دي وغصبتني أعمل كل دة.

ظل «جعود» رامقًا زوجته بتلك النظرة القاسية وهي تكمل حديثها باستعطاف وهو يدخن:

- أنا في الأول رفضت، لكن هية غصبت على علشان خاطر ربنا يرزقنا بعيل، والله العظيم هي دي الحقيقة، أعملك تاكل لقمة.

لم يتفوه «جعود» بكلمة واحدة، بل ظل يدخن منهيًا سيجارته لتقول له بحنان شديد محاولة استجداء عطفه:

- طب أعملك شاي يا أخويا.

لملم «جعود» حاله خارجًا من الدار فاعترضته بجسدتا قائلة بأسي واضح:

- والنبي ما تسيبني وأنت زعلان، أحب على يدك.

نزلت لتقبل يدة بينما هو سحبها ناظرًا إليها بقسوة شديدة وهي تكمل:

- طب أعمل أيه علشان ترضي عني، خلاص يا سيدي طلقني وريحني من ذنبي، شوف واحدة تجيبلك عيل.

أطال النظر إليها قليلًا ثم أمسكها من يدها مبعدًا إياها عن الباب خارجًا وهي تصرخ من خلفه باكية قائلة:

- أبوس رجلك طلقني وشوف حالك.

لم يلتفت إليها «جعود» بل مضي بطريقه وقلبه يتمزق من الداخل تمزقًا فهو يحب تلك المجنونة التي يعلم علم إلقين أنَّ ما حدث ليلة أمس ليس لها فيه ناقة ولا جمل إنما التخطيط كله والتنفيذ من تدبير أمه وليس بإلبد حيلة بالمرة، لكنه واقع بين المطرقة والسندان فأيهما يصب عليه لعنات غضبه أمه أم زوجته، كيف يحولون بيته إلى بيت منخوليا؟ أيعقل أن يؤمنا بتلك التفاهات والترهات. أشعل «جعود» سيجارة بينما هو يسير على ضفة الترعة ناظرًا النساء يغسلن ملابسهن وبجانبهن أطفالهن يلعبن في الماء من حولهن والوجوه تعلوها الابتسامات المفرحة بينما قلبه يدمي متذكرًا قول «المربوطة» بأن الله سيرزقه من عندة، رفع نظره إلى السماء وقلبه يصرخ متسائلًا، إمتي؟ إمتي؟ رقت عيناه لامعة وغير مسار طريقه ذاهبًا إلى الشيخ «لقمان ابن العسال» شيخ الجامع بالكفر فهو سلوان «جعود» ومكمن سره ونداء قلبه المريح للنفس، صوت الروح التي يستكين إليها «جعود»، ذهب ليشكو له همه، لم يمض وقت إلا وكان يطرق باب دار الشيخ ولم يسمع إلا صوتًا ضاحكًا يقول:

- ادخل يا اللي بتخبط.

فما من «جعود» إلا أن تنحنح قائلًا:

- يا ساتر.

صاح الصوت الجهوري القوي قائلًا بحبور وصفاء:

- ادخل علك الأمان يا من تطرق بيت الشيخ لقمان.

ارتفع صوت الضحكات والقهقهة بينما قد دلف إلى الداخل «جعود» متتبعًا الصوت حتي وصل إلى الشرفة الخارجية المطلة على الترعة واجدًا كل من الشيخ «لقمان» يلاعب القس «أغابيوس» الطاولة.

- لقمان: شكلك يا أبونا ستزنق في خانة إلكْ وهتتعك.

ينظر الكاهن ضاحكًا قائلًا:

- يومٌ لك ويومٌ علك يا شيخ، تلك هي الحياة.

التفت الشيخ إلى «جعود» ناهضًا من مجلسه مصافحًا إياه قائلًا:

- يا أهلًا وسهلًا يا جعود يا ابني.

لم يكن الشيخ «لقمان» سوى شيخ جامع قرية الطين رجلًا في الستين من عمره معتدل القوام، فكاهي ولا يطيق النكد والحزن، ذو صوت جهوري ويدين فولاذيتين صافح بهما «جعود» الذي شعر بأنَّ يدة ستخلع من شدة قبضة الشيخ ليقول:

- سلاموا علكم يا شيخنا.

- وعلكم السلام يا ابنيي.

قام الكاهن مصافحًا «جعود» ليقول له الأخير:

- إزاي حالك يا أبونا.

- الحمد لله يا ابني.

ولم يكن الكاهن «أغابيوس»بأقل مودة وحبًا للجميع وعلى رأسهم الشيخ، ذقنه البيضاء تضفي على وجهه شكلًا روحانيًا ترتاح عند النظر إليه، قصير القامة ذو كرش محترم على بنية قوية، صوته هادئ ولعب الطاولة هواية لدى مع الشيخ «لقمان» في أوقات الفراغ، يحبه جميع أهل القرية.

الكاهن: طب أسيبك يا شيخ لقمان.

الشيخ: يبدو أنك خائف من الخسارة، العشرة راحت يا أبونا.

الكاهن: يدوم عزك، المرة الجاية عندي، بالإذن يا شيخنا.

الشيخ: في رعاية الله.

صافح الكاهن الشيخ و»جعود» تاركًا إياهما في سلام ليعود الشيخ بعد أن أوصله إلى باب الدار واجدًا «جعود» جالسًا وعلى وجهه مظاهر الحزن والألم فيحاول الشيخ إخراجه من تلك الحالة قائلًا وهو يضع براد الشاي على السبرتاية قائلًا:

- يفرجها من عندة ربنا، يا ما دَقّتْ على الرأس طبول، رَوَّق كدة.

نظر «جعود» إلى الشيخ بأسي وحزن واضح ليكمل «لقمان» حديثه:

- لا دة باين في كلام كتير هيتقال.

صب الشيخ الشاي مقدمًا كوبًا إلى «جعود» ثم أمسك السبحة المرمرية مستمعًا إلى «جعود» الذي بدأ في سرد ما لدى ليعرف رأي الشيخ.

obeikandl.com

-٨-

- شيخ أيه يا ماما اللي أنت أخذتِ رفقة ورحتِ ليه، دة دجال.

نطق «منير» بذلك موجهًا حديثه إلى أمهِ معنفًا إياها بغرفة نومها حيث اختلي بها فور عودته مباشرة من الإسكندرية لتنظر إليه أُمه بتمعن شديد قائلة:

- خلاص يا منير اللي حصل حصل ومش هنغير حاجة، وأهوه كان لمصلحتكم.

صعق «منير» من منطق أمه الذي نزل على رأسه كالصاعقة المدوية قائلًا بغضب:

- وأقول أيه لأمها دلوقتي؟ أبرر موقفي وموقفك إزاي، أقولها كنا بنفك السحر من على بنتك، يا ماما دة اسمه تهريج وقلة قيمة.

جلست «روجينا» تحتسي فنجان الشاي الخاص بها بشرفة غرفتها ليفهم «منير» أن الحوار انتهي والنقاش أغُلق وأنه لا فائدة من الحديث مع أمه؛ فهذه عادتها ولن تغيرها متي أرادت إنهاء حديث ليس على هواها تذهب إلى الشرفة تاركة من تتحدث معه. أطلق «منير» زفيرًا عميقًا مغادرًا غرفة والدته ليجد «لبيب» أمامه مبلغًا إياه بأن «الكاهن أغابيوس» بهو القصر في الانتظار، نظر «منير» إلى «لبيب» رامقًا إياه لا يدري إلى أين يذهب؟ ثم قرر أن يهندم نفسه مؤكدًا على» لبيب» أن يبلغ الكاهن أنه في طريقه لمقابلته فورًا على أن يقوم أيضًا باستدعاء «رفقة» هانم ووالدتها لمقابلة الكاهن .

ذهب «منير» إلى غرفته محدثًا نفسه مغيرًا ملابس السفر بأخري ناظرًا إلى المرآة مخاطبًا نفسه قائلًا:

- اهدأ يا منير، إن شاء الله خير.

لم يمض وقت إلا وكان «منير» جالسًا وسط زوجته ووالدتها وأمامهم في الجهة الأخري الكاهن يحتسي القهوة مبتسمًا كعادته سائلًا عن أهل القصر فردًا فردًا، فتعلل «منير» بغياب والدته لانشغالها بزيارة أحد الأصدقاء المرضي، أسرعت والدة «رفقة» بالهجوم قائلة:

- أيه رأيك يا أبونا في الناس اللي بتستخدم السحر وتروح برجلها لحد الدجالين.

وضع الكاهن فنجان القهوة جانبًا ثم شرع يشرح بطريقته المحبة التي لا تختلف عن اسمه «فاغابيوس» يعني المحب باللغة القبطية وذاك هو اسم الكهنوت الذي حصل عليه بعد الرسامة كاهنًا وتغيير اسمه من فرح إلى محبة وذلك عهدة مع أهل قرية الطين غير مفرقٍ بين أحد ناشرًا المحبة لمن حوله.

تحدث الكاهن المحب عن رفض الكنيسة والكتاب المقدس للسحر منذ العهد القديم، بل ولعن الله لتلك الفئة من البشر التي تمارس السحر لأنهم يتحدون إرادة الله وهذا لا يرضيه؛ لذا وجب على المؤمنين ألا يلجأوا إلى تلك الطرق الخبيثة التي دائمًا وأبدًا ما تؤدي إلى الهلاك في الأرض وفي الحياة الأخري أيضًا.

أنهي الكاهن إجابته حتي لاحقته والدة «رفقة «بالعديد من الأسئلة غير المباشرة ثم أعقبتها بالأسئلة المباشرة حتي شعر الكاهن بشيء غير اعتيادي بالمرة بينما شعر «منير» بالحرج الشديد، لا يدري ماذا يفعل؟ ولكنه رأي أنَّ أسلم حل أن يترك والدة «رفقة» تخرج كل ما لدبا لأنَّ من أصابه الضرر هي ابنتها الوحيدة قرة عينها وليكن ما يكون.

لم يكن الكاهن ضيق الأفق بل هو يعلم مشكلة أهل القصر العويصة لذا حاول تهدئة النفوس بشتي الطرق والاستعانة بالصبر والصلاة والصوم من أجل أن يحقق الله

لهم مطلبهم، حتي نجح في فرض حالة من الهدوء الحذر نوعًا ما منهيًا الجلسة شاعرًا بضيق نفس «منير» فطلب أن يختلي به فما كان من الأخير إلا أن توجه إلى حجرة المكتب فأزاح الكاهن ستار المشكلة قائلًا:

- منير بيه أنا أعرفكم من زمان من أيام الباشا والدك، و يعز على إني أشوف حزن وهم في القصر ومحاولش أساعد، حل المشكلة في إيدك لوحدك، احتضن مراتك وأرموا اتكالكم على ربنا، مشكلتك في إيد ربنا وحدة يا منير بيه، وأنا من ناحيتي هاحاول أقابل الهانم الكبيرة على انفراد في الكنيسة ونتلكم مع بعض شوية، ربنا يباركلكم كلكم.

انصرف الكاهن تاركًا «منير» لا يعرف بماذا ينطق مختليًا بنفسه بغرفة المكتب مخرجًا سيجار مدخنًا إياه ناظرًا إلى لوحة الباشا الزيتية حتي قطع حبل أفكاره دخول ابن عمه «غاصب» فجأة عليه مبتسمًا ابتسامة صفراء متصنعًا الود الزائف قائلًا:

- ابن عمي منير بيه وصل بالسلامة وأنا أقول القرية منورة ليه، حمدًا لله على السلامة.

نظر «منير» باستهجان إلى «غاصب» فهو يعلم نوايا قلبه حافظًا جميع حركاته ليجيب مصطنعًا الود قائلًا:

- الله يسلمك يا ابن عمي.
- وحشتنا يا غالي، وأيه أخبار إنجلترا على حسك.
- كويسة.
- واتوفقت في سفريتك.

ضاقت أعين «منير» متمعنًا به عالمًا مقصدة من السؤال ليجيبه بخبث قائلًا:

- أنا كنت رايح أتفسح وبس.

ابتسم «غاصب» بخبث قائلًا:

- وانبسطت في الفسحة.
- الحمد لله.

- يستأهل الحمد والشكر مع أن شكلك مش عاجبني خالص، أنت تعبان ولا حاجة.
- لا سليم وكويس جدًا.
- تمام، أنا قلت أجي أطمئن عليك وأسأل عنك، دة حتي مراد كان جاي معايا لولا إنه مشغول في شغله في دار الأيتام، وبيقولك هيعدي عليك بالليل.
- كتر خيره.
- مش هتشربنا حاجة.
- البيت بيتك يا غاصب، اطلب اللي أنت عايزه، بس أنا تعبان وعايز أطلع أريح شوية، متزعلش الجايات أكتر.

خرج «منير» من المكتب تاركًا «غاصب» بمفردة مخاطبًا نفسه:

- البيت هيبقي بيتي في يوم من الأيام، إياكش تنام ما تقوم يا منير.
- منير ابنك زي الفل، لكن هي اللي مش مظبوطة، ممسوسة من السفليين.

برقت عينا «روجينا» وهي تسمع «لخاتون» أثناء زيارتها لها بقصرها حيث فضلت عدم الاجتماع لدا حتي لا تراها «رفقة» لذا سارعت هي إلها لمعرفة نتيجة زيارة «عبد القدوس» التي تلخصت بأنه بعد التباحث مع ملائكه النجدة وُجِدَ أنَّ الشخصية الممسوسة هي «رفقة» ومن قام بربطها بأحد أبناء العالم السفلي لم تكن سوى «جانيت» زوجة «وفيق» لتكن اللعنة المقامة هي لعنة عائلية بحته منكم فيكم. اغتاظت «روجينا» عند معرفتها هذه النتيجة التي تسببت فيها زوجة الملعون الراحل وكما هو ملعون فلابد أن تكون هي ملعونة أيضًا؛ إلست تلك عائلة الملاعين متذكرة كل ما مر بها في حياتها من أذِيَّةٍ على أيديما، أنهت الجلسة لدى «خاتون» ليتوجها هما الاثنتان إلى «عبد القدوس» لكي يريا كيف سيكون حله لهذه المعضلة السفلية، و لم يكن ذاك «العبد القدوس» سوى إنسان أفَاقٍ رعديدٍ يَهْوَي اللَّعِبَ بعقولِ الناسِ القليلةِ الإيمانِ التي لا ترجو الله في مصائبها بل تتجه لمثل نوعيته من النصابين والدجالين موهمًا إياهم بأنَّه يجب أنْ يأتوا له بشيء من دماء حيضها حتي

يستطيع أن يفك العمل السفلي ويحرقه بدمائها لتعود إلى حالتها الطبيعية كأنثي وتحبل وتلد.

خرجت «روجينا» وهي لا تعلم كيف ستحصل على ذلك الطلب الغريب المريب. و«عبد القدوس» في دخيلة نفسه يضحك على سذاجة هؤلاء القوم الذين وضعوا ثقتهم فيه لأنه واثق تمام الثقة أنه هو من فعل العمل الخبيث «لجانيت» عندما حضرت لدى منذ ما يقرب من الست سنوات متخفية تحت جنح الليل، طالبة منه أنْ يربط الفتاه المدعوة «رفقة « إلى الأبد بعدم الإنجاب نهائيًا مجزلة له العطاء وقتها واعدة إياه أنَّ كل عام يمر بدون إنجاب « لرفقة» له منها ما لذ وطاب وما سد العوز ولا يجعله عُرضَةً للسؤال من أحد، ولكن ما أنْ حلت عليه «روجينا»عارضة عليه مبالغ كبيرة لم يتوان أنْ يحل نفسه من رباط «جانيت» لكي يدخل في اتحاد مع «روجينا» و«رفقة» ولن يحل القرد سوى من ربطه ولا يوجد سوى «عبد القدوس» القرداتي الذي يعرف سر القرد.

- جلس «منير» بمكتبه يدخن السيجار حتي طلب مقابلته» جعود» فسمح له بالدخول على الفور مصافحًا إياه.

جعود: حمدًا لله على السلامة يا سيد الناس.

منير: الله يسلمك يا جعود، حال العزبة كان عامل أيه وأنا مش موجود؟

جعود: كله تمام بفضل ربنا سبحانه وتعإلى.

منير: ونعم بالله، وأنت عامل أيه ومراتك عاملة أيه، مفيش جديد؟

ظهرت على وجه «جعود» خيبة أملٍ واضحة شعر بها «منير» متداركًا نفسه قائلًا:

- كله بإذنه يا جعود، كله بإذنه.

- على الله يا بيه، أنا كنت جاي أخد مشورة حضرتك في حاجة كدة، أنا معتبرك كبيري بعد ربنا سبحانه وتعإلى وعايز مشورتك يا بيه.

نظر «منير» بتمعن شديد مخرجًا دخان السيجار دفعة واحدة قائلًا:

- قل يا جعود، قلقتني.

- الصراحة يا بيه، أنت عارف الحال وعارف إن بقالي زمن متجوز وربنا مرزقش من رئيفة بعيال، فأنا قلت أتكل على الله وأتجوز تاني، أيه رأي سعادتك؟

لم يعرف «منير» بما يجيب «جعود»، فهو واقعٌ بنفس المأزق، ولكن الأخير لدى منفذ يمكن الهروب منه ولكنه لا يستطيع أن يتحرك قيد أنملة. سأله إذا كان قد خاطب أحدًا في ذلك الأمر ليؤكد «جعود» على أنه أول شخص يفاتحه في هذا الموضوع، حتي أنه لم يفاتح والدته أو حتي زوجته. حك «منير» فروة رأسه نازلًا بيدة على جبهته منشفًا قطرات العرق التي ظهرت فجأة محاولًا إيجاد إجابة مقنعة لإرضاء جميع الأطراف، فكما يعتز «بجعود» معتبره أخًا أصغر تربي معه منذ نعومة الأظافر والفارق السني بينهما ليس كبيرًا وكما يعامله هكذا يعز عليه أيضًا «رئيفة» التي كان أباه سببًا في زواجها من «جعود» فكيف يكون هو الآن السبب في طلاقها. لا يعلم كيف سيكون حال تلك المسكينة في حالة ما إذا تزوج «جعود» ثانية؛ لذا سارع «منير» بسؤاله عن حالة «رئيفة» إذا ما تحقق له مرادة بالزواج ثانية، فلم يجد لدى «جعود» سوى حسن النية وحلاوة العشرة التي دامت بينهما لأنه يحبها من كل قلبه ولو كان بيدة لارتضي بحاله ولم يفكر في الاقتران بأخري، ولكن تحت ضغط أمه التي تلح عليه ليل نهار بأن يري حظه في الإنجاب مع امرأة أخري لذا فهو لا يعلم من يرضي؟ أمه أم زوجته التي يحبها لكن للزمن أحكامه.

غادر «جعود «تاركًا «منير» مفكرًا في كل ما قيل واعدًا إياه بالتفكير في الأمر مفاتحًا «رئيفة» زوجته أولًا من جهة «جعود» وإبلاغه بالنتيجة وهما يعلمان علم إلقين أن «رئيفة» المسكينة لن ترفض ما هو خير لزوجها وسبيل لإسعادة حتي وإن أدي الأمر إلى أن تضحي بنفسها من أجل ذلك الشأن.

أقلق التفكير القاتل عقل «منير» الواقع بنفس المأزق متذكرًا حديث «بقطر السماك» ومنطق صديقه «حسنين» بأنَّ العمر لا يعاش سوى مرة واحدة و عليه أن ينتهز تلك الفرصة الوحيدة التي لا تعوض، تاركًا وراءه من يرث كل تلك الأراضي والأموال

حاملًا اسم العائلة ولوائها على أنْ يعيش وحيدًا أو يموت تاركًا كل ذلك إلى المجهول أو إلى عائلة «وفيق» وهذا ما لا يريدة أو يريد التفكير فيه من قريب أو بعيد.

- بعيد أوي الاحتمال دة يا حبيبتي، أنا مينفعش أتجوزك، أنت فاهمة.

نظرت» تحية» تلك الأرملة الثلاثينة العمر التي كانت يومًا ما زوجة المرحوم «تادرس» باشا، اعتدلت في مجلسها وهي شبه عارية لا تكاد تغطي جسدتا سوى بقميص شفاف جدًا وهي على الفراش مشعلة سيجارة ناظرة إلى «غاصب» العاري الجسم فيما عدا ما يستر العورة فقط وهو يدخن سيجارته لتقول له بدلال:

- طب ما إحنا عايشين بقالنا سنين على الحال دة زي المتجوزين.

ضحك «غاصب» مقهقهًا من منطقها الخبيث من وجهة نظره قائلًا منفثًا دخان سيجارته:

- نعيش زي المتجوزين ممكن، لكن نتجوز مش ممكن.

اغتاظت «تحية» من إجابة «غاصب»، لكنها تعرف أنها لن تجد لدى غيرها، ولكي تغيظه كعادتها محاولة إشعال حبه قالت بثقة:

- خلاص يبقي كل واحد فينا من طريق وإبقي تعال قابلني هتعرف أخبار صاحبتك إزاي ومنين.

حك «غاصب» أنفه بإصبعه متأملًا «تحية» وقد ظهرت على وجهه علامات الدهاء والمكر مصطنعًا الود رافعًا أحد حاجبيه قائلًا وقد ضاقت عينيه نوعًا ما:

- دة أنت الخير والبركة يا حبيبتي.

انتصبت «تحية» من فِرَاشِها ليظهر جسدتا الغض الجميل العاري الذي لا يغطيه سوى القميص الشفاف مزيدًا إياها شهوة لتذهب مسرعة جالسة على حجره في لهفة قائلة:

- صحيح أنا حبيبتك.

أمسك «غاصب» السيجارة الخاصة به واضعًا إياها في فمها لتأخذ جرعة من الدخان

منفثة إياها في وجهه ليقول لها:

- وأنا باحب حد تاني غيرك يا مجنونة؟

- طب ومش عايز تجوزني ليه.

ارتأي «غاصب» أن يلين مداهنًا لكي يصل إلى مرادة، فقال في دلال مصطنع زائف:

- كل حاجة وليها وقتها، لازم أرجّع حقي وحق عائلتي الأول وبعد كدة أفكر في الجواز.

- ودة يأخد وقت أد أيه؟

- يأخد زي ما يأخد.

- طب خد ثروتي كلَّها، خد روحي، أنا وأنت نبدأ حياتنا في أي مكان تاني ونسيب عائلة منير.

- ماينفعش يا حبيبتي دة ثأر قديم ولازم يخلص.

- وعقبال لما يخلص أموت أنا. أنا بأحبك يا غاصب.

نظر إليها «غاصب» مصطنعًا الحنان مُربتًا على شَعْرِهَا الأسود الناعم قائلًا:

- أيه أخبار رفقة ؟

تمعنت فيه بغيظ شديد عالمة أنها لن تستطيع أن تغير رأيه في موضوع الجواز منها لذا تنازلت ولو مؤقتًا عن ذلك والتطرق إلى الحديث عن «رفقة» لتقص له كل شيء حدث وعرفته منها، وأنَّهُ يبدو أنَّ رحلة إنجلترا لم تكن موفقة بتاتًا. ظهر الارتياح على وجه «غاصب» عندما علم أنَّ«روجينا» قد اتجهت إلى طريق عبد القدوس آخذة رفقة معها والخير كل الخير إلى زوجة ابن «خاتون» التي هي صديقة «لتحية»، قَطَبَ «غاصب» حاجبيه مبتسمًا مفكرًا في كل ما ذكرته مزيحًا إياها من على حجره مرتديًا ملابسه وهي تسأله عن ميعاد زيارته القادمة فلم يرد عليها بل تركها بلامبالاة لتغتاظ منه جدًا وهي ترتدي ملابسها ناظرة إلى نفسها بالمرآة متذكرة ماضيها الممتلئ بالامبالاة تجاهها، تمعنت في المرآة لتري زوجها المرحوم «تادرس» باشا واقفًا وراءها. ذاك الرجل المسن ذو السبعين عامًا وهي تتزين جالسة أمام المرآة بينما هو يربت

على شعرها الناعم قائلًا بصوت مبحوح:

- النهاردة مش هنسافر يا حبيبتي، علشان في ضيف مهم هيزورنا، ضيف مهم جدًا من السرايا الملكية.

نظرت إله باستغراب شديد وضيق متسائلة قائلة:

- أنت مش وعدتني إنك النهاردة هتسفرني إسكندرية نغير جو.

معلش نأجلها شوية، الضيف أهم من السفر ولازم تكوني قاعدة وسطنا، ألبسي الفستان الأزرق السماوي اللي جبتهولك من فرنسا أبو فتحة صدر واسعة، لازم تكوني متألقة النهاردة.

قاطعته في غضب قائلة:

- بس أنا كنت عايزة أسافر.

انحني هامسًا في أذُنِها قائلًا:

- السفر مش هيطير، هنلاقي عليه، المهم دلوقتي ألبسي الفستان وكل اللي يطلبه منك الضيف تعمليه.

تأملته في المرآة قائلة بغيظ:

انا زهقت من العيشة دي.

انغلق حاجبًا «تادرس» قائلًا في هدوء قاسي:

- أوعي تنسي نفسك، وتنسي أنا جبتك منين يا حلوة واتفقنا على أيه، أنت هنا بتنفذي أوامري وبس وإلا أرجعك منين ما لقيتك، «داكور» يا هانم ولا لا.

نظرت إليه وهي بلا حيلة لتؤمئ برأسها بعلامة الإيجاب فيبتسم مربتًا على شعرها تاركًا إياها وهي تسب وتلعن، ولكن بلا فائدة فهي لن تنسي أصلها كفتاة كانت من طبقة راقية لأب عاشق لمنضدة القمار حتي فقد كل ثروته لتهجره زوجته تاركة له ابنة صغيرة لم يستطع أن يرعاها لتنتهي حياته برصاصة مستقرة في رأسه من فاعل مجهول نتيجه الدين التي تراكمت عليه وعدم وجود طريقة لسدادها. وتبدأ

رحلة عذاب الصغيرة «تحية» التي قذفت بها الأيام من منزل لآخر بين أقاربها حتي انتهي بها المطاف متزوجة من «تادرس» باشا الرجل الذي يكبرها بأكثر من خمسين عامًا، لتجد فيه الحماية والأمان والمال ووداعًا للحب والعواطف، ليتفق معها من أول يوم أنَّه لن ينجب منها؛ فهو أرمل سابق مرتان وله ابنان بالخارج ستؤول إليهما كل ثروته ولا مانع من أن يكتب باسمها بعض الممتلكات والسيوله النقدية لتعينها بعد رحيله عن هذا العالم الذي لن تكون وظيفتها فيه معه سوى محظية لأصدقائه البشوات والبهوات الذين تربطه بهم علاقة عمل قوية لتسهيل تلك العلاقات. وارتضيت هي لتسير عجلة الحياة معها بالمقلوب كما تخيلت هي.

عادت «تحية» من ذكرياتها الإلمة إلى واقعها المرير الذي لم يتغير كثيرًا، لقد ظنت أنَّه بعد انتقال «تادرس» من هذا العالم ستتبدل حياتها إلى الأحسن. صحيح أنها لا تنكر فضله عليها وتركه القصر باسمها وبعض الممتلكات التي تعينها على العيش مستورة دون سؤال اللئيم لتصبح بذلك سيدة مجتمع بقرية الطين، ولكن على النقيض الآخر ترك نفسًا خربة أو بمعني آخر كما تشعر هي عاهرة مرتزقة تعيش داخل جسد بشري. لقد كانت محظية للبشوات والبهوات والآن بعد أن تمكن منها الداء وجدت الدواء في «غاصب» الذي وقعت بحبه سريعًا جدًا لتجد فيه ضالتها المنشودة، أما الآخر فقد استغل قربها من «رفقة» كصديقة ليعرف أخبارها ويحيك المؤمرات ناقلًا إلى أمه كل شيء عن أهل قصر «خياط» باشا لعل وعسي يصيبون أحدًا منهم بسوء أو أذي. و«تحية» تعلم ذلك تمام العلم وحبها «لغاصب» هو ما يدفعها لتنفيذ كل أوامره راجية أن ينفذ وعدة لها بالزواج، ذلك الوعد الذي تعرف من دخيلة نفسها بأنَّه لن يتم. ربما وعدها في لحظة حظ ومرت السنون ولا أمل في الزواج وهي التي تحلم بأن تتزوج شخصًا تحبه ويحبها ويصبح لها ابن أو ابنة تفرح به مثل صديقاتها. هل سيتحقق لها هذا الحلم؟ أم سينتهي بها المطاف وحيدة في قارب الحياة. كل تلك الافتراضات والهواجس دارت داخل عقلها لتعود بها مرة أخري لتنفيذ أوامر محبوبها وعشيقها "غاصب"

-٩-

- غاصب طرد النهاردة تلات فلاحين من أرضه.

التفت المعلم «زعتلي» إلى «كبس الهواء» الذي صب الشاي واضعًا إياه أمام المعلم.

الزعتلي: الله يرحمك يا خياط باشا عمره ما قطع عيش فلاح أبدًا، متعرفش طردتم ليه ؟

كبس: علمي وعلمك واحد يا معلم.

تدخل أستاذ « قلعاوي» قائلًا:

- الحقيقة عائلة خياط دي غريبة، شتان بين منير بيه وغاصب ابن عمه، فرع وفيق مش حلو بالمرة.

الزعتلي: يعني هو هيجيبه من برة، هو في حد في القرية ينسي وفيق في عز شبابه والبهدلة اللي كان بيعملها.

قلعاوي: هو حد ينسي يوم ما ضرب نار على شلش بيه وكان هيموته علشان فكر بس يجي جنب البنت الغازية بتاعته.

الزعتلي: أي والله ولا ساعة لما أبوه الباشا جابه من كفر السباع جنبنا سكران وحالته طين وعملوا حادثه بالعربية ووقعوا في الترعة لولا ستر ربنا كانوا غرقوا.

دخل المأمور عليهم ملقيًا السلام ليبادلوه إياه وهم ينظرون إلى بعض بحذر وريبة

حتي جلس هو مشعلًا سيجارة طالبًا فنجان قهوة سادة متحدثًا إلى الأستاذ «القلعاوي» قائلًا في هدوء:

- مفيش أخبار جديدة يا أستاذ.
- أبدًا يا باشا، الجديد عندكم دايمًا يا سعادة المأمور.
- لا صدقني مفيش جديد، معرفتش حاجة عن الواد اللي قتل أبو ناموسة.
- وأنا هاعرف منين، أنا مدرس غلبان من الدار للمدرسة للقهوة ودمتم.
- بخير إن شاء الله، على فكرة....

ارتفع صوت المأمور قاصدًا أن يسمع القهوة كلها مكملًا:

- على فكرة التقرير الجنائي للقتيل أبو ناموسة وصل من يوم، أبو ناموسة اضرب بمسدس ٩ مللي ماركة «سميث»، عارفين دة معناه أيه؟

ينظر الجميع مستغربين إلى بعضهم البعض غير واجدين إجابة للرد على المأمور الذي أكمل حديثه بعد أن ارتشف من فنجان القهوة قائلًا:

- يعني كل اللي معاه مسدس ومثبوت في دفاتر النقطة إنه معاه رخصة سلاح نفس الماركه اللي اتقتل بيها أبو ناموسة هيبقي مشتبه فيه يا أستاذ.

حك «كبس» رأسه مزيحًا الطاقية البيضاء ماسحًا عرقه قائلًا:

- طب واللي مش متقيد عند سعادتك يبقي منين.

نفث المأمور دخان سيجارته بالهواء مرتشفًا من القهوة قائلًا بثقة:

- يبقي هاجيبه حتي ولو كان في بطن أمه والحاضر يعلم الغائب.

وضع «فكري» حساب القهوة على المنضدة الخشبية بجانب فنجان القهوة الفارغ تاركًا المكان وخلفه جميع الجالسين ينظرون إلى بعضهم متسائلين عن كينونة صاحب المسدس 9 مللي ماركه «سميث» هذا الذي قتل به أبو ناموسة ليقطع حبل أفكارهم «القلعاوي» قائلًا:

- أكيد مش حد من البلد هنا اللي يعمل كدة، إحنا بلد أهلها مسالمين كلنا، اللي

عمل كدة ممكن يكون حد من رجالة الجبل.

رد عليه المعلم بعد أن شد نفسًا عميقًا من الشيشة منفثًا إياه في الهواء:

- ورجالة الجبل يعملوا كدة ليه وسط الناس، من عوايدهم إنهم يخفوا الجثة مش يقتلوها وسط القهوة.

قلعاوي: كلام سليم.

كبس: ويمكن يكون حد تاني غير أهل البلد، أبو ناموسة كان نصاب وحرامي وشهرته واسعة.

الزعتلي: أنا مش عارف هنخلص أمتي من وجع الدماغ دة.

القلعاوي: لما يلاقوا القاتل يا معلم.

مرت «المربوطة» أمام القهوة فانتبه لها جميع الجالسين ليخرج «كبس» بكوب الشاي لتأخذه وتذهب في سلام. أخذته منه ثم أفرغته في الأرض وهي تقول بصوت مرعب:

- الدم هيبقى زي الشاي كدة، يا بلد مفهاش راجل.

تركتهم «المربوطة» متجهة في طريقها تتهادي إلمنة وإلمسرة حتي تركت طريق القرية العمومي لتاخذ طريقًا آخر جانبيًا يبدو أنَّه شبه مهجور لا يرتادة أحد حتي توقفت قليلًا لتسمع صوت حوافر جياد تقترب من خلفها وبدون أن تلتفت إلى مصدر الصوت قالت وهي مبتسمة:

- إزيك يا أم الصبية.

- صبية مطيعة أنت يا سارة، خدي دة صاغ بحاله لك لوحدك وأوعي تقولي لحد أبدًا على اللي حصل.

أومأت «سارة» برأسها علامةِ الإيجاب. تلك الفتاة الصغيرة ذات الخمسة عشر عامًا التي تعمل بقصر «خياط» باشا وهي تضع الصاغ في يدها مغلقة عليه موجهة كلامها إلى سيدتها روجينا هانم قائلة:

- أي خدمة تاني يا ست هانم.

- لا، روحي شوفي شغلك أنت يا سارة.

تركت «سارة» سيدتها التي فتحت اللفافة التي بيدتا لتجد عليها قطرات دماء الحيض الخاصة «برفقة» كما طلبها «عبد القدوس» والفضل في جلب تلك اللفافة هي «سارة» المسئولة عن إخراج اللفائف من غرفة رفقة لغسيلها.

لم تتوانَ «روجينا» في الذهاب مسرعة إلى «خاتون» التي بدورها لم تتأخر عن مساعدة صديقتها ذاهبتين إلى «عبد القدوس» الذي أخذ اللفافة والطلبات الأخري التي طلبها من «روجينا» ليبدأ في كسر العمل الأسود الذي قطعته «جانيت» على رحم «رفقة» على أن يعودا بعد يومين لاستلام التعويذة المختفية في شكل «الأتر» الذي سيوضع لرفقة. تركته الهوانم وحيدًا لتظهر «جانيت» التي قبعت مختفية في الغرفة الأخري مستمعة إلى كل الحوار الدائر بين الطرفين، نظرت إلى «عبد القدوس» مبتسمةً مخرجةً من حقيبتها الجلدية السوداء نقودًا كثيرةً واضعة إياها أمام الشيخ القذر، الذي سيحول العمل من صالح «رفقة» إلى ضدتا مستخدمًا اللفافة التي أمامه في تهييج أهل العالم السفلي لربط «رفقة» إلى الأبد وعدم حصولها على أطفال.

- أطفال دار الأيتام لازم يلاقوا الرعاية الكاملة من ناحيتنا ومفيش أي تهاون أو تقصير مع أي عامل عندنا يخل بواجباته، أنتم هنا بتشتغلوا بأجر مش إحسان وشفقة، أنتم فاهمين يا أفندية، أنا هاعديا النهاردة لكن أي تهاون تاني مش هيحصل كويس، اتفضلوا كل واحد على شغله.

انصرف الجمع الذي لم يكن سوى العاملين بدار الأيتام من أمام «مراد» الذي اكتشف للتو تهاون بعض العاملين، فما كان منه إلا أن وقف بالمرصاد لهم لأنه لا يرضي بالكسل والتراخي في العمل أبدًا وبالذات في أي عمل كلفته به «رفقة»، «رفقة» صديقته، تنهد «مراد» محتسيًا كوب الشاي الذي أمامه بحجرة مكتبه حيث قبع أمام أوراقه منهيًا أعماله في صمت حتي توقف قليلًا مُفكِّرًا في حاله وحال عائلته التي تكن كل الكره والعداء «لرفقة»، بل ولعائلة عمه كاملة، تلك الحقيقة التي لا يمكن

تغييرها، لكنه شخصٌ آخر مختلف منذ صغره حتي أنَّ أبيه دائمًا ما كان يشك أنَّه ابنه من صلبه لطيبته التي اعتبرها والدة نوعاً من أنواع الهبل المفرط حتي أنَّه أقنع نفسه بأن الله رزقه بابن متخلف عقليًا فهو ليس شرسًا مثل أخيه «غاصب» أو حتي يرتقي إلى مستوي أمه. إنَّ «مراد» من عالم آخر مليء بالحب والحنان، حتي والدته ادعت أنَّه نبت شيطاني لأنه يفكر عكسهم تمامًا، حاولوا جميعًا بث سموم الكره والحقد والحسد في قلبه من جهة عائلة عمه، لكن باءت كل المحاولات بالفشل الذريع وما زاد وغطي أنَّ «مراد» يومًا ما كان صديقًا حميمًا «لرفقة» في عهد الطفولة والصبا والمراهقة، كثيرًا ما تحدثا مع بعض وحلما مع بعض وتمنيا الخير لبعض والهناء والسعادة، ولكن لم تكتمل المنظومة مثلما أراد «مراد» الذي كان مواظبًا على حضور للكنيسة كل أحدٍ لرؤية «رفقة» ابنة الطبيب، حاول «مراد» أنْ يصارحها أكثر من مرة بإعجابه بها، لكن في كل مرةٍ لم يسعفه لسانه لحيائه حتي دارت الأيام وتقدم إلها ابن عمه آخذًا إياها إلى الأبد، لم يغضب «مراد» أو يتضايق متمنيًا لهما كل الخير والسعادة عالمًا أنَّ الله يدبر له الأفضل، لربما شعر ببعض الحسرة لأنه لم يتقدم آخذًا خطوة تجاه «رفقة»، لكن لتكن مشيئة الله وليست كمشيئته، هو واثقٌ يومًا ما أنَّ الله سيرزقه بابنة الحلال الفاصلة التي تمناها من قلبه، عاد «مراد»من ذكرياته القديمة إلى عالمه الحاضر حيث ارتضي أن يساعد «رفقة» في إدارة الدار وجميع الأعمال الخيرية الأخري من مساعدة الأرامل وفك كرب المديون والمسجون والإرتقاء بحال أهل القرية غير مفرقين بين أحد ولطالما عشق «مراد» العمل الاجتماعي ناظرًا في أفكار «رفقة « كل الفائدة. لم يعجب هذا عائلته وحاولوا أن يثنوه عن طريقه هذا أكثر من مرة، مرة باللين ومرة بالقوة ولكن لا فائدة ترجي، أنهم لا يصدقون أنَّ»مراد» ابن» وفيق» يضع يدة في أيدي الأعداء الذين طالما تمنوا أنْ يبيدوهم من على وجه الأرض. حاول كثيرًا «مراد» من تجاهه تصحيح تلك المفاهيم المغلوطة وأنَّه يمكن بناء جسر من الثقة والمحبة والتعاون بينهم وبين عائلة عمه الراحل، لكن هيهات فما في القلب سيظل في القلب، لأن ما فعله «خياط» جدة كان فوق احتمال عقلية أبيه؛ أن يتم إقصائهم أشبه بالنفي المميت تاركين إياهم بمنزل ناءٍ بأطراف القرية حارمين إياهم

من الميراث بطريقة جهنمية، كل ذلك لم يدع أدنى شك في توليد الكراهية والنبذ بين العائلتين استمر منذ زمن ولا يعلم أحدٌ إذا ما كان سينتهي أم لا، استفاق مراد من أفكاره تلك على صوت «رفقة» قائلة له بطيبتها المعهودة:

- أيه اللي شاغل بالك يا مراد.

التفت «مراد» إلى مصدر صوتها الحنون ليجدها واقفة على باب مكتبه ليقوم منتصبًا احترامًا لها داعيًا لها بالدخول، دلفت هي إلى حجرة المكتب مغلقة الباب خلفها وهو لا يعرف كيف يتكلم معها؟ أو ماذا يقول؟ استرسلت هي في حديثها قائلة بحنان بالغ مبتسمة:

- هي القطة أكلت لسانك ولا أيه، أنت مش ناوي تتجوز.

- أنا أتجوز؟ مظلش، أنا حبيت مرة واحدة ومظلش هاحب تاني.

- حبيت مين.

اقتربت منه أكثر وأكثر حتي كادت تلاصقه وجهًا لوجه ليرد عليها والعرق يتصبب من جميع أجزاء جسدة قائلًا:

- حبيتك أنت.

اقتربت منه مقبلة إياه في فمه وذاب الاثنان في قبله طويلة على إثرها سقط كوب الشاي من على مكتب «مراد» وهو يستيقظ من غفوته التي ذهب بها غصبًا عنه وقد توسخ بنطاله بالشاي المسكوب لاعنًا أبو الشيطان صاحب الأفكار الرديئة الخبيثة التي جعلت الشاي يسكب عليه بسبب الأفكار الشيطانية.

- الأعمال الشيطانية دي مفيش منها رجاء ولا أمل، أنا متأكدة من كدة.

وجهت «رفقة» حديثها إلى زوجها الجالس قبالتها بغرفة نومهما وهو لا يعلم بماذا يرد عليها أبدًا، فهو عالم أنَّ أمه أخطات وقد تحاشي أنْ يقابل «رفقة» وجهًا لوجه طيلة مدة من الأيام حتي يهدأ الوضع تمامًا وتعود والدتها إلى بيتها لذا قَرَّرَ تغيير الموضوع قائلًا:

- على فكرة، تقريبًا كدة جعود هيتجوز على رئيفة.

امتقع لون وجه «رفقة» متحولًا إلى السواد، فكلامه لم يأتِ على هواها تمامًا، لأنها تشعر أنها و«رئيفة» في كفتي ميزان واحد وهي تحبها جدًا لذا هاجمت زوجها قائلة:

- إزاي الكلام الفارغ دة، يعني أيه يتجوز عليها.

نظر إليها «منير» باندهاش كبير من طريقة حديثها تلك الهجومية قائلًا محاولًا امتصاص غضبها واحتوائها:

- أيه يا رفقة، أنت ناسية إنَّ جعود الشرع يسمح له بأربع زوجات، يعني من حقه يتجوز.

- يعني أيه يتجوز واللي في رقبته دي مش ليها حقوق عليه وواجبات ولا هي بنات الناس لعبة في الزمن دة.

حاول «منير» تهدئة زوجته قائلًا:

- ومين قال كدة، جعود ناوي يعمل كل خير مع رئيفة، هو أكَّدَ لي أنَّه هيديا حريتها الكاملة في اختيار مصيرها، جعود راجل جدع ويعرف ربنا.

- واللي يعرف ربنا يرمي مراته ويتجوز عليها، عَمَلِتْلُه أيه يعني.

- مبتخلفش، عرفت عملتله أيه.

رقرقت عينا «رفقة» بالدمع محاولة تمالك أعصابها حتي لا تفلت دموعها دون إرادتها. لاحظ «منير» ذلك مؤنبًا نفسه على طريقة كلامه الاندفاعية تلك التي لم تكن سوى رد فعل طبيعي لهجوم «رفقة «المفاجئ، حاول أنْ يتمالك أعصابه قائلًا:

- هو حر يا رفقة، أنت أيه اللي مزعلك.

- وأنا أيه اللي هيزعلني، وأنا مإلى، أنا مإلى.

عرف «منير» أنَّ هذا وقت الانسحاب المؤقت لتلافي الانفجار القادم من قبل «رفقة» لاعنًا اللحظة التي قرر فيها أنْ يخبرها بقرار «جعود» وزواجه، لكنه يعلم حبها «لرئيفة»، سارع «منير» بمغادرة الحجرة تاركًا إياها لزوجته التي انهمرت في البكاء فور خروجه متحسرة على حالها مفكرة في أنه ممكن أنْ ياتي إليوم الذي يحاول زوجها التخلص منها بأي طريقة كانت كما فعل «جعود» مع زوجته، الأخير حلل له

الشرع الاقتران بأخريات وزوجي يمكن أن يحلل له عقله أي شيء في سبيل الحصول على ابن من صلبه.

ارتمت «رفقة» في أحضان البؤس والشقاء متمنية شيئًا واحدًا الآن من الله ألا وهو الموت الرحيم، إنها تطلب الموت لأنها يئست من طلبها للأطفال الذين يبدو من وجهة نظرها لن يأتوا وأنَّ رحمها ليس سوى أرض جوفاء صماء لا حياة فيها. قررت «رفقة» أن تساعد «رئيفة « بكل ما أوتيت من قوة لو طلقها زوجها، سترعاها هي حتي إلىوم الأخير في حياتها فليس كل امرأة لا يرزقها الله بأطفال تكون عرضة للوحدة والعزلة، لن يحدث هذا طالما هي موجودة في تلك الحياة القاسية ليذهب تفكيرها إلى أبعد من هذا، ماذا لو حدث معها هذا الأمر هي شخصيًا؟ لو تخلي عنها الجميع تاركين إياها وحيدة، أيُ حال ستكون عليه وقتها.

- وقتها يحلها ألف حلال، المهم دلوقتي.

نظر «برعي» ذلك الرجل المتوسط الطول القوي البنية المتجهم الوجه ذو الأسنان السوداء التي ما إن ابتسم حتي ظهرت بقبحها، وشهرته «الدقل»، «برعي الدقل»، من أبناء الجبل بل هو رجل الجبل الأول، المجرم الأصيل، الحرامي الكبير، قاطع الطريق المحترف، ذكر سيرته تكفي لأن ترعب أهل القرية والكفور والنجوع التي بالجوار، نظر إلى «جزمة» ذلك الشاب القصير القامة الضعيف البنية نوعًا ما، لكنه سريع الحركة جدًا لذا دعي باسم الشهرة «جزمة» واسمه الحقيقي «قورة» وسبب اسم الشهرة لخبرته الطويلة العريقة في سرقة الجزم من أمام الجوامع والكنائس .

قال «الدقل» إلى «جزمة» ساخرًا من خوفه الواضح:

- أظن دلوقتي هتقولي نقعد زي النسوان ومننزلش نشوف لقمة عيشنا.

رد «جزمة» بانفعال زائد محذرًا «الدقل» وأهل الجبل القابعين بالمغارة قائلًا:

- المأمور عامل فيها أسد في القرية وعمال يدورعلى اللي قتل أبوناموسة.

نفث «الدقل» دخان الشيشة العامرة بالحشيش قائلًا:

- وإحنا مالنا هو كنا إحنا اللي قتلناه.

- ما هو مش إحنا، بس لو معرفوش مين القاتل الحقيقي كالعادة هيزودوها علنا، ما إحنا الحائط المائل بتاع الحكومة.

اقتربت «موزة هندي»من شيشة «الدقل» لتقوم بتغيير الحجر القديم بآخر جديد وهي تقول بصوت عالٍ لتسمع كل من بالمغارة:

- وقعت عليهم حائط مائل كسرت نافوخهم واحد، واحد.

ابتسم «الدقل» من منطق عشيقته «موزة الهندي» ابنة المعلم «الهندي» رحمة الله عليه شيخ الإجرام في نواحي الصعيد الجواني، تركها في عنقه أمانة قبل موته موصيًا إياه عليها فما كان من «الدقل» إلا أن صان الأمانة جاعلًا منها خليلة وعشيقة محافظًا بذلك عليها من أبناء الجبل لذا نراه محيطًا إياها برعايته مقربًا إياها إلى كنفه ولا يهم أنَّه يكبرها بعشرين عامًا مثلًا، هذا لا يهم، لقد أحبته مدافعة عنه وقت الشدة وصارخة مولوله عليه وقت المحنة، تركيبة غريبة وعجيبة من البشر تجدها في قلب الجبل، ولكن يبقي الجبل من وجهة نظر أهل القرية والحكومة لعنة، صرح «الدقل» في ثقة قائلًا:

- على فكرة أنا عارف مين اللي قتل أبو ناموسة.

نظر إليه الجميع بذهول فها هو يصرح بأنه يعلم كينونة قاتل القتيل الذي قلب البلد رأسًا على عقب ليسارع «جزمة» بسؤاله عن كينونة هذا القاتل فيبتسم «الدقل» قائلًا:

- أمك يا ابن الهبلة.

ضحك الجميع بسخرية من مزاح الزعيم العإلى الذي يهوي المزاح وخلط الجد بالهزار فلا تعرف متي يهزر؟ أو متي يتكلم جد؟ ولا أحد يستطيع أنْ يراجعه في سلوكه وإلا أطاح به لذا سكت «جزمة» مبتسمًا.

موزة: قل لنا بجد يا معلم، تعرف اللي قتل أبو ناموسة؟

ظلت ابتسامة «الدقل» لم تفارق شفتيه قارصًا «موزة» في صدرها أمام الجميع وهي تصرخ من الألم وهو يقول:

- مفيش سر بيختفي العمر كله في قرية الطين، النهاردة يا خبر بفلوس بكرة يبقي ببلاش، يعني هو القاتل هيطلع عفريت، أكيد بني آدم.

أَمّنَ أهل الجبل على كلام «الدقل» فلا يوجد قتيل بدون قاتل ولا توجد حقيقة غائبة مخفية إلا وجاء إلوم وانكشفت أمام الجميع.

اقترب «فتح الدماغ خلة» من «الدقل» محدثًا إياه في أُذُنهِ راميًا بضع كلمات على إثرها ترك «الدقل» الشيشة جانبًا منتصبًا من مكانه مغادرًا المغارة متجهًا إلى شقٍ صغيرٍ داخلًا به مختفيًا عن الأعين بينما «فتح الدماغ» ذاك الرجل القاسي الوجه ذو الندبة التي تعلو وجهه آخذة شكل مستقيم لتمر بعينه حتي ذقنه مميزة إياه حتي أنك تراه مرة فلا تنسي قسوة تلك الندبة التي بوجهه، صوته غليظ أجش ويداه قويتان نتيجة كسر الأحجار بالسجن، اعتلي مكانه ماسكًا طبلة طالبًا من «موزة» أن ترقص لهم فالليل لازال جميلًا والهواء صافيًا.

استجابت لهم والجميع يصفق ويزغرد بينما على جانب آخر وقف في منتصف الجبل «الدقل» يقابله بالجهة الأخري «غاصب» بيه.

-١٠-

- بيه وابن باشا كمان عاجبك ولا مش عاجبك.

صرخ «جعود» في وجه أخيه «السنباطي» العائد من كفر «زغرودة» حيث تزوج من غازية لمدة من الوقت ثم تركها ليعود إلى بلدة خاإلى الوفاض ليفتعل مع أخيه شجارًا طالبًا أنْ يعود إلى العمل عند «منير» بيه، فذكَّره أخيه أنه هو من ترك العمل في الغيط بمزاجه بعد أنْ أهمل عمله فما من «السنباطي» إلا أنْ رمي اللوم على البيه الذي لا يحبه لاعنًا تلك العائلة، فلم يجد من أخيه الكبير سوى الانفعال عليه مُذكِّرًا إياه باحترام الكبير وأنَّ للمقاماتِ حقًا عليهم فهم تربوا في كنف عائلة الباشا. وأباهم الله يرحمه كان مكمن سر الباشا الكبير لذا فإن «جعود» يكره أسلوب أخيه الصغير في التهكم أو مهاجمة عائلة «خياط باشا» من قريب أو من بعيد. ابتسم «السنباطي» بسخرية من هجوم أخيه اللاذع عليه قائلًا:

- خلاص يا أخويا اهدأ بدل ما يُطِقلك عرق تروح فيها.

أَخَرَجَ»السنباطي» سيجارة ماكنة ماركة «كوتريلي» مشعلًا إياها معطيًا إياها لأخيه ثم أشعل أخري له منفثًا دخانها ضاحكًا كاشفًا عن صفين من الأسنان الصفراء الغامقة التي تتوسطها بالصف العلوي سنة صلبة لامعة قد ركبها له طبيب إنجليزي عندما عمل بالقرنص الإنجليزي فترة من عمره، نظر «جعود» إليه باستغراب من ضحكه هذا قائلًا:

- أنت حالك مش هينصلح يا سنباطي أبدًا، هتفضل كدة على طول، ماشي

عكس الناس.

لم يتفوه «السنباطي» بكلمة بل رفع كوب الشاي مرتشفًا منه بصوت أجش ليكمل «جعود «حديثه قائلًا:

- أوعي تكون حَبَّلْت البنت الغازية.

أشار «السنباطي» برأسه علامة النفي.

سأله «جعود» منفثًا دخان سيجارته قائلًا:

- وناوي تعمل أيه.

- ما سألتك ينفع أشتغل عند البيه تاني؟

نظر إليه «جعود» بتمعن شديد حذر، فهو يعلم أخيه لا يُشَرِّف في أي عمل يمتهنه بل يجب أن تكون النهاية سيئة ودائمًا الغلط واقع على أخيه لذا اتجه إلى الابتعاد عن سكة «منير» بيه تمامًا قائلًا لأخيه:

- اسمع، أنا هاشوفلك شغل في الجمعية الزراعية، كان الحاج عبد الهادي مدير فرع الجمعية عايز ناس تشتغل في الجمعية، وأهوه مرتب وربنا يرزقك.

نظر «السنباطي» إلى أخيه بعدم اهتمام قائلًا في برود:

- أهي شغلانة والسلام.

- بَس طَوِّلْ رقبتي، مش ناقصين فضايح.

لم يرد «السنباطي» بل أطفأ سيجارته ناظرًا إلى الخلاء الممتد أمامهما. استأذن «جعود» ذاهبًا إلى عمله تاركًا أخيه مع «رئيفة» بينما ذهبت أمه إلى السوق. خرجت «رئيفة»من الغرفة الداخلية لتشرب من الزير فوجدت «السنباطي» جالسًا على باب الدار يدخن سيجارة فاقتربت منه ملقية عليه تحية الصباح سائلة إياه إنْ رغب أنْ يشق ريقه بلقمة فامتنع عن الأكل متعللًا بأنه لا يتناول إفطار الصباح منذ مدة طويلة، بل يكتفي بكوب الشاي والسجائر، فتعجبت من حاله هذا الذي لا يأكل صباحًا، قرر «السنباطي»أنْ يقتحم حياة أخيه وزوجة أخيه قائلًا في رذالة متناهية معهودة منه قائلًا:

- وأيه أخبار بطنك يا مراة أخويا، مفيش حاجة في السكة.

وقف الماء في حلق «رئيفة « لتصيبها غصة بحلقها محاولة تمالك نفسها وطرد الماء من فمها حتي تحكمت في أعصابها قائلة:

- لسه ربنا ما أذنش يا أخو جوزي.

ابتسم «السنباطي» ابتسامة صفراء بسخرية قائلًا:

- الحال دة بقاله سنين يا مراة أخويا، الله يكون في عونك يا أخويا.

رقرقت عينا «رئيفة» وهئ لا تدرئ بماذا ترد فاسترسل «السنباطي» مكملًا:

- أنا عارف ليه ساعات بنتبقي على الكراكيب، يا نولع فيها يا نرميها على الطريق، قُصره، بالإذن يا مراة أخويا، أشوف حالي.

تركها «السنباطي» ماضيًا في طريق سبيله بينما هي جلست تبكي راثية لحالها وما وصلت إليه داعية الله أنْ يزيل تلك اللعنة عنها ويرزقها بالخلف الصالح رافعًا عارها عنها.

- عنها وعن كل سيدة يجب أن أتكلم، إننا معشر النساء لنا حقوق في المملكة المصرية العربية وكما نؤدي واجبتنا بكل أمانةٍ وشرف تجاه مملكتنا وعائلاتنا وأبنائنا وأزواجنا لذا فيجب على المملكة أنْ تمدنا بحقوقنا الشرعية في الوطن، النساء لم يخلقن للمعاشرة فقط والجلوس في المنازل والبيوت منتظرات رجالهن، لقد هب نساء أوروبا للعمل السياسي والكفاح أسوة بالرجال، فيجب علينا نحن معشر نساء مصر النهوض واللحاق بركاب التحضر و لتمدين والمشاركة في بناء وطننا العزيز مصر.

صفق جميع النسوة الجالسات وهن يشعرن بالفخر والزهو لحديث السيدة «روز إلبوسف» تلك السيدة التي أَلْهَبَتْ مشاعر وقلوب وخيال السيدات اللاتي أمامها، ولم يكن هؤلاء السيدات سوى أعضاء جمعية «نساء الصعيد» وهي جمعية أنشأتها «رفقة هانم خياط» ولفيف من النسوة الأعضاء زوجات البهوات والبشوات القاطنات بصعيد مصر الجواني، نساء نهضن من أجل بناء مجتمع مصري عامر زاخر بكل الفخر والشرف غير متناسٍ دور المرأة المصرية الأم والزوجة والحبيبة

والرائدة مثل السيدة «روز إلوسف» الآن، وكعادة كل فترة من الزمن تستضيف الجمعية شخصيةً نسائيةً بارزةً للتحاور وإلقاء الخطب الحماسية مشيرة إلى أهمية دور المرأة المصرية وإلحاقها بركب التقدم الحضاري حتي لا تتخلف المرأة المصرية عن قرينتها بأنحاء العالم وهذا هو مثلٌ حي للنجاح ألا وهي السيدة «روز إلوسف» اللبنانية المنشأ التي نزحت إلى مصر كفنانة وممثلة ومن ثم برعت في مجال الصحافة الفنية فالسياسية لتنشأ أكبر مجله ألا وهي مجلة «روز إلوسف» سابقة عصرها بسنوات وتصبح أول سيدة تنشأ مجلة بالوطن العربي جميعه؛ لذا رأت «رفقة» ورفيقاتها من النسوة أنَّ تلك السيدة رمز للتحرر الفكري النشط لعقل المرأة المصرية فكان استضافتها واجب حتمي لتنوير عقول السيدات بالصعيد وفتح أبواب الحوار والنقاش الممتد للرقي بحال المرأة المصرية.

اعتلت «رفقة» المنصة بعد السيدة «روز إلوسف» شاكرة إياها على تلك المحاضرة التي ألقتها عن أوجه الفرق بين المرأة المصرية والأوروبية آملة أن يأتي إلوم الذي تصبح فيه للمرأة المصرية جميع الحقوق أسوة بالرجال في الحياة العملية والسياسية وأنَّ السيدة «روز إلوسف» لَمِثَالٌ حي على الانتصار الفكري التحرري على ملامح العالم الذكوري الشرقي الغارقة بداخله المرأة المصرية وعليه يجب أن نربي بناتنا على الارتقاء بعقولهن وتعلمهن المثابرة والجَلَد في فرض الذات مهما وقفت أمامهن المصاعب وإنَّ اتحاد المرأة على مستوي القطر المصري لحلم سيتحقق يومًا ما بالكفاح والعرق والجهد.

انتهي إلوم لتعود النسوة بعد تلقيهن جرعة الحيوية والنشاط آملات في الحرية النسائية يومًا ما والخروج من تبعية ظلال الرجال للتعبير عن آرائهن بحرية على أمل اللقاء مجددًا مع إحدي رائدات الحرية والتعبير.

اصطفت مائدة الغذاء بما لذ وطاب من مشهيات الطعام أمام الجميع واللائي لم يكن سوى السيدة «روز إلوسف» و«رفقة» وبعض النسوة اللاتي اختارتهن «رفقة» للانضمام على مائدة المحبة والنقاش المعدة على شرف الضيفة العزيزة لتتوسط هي

المائدة وعن يمينها «رفقة»، بينما تجلس قبالتها «روجينا» التي لم يعجبها التحرر الزائد في آراء الضيفة التي تتكلم بكل جراءة وحرية عن عصر المرأة الآن ؛ ف«روجينا» من عصر فات كانت السمة فيه الغالبة للذكور والمرأة تسير في كنفها لذا فلم يأت حديث الغذاء على هواء «روجينا» بالمرة، بينما الجميع من النسوة يتناقشن في جميع شتي المواضيع عن الحرية والتعلم والصحة والسياسة وحق المرأة في كل هذا والشهادة لله فإن السيدة «روز إلوسف» لم تبخل على أحدٍ برأيها التحرري طالبةً من الجميع المطالبة بحقوقهن وإيصال صوتهن إلى المسئولين بالمملكة المصرية وعلى رأسها الملك نفسه.

أنهوا جميعًا تناول الغذاء ليأخذن الشاي والكيك بالحديقة لتقف «رئيفة» المذهولة من جرأة وقوة السيدة «روزإلوسف» مقتنعة بأنها ليست سيدة مثلهم بل هي بألف رجلٍ. وقفت مشرفة على الخدم وهم يقدمون خدماتهم إلى السيدات الجالسات بينما سألت إحدي النسوة ولم تكن سوى «إسعاد» هانم زوجة «مندور» بيه قائلة:

- طب يا روز هانم حق النسوة اللي بيهجرهن أزواجهن فين، أو اللي بِيطَلَّقوا، نظرة الناس ليهم بيتغير وبالذات في بيئتنا الصعيدية.

ارتشفت السيدة «روز» قليلًا من الشاي لترجع الفنجان بأدب بالغ إلى المنضدة الممتدة أمامها قائلة:

- الحقيقة دي مشكلة عويصة، وإحنا في المجلة عندنا عملنا إحصائية بنسبة السيدات الزوجات اللي أزواجهن تركهن، لقينا إنَّ أغلبهن من العواقر علشان كدة الرجال بيبحثوا عن الذرية مع أخريات، لكن إحنا بنحاول نساعد النساء دي على الاختلاط بالمجتمع تاني وخلق فرص جديدة للتعايش، لأن المرأة العاقر مش نهاية المطاف لحياتها، وأنا باشجع أن المرأة العاقر تنفتح على أجواء أخري في المجتمع المصري.

نظرت إليها «روجينا» بتمعن شديد ناقلة بصرها إلى «رفقة» قائلة في خبث واضح:

- إزاي يعني تخلق أجواء يا روز هانم، هي الواحدة ليها جو آخر غير بيتها وجوزها.

ابتسمت «روز» في هدوء جم قائلة:

- دة جزء من مناخها الشخصي، لكن مناخها الاجتماعي أعمق وأغني، مساعدة الفقراء والمساكين مثلًا، إعانة الأيتام والأرامل، تعلم المحتاجين والارتقاء بيهم، تحسين معيشة الفلاحين.

ردت عليها «روجينا» بحدة قائلة:

- بس دة دور الحكومات والمملكة، لكن دور المرأة هو البيت والإنجاب وتعلم الأطفال النهج الصحيح.

نظرت «روز» ببرود إلى «روجينا» عالمة ومدركة أنها تكلم امرأة من زمن فات وولي لتقول لها ببرود أعصاب:

- ومفيش مانع تشارك المملكة والحكومة في البناء والتنمية، وكما أنَّ المرأة هي نصف الرجل إذن لتكن نصف المجتمع المصري الراقي.

انبهر الجميع بإجابتها وإفحامها «روجينا» التي ظهر عليها علامات الحنق والغيظ بينما صفقت جميع الحاضرات ومن ضمنهم «رئيفة» التي لم تدر كيف تطاولت وانسحب لسانها منها لتقول بصوت عالٍ:

- ممكن أسأل سؤال يا مدام روز.

نظر إليها الجميع باستغراب شديد من جرأتها وتطاولها على اقتحام الحديث وهي ليست سوى خادمة. شعرت «رفقة» بالحرج نوعًا ما، ولكن فصاحة وفطنة السيدة «روز» رفعت الحرج عن الجميع لتسمح «لرئيفة» بالحديث بل وقد أشارت لها بالاقتراب من مجلسهن قائلة في ود وترحاب:

- وهكذا يا هوانم مصر لا تبخل على أحد بالمعلومة و المساعدة ، أجعلوا لكن الجميع أخوة أصاغر ، اسمك أيه يا بنتي .

أجابتها عن اسمها و من ثم أكملت فرحة قائلة بثقة :

- طب الواحدة تعمل أيه لما تبقي بتحب جوزها جداً لكن ربنا مرزقهاش بعيال

، و جوزها مش عايز يتجوز تاني عليها و هي عايزاه يتجوز عليها .
ابتسمت مدام «روز» لمنطق «رئيفة» البسيط قائلة لها :

- إنك تضحي علشان اللي بتحبيه يا رئيفة هي دي قمة العطاء، إنك تدي بدون ما تسألي عن المقابل، إنَّ الواحدة تحب جوزها وتهبه لواحدة تانية زي الجندي اللي بيحب بلدة ويهبها عمره إنْ طلبت.

سرحت «رفقة» قليلًا في هذا المعني الذي طرحته مدام «روز»، إنَّها وضعت فرضية جديدة لمعني الحب من وجهة نظرها. فكرت كثيرًا «رفقة» بذاك المعني حتي بعد رحيل مدام «روز» على أمل اللقاء في وقت قريب، لتختلي «رفقة» بنفسها بغرفتها متذكرة كل كلام السيدة الفاضلة «روز» وكيف ردت على «رئيفة» لتشعر هي بأن الإجابة موجهة لها أيضًا؛ فالحال يعتبر واحدًا فهما لا يختلفان عن بعضهما كثيرًا، لكن الحال ليس واحدًا «فرفقة» تعلم تمام العلم أن شريعة «رئيفة» تبيح لزوجها الاقتران بأخري أما بالنسبة لحالتها فشريعتها لا تتعدي مبدأ الزوجة الواحدة، ولكي تعطي الفرصة لزوجها للحصول على ذرية يجب أن تموت، نظرت «رفقة» إلى نفسها في المرآة وقد شحب وجهها فجأة من كثرة التفكير في الموت.

- الموت علنا حق يا أبونا.

أومأ الكاهن برأسه علامة الإيجاب وهو جالس يتقبل العزاء في وفاة زوج ابنته الصائغ «معوض يونان». جلس جميع أهل القرية الذين جاءوا لتقديم واجب العزاء في صمت رهيب يظهر على وجوههم الحزن الشديد والغم لما أصاب عائلة الكاهن في وفاة زوج ابنته الذي لم يتعد الخامسة والأربعين من العمر. الرب يعزي عائلته ويعطيه القوة لتربية أبناء ابنته الثلاثة.

مال «حسنين» على «منير» في الصوان المقام أمام الكنيسة قائلًا:

- محدش عرف مين اللي سرق المحل لغاية دلوقتي.

رد «منير» متحسرًا متألمًا:

- لا، لسه، التحريات شغالة والمأمور بيوفيني أول بأول بالأخبار، بس شكلها

كدة مطاريد الجبل.

- من أمتي المطاريد بتهجم على محلات الذهب يا منير، أنا شامم رائحة معفنة في الجريمة دي.

دخل «غاصب» إلى العزاء فانتبه له «منير» جيدًا حتي قدم واجب العزاء ومن ثم جلس في الجهة المقابلة له.

مال الشيخ «لقمان»على الكاهن قائلًا في حزن وألمٍ دفين:

- ربنا يصبرك يا أبونا ولو احتجت أي حاجة، أنا تحت أمرك، ربنا يقويك.

نظر الكاهن إليه بحسرة وهو لا ينطق بكلمة بل عيناه خير دليل عما هو فيه، استرسل الشيخ قائلًا:

- إحنا عارفين الحال وصدقني مفيش فلوس حلال بتروح، أنا جايب معايا فلوس الشبكة بتاعة ابني اللي كان واخدتا من المرحوم، دفع جزء في الأول وكان متفق معاه إنَّ كل شوية لما ربنا يكرمه يسدد اللي عليه، أنا غصبت عليه وجبت بقية الفلوس كلها.

أخرج الشيخ ظرفًا مغلقًا به النقود ومن ثم أكمل قائلًا:

- والإخوة النهاردة في الجامع جمعوا بعض ما تيسر من أعوازهم لمساعدة عائلة أخيهم معوض وكلفوني إني أوصلهالك.

وضع الشيخ الظرف في يد أبونا الذي دمعت عيناه فلم يجد سوى الشيخ ضامًا إياه إلى أحضانه.

نظر «منير» إلى ما يحدث صامتًا لا يدري ماذا يقول ثم مال على «حسنين» قائلًا في هدوء:

- هي البضاعة اللي اتسرقت من محل المرحوم متعرفش تعمل كام؟

- لما سألت المأمور وأبونا، تقريبًا تعمل كدة ألف جنيه.

قَطَبَ «منير» حاجبيه مقررًا في دخيلة نفسه أن يدفع المبلغ إلى الكاهن كي لا تكون

الفاجعة مفزعة، موت وخراب ديار.

انتهي العزاء ليعود «منير» إلى منزله ليجد «رفقة» قد عادت هي الأخري من العزاء الخاص بالسيدات ويبدو عليها الغم والحزن والنكد الرهيب الزائد عن اللزوم مما جعل الشك يدب في قلب «منير» بأنَّ هذا ليس من مظاهر الحزن فمهما كان الميت ليس من عائلتنا مما دفع «منير»لسؤالها عن تلك الكآبة التي تحيط بها فما كان منها إلا أنْ صارحته؛ فهي لا تستطيع أنْ تخبأ عنه شيئًا. قالت أنه قبل سرقة محل «معوض» وموته حزنًا وكمدًا قد بعثت بعقد ذهبي يخص والدتها لإصلاحه بسبب انكساره، ويبدو أنه سُرِقَ ضمن ما سُرِقَ.

استاء «منير» عند سماع ذلك، ولكن ما بإلد حيلة ففي النهاية إنه نصيب أن يسرق عقد والدتها ولن يستطيع أحد أن يغير النصيب والمكتوب؛ لذا هون الأمر على «رفقة»التي انصاعت إلى كلامه خارجيًا إنما من دخيلة نفسها فهي اعتبرت ما حدث نذير شؤم.

- شؤم ونحس كمان، البلد دي وشها نحس على، أنت يا شاويش.

دلف الشاويش «شمندورة» مؤديًا التحية العسكرية إلى المأمور.

فكري: أيه بلدكم دي اللي مفهاش راحة.

الشاويش: مُرني يا أفندم.

فكري: الأول قضية قتل أبو ناموسة ودلوقتي سرقة محل ذهب، أيه أنا قاعد فين.

الشاويش: في قرية الطين يا باشا.

فكري: طين على دماغك ودماغ اللي جابوك.

الشاويش: يدوم عزك يا أفندم.

فكري: تفتكر مين ممكن اللي يكون سرق محل الذهب.

الشاويش: دة مش أسلوب رجالة الجبل يا أفندم، رجالة الجبل ميسرقوش أهل البلد، يسرقوا الحكومة والإنجليز بس.

فكري: ودة اللي خلاني سألت الكاهن إذا كان للمرحوم أعداء ولا لا.

الشاويش: و جاوب قال أيه يا أفندم.

فكري: نفي، البلد كلها كانت بتعزه.

أشعل «فكري» سيجارة مفكرًا فيما يكون له مصلحة في سرقة محل الذهب والتسبب في موت الرجل، فلم يجد حلًا أو إجابة مقنعة بل ظل يبحث لأيام وأسابيع لكن بدون فائدة.

opeikandl.com

-١١-

- فائدة الإنسان لأخيه الإنسان في هذا الزمان أنْ يضره ويؤذيه مذيقًا إياه من كل أصناف العذاب ألوان.

هذا ما ارتكن إليه عقل «رفقة» المنهك من كثرة التفكير. ماذا ستقول لزوجها عن ضياع خاتم زواجهم، فهي قد أرسلته إلى «معوض» الصائغ رحمة الله عليه لإصلاحه مع عقد والدتها وحدث ما حدث بعد ذلك، ويومها لم يكن معها سوى «تحية» والخوف أنْ يعرف «منير» من أحد غريب فعندئذ لا يعلم سوى الله ماذا سيكون رد فعله إذا علم أنَّ خاتم زواجهما ذهب بدون رجوع. إنَّه نذير شؤم مما لاشك فيه وربنا يستر. رأت «رفقة» أنْ تقوم بإبلاغه بنفسها لتذهب إليه بحجرة المكتب واجدة العمدة لدى يشكره على مساعدة ابنه في إلحاقه بالكلية الحربية وأنَّه جميل لن ينساه له أبدًا مهما عاش على وجه الأرض وأنَّ ذلك ليس ببعيد على عائلة «خياط» مساعدة الجميع بلا تفرقة.

ذهب العمدة إلى حال سبيله وتبقي «منير» مع زوجته التي ظهر عليها الارتباك في البداية ومن ثم استجمعت قواها مصارحة إياه قائلة:

- منير حبيبي، خاتم زواجنا، اتسرق.

نظر إليها «منير» محدقًا بها لا يدري بماذا يجيب مندهشًا مما تقول وعلى وجهه

علامات الاستفهام عن كيفية ضياع الخاتم لتكمل هي قائلة:

- كنت رحت بيه لمعوض الصائغ مع عقد ماما علشان يصلح الاتنين وحصل اللي حصل.

أخذ «منير» نفسًا عميقًا مخرجًا إياه على دفعة واحدة قائلًا بعصبية:

- من إمتي وإحنا بنصلح الذهب بتاعنا هنا في القرية، مقلتيش ليه كنت أخدته مصر عند جورج نسيم الجواهرجي ولا أرمنيان.

ترددت «رفقة» في الإجابة لكنها حاولت تهدئه «منير» قائلة:

- اللي حصل، أنا حاولت اتصرف ومزعجش جوزي حبيبي.

استغرب «منير» من منطقها هذا قائلًا:

- واهوه الخاتم راح، سبيني دلوقتي يا رفقة لو سمحتِ.

جلس «منير» وحيدًا مفكرًا في كل ما يحدث حوله وهل ضياع الخاتم بتلك الطريقة يعتبر علامة من السماء على نهاية علاقته «برفقة»؟ هل تريد السماء أنْ توصل إليه رسالة مفادها أنَّ العلاقة القائمة بينهما قد انتهت بضياع الخاتم؟ هل وجب عليه أنْ يعود إلى المعلم «بقطر السماك» ليسير على نهجه ويحصل بذلك على أطفال من زوجة أخري؟ مجربًا حظه مرة أخري، ولكنه لا يعلم هل سيسعفه القدر أم ستكرر نفس المحنة كما حدثت مع «رفقة».

أفكار عديدة تلاحقت على عقل المسكين «منير» ومنها أيضًا محاولة الربط بين سرقة محل الذهب وخاتم زواجهما القيم ذي الفص الألماس الفلمنكي القيم الرائع الجمال، هل يمكن أنْ يكون أحد قد علم بوجود الخاتم لدى «معوض»ليقوم بسرقته؟ فالخاتم غالٍ جدًا يقدر بمقدار جميع البضاعة التي سرقت وضعفها عشر مرات. أراد «منير» أن يخرج من حالته تلك ليمسك بسماعة التليفون طالبًا «حسنين» مبلغًا إياه أنَّه يريد السفر إلى الإسكندرية لمقابلة صديقهما المشترك.

- وقف «جعود» ينظر إلى الترعة السوداء التي أمامه على مرمي البصر ناظرًا

الأطفال وهم يستحمون في مائها فرحين، يلعبون، يتنافسون في السباحة مذكرين إياه بطفولته متمنيًا الآن أن يري طفله يلعب معهم، يسابقهم في السباحة بالترعة حتي يفوز عليهم عائدًا إلى أبيه لكي يقوم بتنشيفه من البلل محنئًا إياه عائدًا به للمنزل. لم يخرج «جعود» من أفكاره سوى أخيه الذي مد يدة إليه بسيجارة مكنة قائلًا في انسجام:

- البنت شرقانة الغازية زي الملبن وخلفت قبل كدة بس ربك ما أرادش والواد مات بالتيفود وجوزها طلقها، أيه رأيك؟

ذهل «جعود» من حديث أخيه هذا مشعلًا السيجارة منفثًا دخانها بالهواء قائلًا بتحسر:

- أنت عايز أخوك الكبير يتجوز غازية على آخر الزمن، إخص على شنبك يا ابن أمي وأبويا.

ابتسم «السنباطي» متهكمًا من منطق أخيه قائلًا:

- غازية بس أرنبة، عشرت قبل كدة، فهمت يعني أيه يا أخويا يا ابن أمي وأبويا، تجيبلك حته عيل وأبقي طلقها بعد كدة.

قاطعه «جعود» بعصبية:

- وتفضل طول العمر قدام أهل البلد أم ابني غازية.

- خلاص يا جعود، أنا كنت عايز مصلحتك، فضها سيرة يا أخويا.

تركه «السنباطي» وحيدًا وسط أحزانه وأشجانه مفكرًا في حاله السيء الذي لا يسر، مقنعًا نفسه بأنه لا مفر من الزواج مرة أخري متبعًا مشورة أمه في ذلك فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا ويجب أن يكون هناك بنون، لا بد أن يكون هناك بنون.

- انتصف الليل تقريبًا لتقرر «رفقة « أنْ تفاجئ زوجها بليلة جميلة منسية إياه انتكاسة سرقة الخاتم. فالعبرة والمعني ليس بالخاتم وإنما بالعشرة الجميلة التي تجمعها الآن لعديد من السنوات التي بقدر الإمكان حاولت «رفقة « تلافي كل ما يزعج ويقلق راحة «منير»، بل تتعمد دائمًا إخفاء ما لا يسره ومحاولة معالجته لخلق جو من البهجة والسرور

في أنحاء حياته. اختارت تلك الليلة لخلق حالة من الهدوء والطمأنينة والسكينة داخل نفس زوجها ومحاولة كسب ودة وإضفاء السلام الداخلي داخل قلبه، فتسلحت بجمالها الأنثوي التي تتمتع به وتزينت بأحلي ما عندها واضعة روائح الجنة الخلابة الآسرة لقلوب الرجال، تلك الرائحة التي جلبتها معها من آخر رحلة إلى فرنسا المشهورة على أنها عاصمة الروائح الذكية الجميلة النافذة إلى القلوب والعقول لتنقلك من قرية الطين مباشرة إلى قلب العاصمة الفرنسية، باريس وما أدراك ما باريس؟ المدينة الجميلة الحالمة العاشقة التي أرادت «رفقة» أن تعيد ليلة من ليإلى باريس في قلب قرية الطين. أشعلت الشموع الذهبية واختارت زجاجة نبيذ فرنسية معتقة لأكثر من عشر سنوات فاتحة إياها متذوقة طعمها ذائبة عشقًا في حلاوتها، أشرفت بنفسها على إعداد العشاء الفاخر الذي أعدت أصنافه جميعًا بيدها هي. بحثت عن الأسطوانة المحببة لقلب زوجها للمغنية «أديث بياف» ذات الصوت العذب الملائكي الذي يعشقه «منير» وبالذات عندما تغني عن الحب والعاطفة متذكرة لقائها بحبيبها وكيف يمضيان الليإلى في حب وتناغم. إنَّ «منير» عاشق لجميع أغانيها، لذا اختارت «رفقة» أحب إسطوانة إلى قلبه من غناء أديث بياف واضعة إياها على الجرامفون ليصدح صوت غناء الجميلة الفرنسية «بياف» في جميع أرجاء القصر، مما جعل الأمل يدب في قلب العجوزة «روجينا» جاعلًا عروقها تنبض بها الدم من جديد، أيمكن أن يكون ما تفكر به صحيحًا وأن زوجة ابنها تشعل الحب في القصر الكئيب لينعم الله عليهم بالذرية الصالحة، ذهبت «روجينا» إلى حجرتها وعيناها بهما لمعة خفيفة تكاد تخفيها بصعوبة وكل ذلك بسبب صوت «بياف» الملامس لقلبها. بينما «رفقة» ظلت تترقب مجيء زوجها بفارغ الصبر حتي تعدت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لينفتح باب غرفتها فيجد «منير» نفسه في الجنة السعيدة التي أعدتها له الساحرة الصغيرة، «رفقة» التي تعلم مزاج زوجها تمامًا، وجد «منير» نفسه ينساق بمفردة على أنغام «بياف» وصوتها الحاني مع عذوبة طعم النبيذ الفرنسي لينسي كل ما حدث في الفترة الماضية مبتسمًا آخذًا زوجته بين أحضانه قائلًا:

- ليه كدة، هو النهاردة عيد جوازنا وأنا ناسي.

ردت «رفقة» عليه في دلال وحب عميق وهي تربت على شعره الناعم قائلة:

- كل يوم يعدي علينا بسلام هو عيد جواز لينا.

ابتسم «منير» بهدوء قائلًا:

- أنت حيرتيني معاك، أنت إنسانة غامضة.
- هو الواحدة لما تحب جوزها تبقي غامضة في نظرك.
- يا ريت تحبيني كل يوم.

ربتت «رفقة» على رأس زوجها مداعبه خصلات شعره قائلة:

- أنت عارف إني بحبك كل يوم وكل ساعة ومقدرش أعيش من غيرك.

شعر «منير» بوخز الضمير لما فكر أنْ يفعله، كيف يفعل ما فكر به مع «حسنين» تاركًا تلك الملاك الصغير لذا قالها وصوته يشوبه الحزن:

- عارف، صدقيني عارف، وأنا كمان بس ...

قاطعته واضعة يدها على فمه قائلة في حب واضح من قلبها النقي:

أنت هتفضل جوزي لآخر العمر مهما عملت، دة نذرنا قدام ربنا، أنا مراتك وأنت جوزي.

رقت عينا «منير» بالدمع لتجففها هي بيدها مقبلة إياه بفمه ليبدأ حبًا لا ينتهي على أنغام «بياف» الساحرة مستمرًا الليل كله و«منير» يدعو من كل قلبه إلى الله أنْ ينزع عاره هو وزوجته وهي تشاركه الدعاء بقلبها لتعبر نسمة هواء رطبة من خلف الستائر الحريرية مطفئة أضواء الشموع.

وعلى جانب آخر من الليل البهيم المظلم بما يخبئه القدر البعيد غير عالمٍ ما يحدث بين طيات القمر المنير وقفت «رئيفة» تمشط شعرها ناظرةً من شباك غرفتها إلى القمر متمنية أن يرزقها الله بفتاة لتسميها «قمر»، ولتكن في جمال القمر لتنير لمن حولها مشعة البهجة والتفاؤل، هكذا قررت «رئيفة» في حال إنْ مَنَّ عليها الله بابنة، سارعت تلك الليلة أن تفتح صفحة جديدة مع زوجها بعد حالة التوتر والغم التي

سادت بينهما الفترة السابقة ويشجعها على ذلك أنها قامت بطلب علبة بودرة ورائحة حلوة من الست «رفقة» التي لم تبخل عليها، بل أمدتها بتلك الأسلحة الأنثوية الفتاكة وبينما عم «جعود» عائدًا من جلسة لطيفة مع أصدقاء له برفقة أخيه لم تخلُ من بعض الحشيش اللطيف المرصوص على فم الجوزة والقليل من الخمر المحلي الصنع الذي يجيد صناعته «الواد سعداوي» فهو خبير في صناعة عرق البلح الذي يتركه للمناسبات السعيدة وجلسات الأنس والمرح والفرفشة، وفي تلك الليلة ارتفعت معنويات «جعود» جدًا ناسيًا همه وغمه لفترة وجيزة ليعود إليهما بعد قليل. أما الليلة فهي للترفيه والخروج من الأزمة مؤقتًا.

سارعت «رئيفة» بمساعدة جعود في خلع ملابسه لتشم رائحة الخمر المزعجة إلى نفسها، ولكن ما بإلد حيلة فيبدو أنَّ زوجها قد شرب ولن تغير في الواقع شيئًا.

نظر «جعود» إلى زوجته باستغراب شديد فكل شيء بها يبدو عليه التغير الواضح ليقول لها فاركًا عينيه بصعوبة:

- هو أنت أحلويتي كدة ليه النهاردة ولا أنا اللي سكرت.

ظهر الامتعاض على وجه «رئيفة» من هذا المزاح السخيف الذي لا تعتادة من زوجها قائلة:

- ليه وأنا وحشة يا راجل.

تمالك «جعود» نفسه بالكاد محاولًا أنْ يستفيق من مفعول الخمر قائلًا بابتسامة لطيفة:

- الواد سعداوي عليه شوية خمرة عجب، طبعًا حبيبة قلبي حلوة على طول بس النهاردة بشويتين زيادة.

امسكت «رئيفة» ضفائرها بدلال أنثوي قائلة:

- يعني حلوة أوي.

خلع «جعود» الطاقية ملقيًا إياها قائلًا:

- أوي، أوي، ما تقربي يا بت.

خبطته في كتفه وخداها قد اصطبغا بلون الاحمرار قائلة:

- بتتكسفي من أيه يا بت دة أنا جوزك.

اقتربت منه لتصبح ملاصقة له جدًا واضعة يديا الصغيرتين على صدره شاعرة بنبضات قلبه قائلة والشوق في عينيها وبنبرات الحزن والخوف في صوتها:

- وهافضل على طول.

أحس»جعود» أنَّ أحدًا صدمه بفأسٍ أو معول على رأسه فجأة ليفوق من آثار الخمر وقد ظهر عليه التوتر الملحوظ قائلًا:

- أكيد يا رئيفة، أنت مراتي وحبيبتي وأختي وبكره تبقي أم عيالي.

- من قلبك الكلام دة يا جعود.

- ورب الكعبة من قلبي يا رئيفة، مالك يا بت أنت بِتْشُكِّي في كلامي.

- يتقطع لساني، بس أنا باحبك أوي يا سي جعود ومش عايزة حد ياخدك مني أبدًا.

شعر «جعود» بنخزة في قلبه من هذا الحديث الذي لا يعرف سبب ميقاته، هل قضاء وقدر أم مدبر ؟ ترك نفسه على سجيته قائلًا:

- وأنا مش هاسمح لحد إنه ياخدك مني.

أسندت «رئيفة «رأسها على صدره بينما هو يربت على شعرها ليحل لها الضفيرتين في هدوء وانسيابية وهي كالدمية بيدي قائلًا:

- بس أنت جبتي الريحة الحلوة دة منين يا رئيفة.

ضحكت ضحكة لطيفه قائلة:

- ربنا يباركلي في الست رفقة، على فكرة أنا محمرالك جوزين فراخ.

وضع «جعود» يدة على فمها قائلًا:

- مش وقت أكل، دة وقت الشغل.

نفخ «جعود» في لمبة الجاز مطفئًا إياها وبدأ الشغل داعيًا المولي سبحانه وتعالى أن يرزقه البنين.

- ولا بنون ولا أي شيء، أنا عايزهم يحزنون على طول.

نظر «عبد القدوس» إلى «جانيت» وابنها «غاصب» اللذان جلسا أمامه بكوخه القذر وهو ممسك بالخاتم الذهبي المرصع بفص الألماس الخاص «برفقة» آلا وهو خاتم زواجهما قائلًا في خبث ولؤم:

- طب والمعلوم فين.

نظر إليه «غاصب» ببرود شديد وهو يعلم في دخيلة نفسه نوعية ذلك الرجل القذر الجالس أمامهما فهو لا يفعل أي شيء سوى بمقابل، ولكن بعد أن جربوه كثيرًا في هذا الموضوع وقد نجحت محاولاته في منع الحمل لسنين عديدة، قد وصلوا في آخر المطاف إلى طلباته الشاذة حيث تم إحضار لفافة بها دماء الحيض الخاصة «برفقة» على يد حماتها؛ لصعوبة الوصول إليها عن طريقهم ومن ثم سرقة الخاتم الذهب الخاص بها أيضًا، وهذا آخر شيء سيجربه ذلك الدجال. فرغم أن «غاصب» مقتنع أنه هكذا ولكن لا يوجد سبيل آخر لدرء الحمل وأمل الإنجاب لدى «رفقة» لذا سارع بإخراج بعض النقود من جيبه قائلًا في حذر وبرود:

- أنت عارف إحنا اتكلفنا أد أيه علشان نجيب طلباتك دي.

نظر إليه «عبد القدوس»مبتسمًا كاشفًا عن فمٍ خالٍ من الأسنان تمامًا قائلًا وهو يعد النقود:

- دول مش اللي إحنا اتفقنا عليهم.

رد عليه «غاصب» ناظرًا إليه بغيظ نوعًا ما قائلًا:

- أنا لو على مش عايز أديك مليم واحد إلا بعد لما نشوف كراماتك، لكن علشان خاطر الهانم ادينالك النص والنص التاني بعد ما نشوف النتيجة.

قاطعه «عبد القدوس»:

وهتشوف النتيجة إزاي ما أنت شايفها على طول، مفيش حمل ولا خلفة عندنا

لغاية دلوقتي والنهاردة لما هنربطها بالسفلي هنربط مصيرها بمصير جوزها، يعني لا هو ولا هي، متقلقش أهل العالم السفلي هيربطوا مصيرهم ببعض، أسبوع وتجيبلي الجزء الباقي من المبلغ، أنت سامعني.

نظر غاصب بحنق إلى أمه من جراء حديث هذا الشيخ الخائب الدجال من وجهة نظره، فلم يجد من أمه سوى أن أومأت برأسها بالموافقة قائلة للشيخ:

- خلاص يا شيخ اتفقنا، بس عايزة أسمع أخبار كويسة وأنا هاحليلك بقك، يالا بينا يا غاصب.

غادر «غاصب» وأمه دار الدجال تاركين إياه يستدعي خدمه السفليين لتسخيرهم، وبينما هما في طريقهما إلى منزلهما قال «غاصب» وهو يبدو عليه عدم الارتياح إلى أمه:

مامو، أنا مش واثق في الراجل دة، وحاسس إنه نصاب وحرامي وابن كلب وكل الفلوس دي على الفاضي.

نظرت إليه أمه تلك السيدة المخضرمة في مثل تلك التعاملات قائلة بثقة:

أنا مش أول مرة أجرب عبد القدوس، جربته زمان مع روجينا نفسها لما حملت تاني بعد ابنها منير، مكنتش توعي أنت على الكلام دة وكان حملها وصل للشهر الرابع واللي قدر ينزل الحمل هو عبد القدوس، طلب برضه طلبات غريبة وكانت آخر حاجة أن عيل صغير يضربها في كعب رجلها وفعلًا حصل وبعدتا في نفس إلسوم سقط الطفل.

تطلع «غاصب» إلى أمه بتمعن شديد غير مستوعبٍ أنَّ سبب ضياع مولود «روجينا» الثاني كانت أمه السبب في حدوثه ومعها الدجال قائلًا:

- يعني نطمئن المرة دي إن إحنا مش هنسمع عن حمل ليها تاني.

- اطمئن أنا من ساعتها وأنا إيدي في جيب «عبد القدوس» وكل سنة بتعدي عليها بدون حمل ليها يبقي سببها هو، هو آه طلباته غريبة شوية، لكن بيحصل.

لم يعرف «غاصب» بماذا يجيب على أمه التي أرجعت رأسها ساندة على كرسي

العربة مريحة أعصابها، بينما «غاصب» مركزًا أمامه في الطريق المتعرج الذي يسير عليه بالعربة متمنيًا ألا يكون طريقه في الحياة متعرجًا مثل الطريق السائر عليه الآن، لأنه بمعني أصح فاض به الكيل.

obeikandl.com

-١٢-

- بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم ويزاد، لذا احذروا إبليس الشيطان القائم بينكم. إنَّ الله على الأبواب قريبٌ، استعدوا أيها السفراء، سفراء الرب على الأرض، إنه قادم وقريب أيها الأخوةُ المؤمنون، فليعطِ كل واحد منكم وقته وجهده وماله للرب هكذا أقول لكم، هللويا مجدًا.

ارتفعت صيحات الأخوة المؤمنين المجتمعين بالتسبيح مرددين الهتاف الإيماني الحماسي فقط هللويا مجدًا وراء «مستر بلاك» الذي وقف أمام الجمع الذي لا يتعدي الخمسين فردًا رجلًا وامرأة و»بلاك» ليس سوى رئيس طائفة «سفراء الرب» التي حطت بقرية الطين بوقت ليس ببعيد داعية الناس إلى معرفة الرب وبالأخص طائفة المسيحيين.

وقف «مستر بلاك» مصافحًا أبناء طائفته الجدد المنضمين حديثًا شارحًا لهم فوائد الانضمام لطائفته حيث سيحصلون على كل ما يلزمهم من وسائل المعيشة وسيلتحق أبناؤهم بالمدارس الأجنبية التابعة للإرساليات لتعلم اللغات الأجنبية بأسعار رمزية جدًا خلافًا عن الناس الأخري، ومن ثم يمكن أنْ يساعد أي شخص من أبناء الطائفة للسفر إلى الخارج وبالذات أمريكا من حيث أتت الطائفة قادمة من أمريكا الشمالية للحصول على فرصة أفضل للمعيشة في بلاد الفرص. وفي النهاية فإن الانضمام لطائفة

«سفراء الرب» كلها منافع إلى جميع السفراء، حيث أفصح «بلاك» لهم أن أبناء الطائفة هم سفراء للتبشير باسم الرب على الأرض وإظهار قوته وجبروته وأنهم ليسوا سوى سفراء لمملكة الفردوس العظيمة وأي شيء يحتاجونه فالطائفة هي الكفيلة بكل شيء وهم ليس عليهم سوى السمع والطاعة العمياء فقط.

انتهى «بلاك» من لقائه الأسبوعي بشعبه العزيز، ذلك اللقاء الروحي كل يوم أحد من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السابعة مساءً بمبنى الطائفة الكائن على مشارف القرية، ليبدأ «بلاك» بالتسبيح إلى الله ببعض التراتيل الروحية الأجنبية الغريبة عنا ومن ثم يعقبها بعظة روحية التي غالبًا ما تكون عن نهاية العالم والمجيء الأخير للسيد المسيح على الأرض والدنونة العظيمة وأنَّ على المؤمن أنْ يفرح فرحًا ثمينًا لأنه من أتباع طائفة «سفراء الرب»، أما الخاطئ سيظل حزينًا لأنه لم يلتحق بطائفتها المجيدة ناظرًا خلاص الله المجيد، اتبعه نفرٌ قليلٌ من ضعاف النفوس «بلاك» الذي رأي أنْ يطعم أفراد طائفته بأشخاص جدد ذو ثقل في القرية من أعيان المسيحيين الأراخنة حتي يصبحوا مصدر ثقةٍ لأهل القرية للانضمام أفواجًا للطائفة المجيدة التي يحرص من كل قلبه جاهدًا أنْ يجعل أتباعها بالآلاف وإن أمكن ملايين بادئًا الآن بالقليل. ولا مانع من استخدام أي أسلوب لاجتذاب النفوس من الطوائف الأخري التي انتشرت بربوع مصر كانتشار النارالهشيم، كل منهم أتي ليبشر باسم الله وكأن مصر لا تعرف الله، ولا رقيب ولا حسيب على أحد.

رأي «بلاك» المبشر ورجل الدن أن الوقت قد حان للذهاب إلى عائلات المسيحيين الأغنياء لدعوتهم للانضمام للطائفة وتضمنت قائمته أسماء عائلات عديدة على رأسها عائلة «خياط» فتوجه إلهم بناء على الميعاد المسبق الذي رتبه له مساعدة «متوشالح» أفندي وهو من أحد مواطني قرية الطين والموظف بهيئة البريد المصرية، وقد انضم إلى الطائفة منذ نشأتها بالقرية متخذًا منه مستر» بلاك «مساعدًا له؛ ولكي يكون أحد أبناء القرية وسيله دعاية مباشرة للطائفة وأنشطتها لينجح بالفعل في اجتذاب أنفار من أهل القرية حتي وصل عددهم خمسين فردًا في سنة وهلمّ من مزيد كل يوم وهكذا.

انتصب «مستر بلاك» واقفًا عند دخول «منير» بيه وأمه «روجينا» هانم إلى حجرة المكتب بالقصر ليقول «بلاك» بلغة عربية ركيكة نوعًا ما:

- مساء الخيرات يا روجينا هانم، منير بيه.

بادلته «روجينا» التحية و«منير» بدوره أيضًا ليجلس الجميع ليأمر «منير» الخدم بإحضار الشاي بعد أنْ سأل «بلاك» عن مشروبه.

وما أنْ بدأ الجميع في تناول الشاي الساخن حتي قرر «منير» أن يسأل «بلاك» عن صفته فما من الأخير سوى أنَّ أوضح له أنه رئيس طائفة «سفراء الرب» و مقرها أمريكا الشمالية، حيث أنشأت هناك منذ مطلع القرن الحالي وعليه فإن رأس كنيستهم هناك رأت أنه من الضروري أن تبشر بربوع مصر حيث نما إلى علمها أن أهل المسيحيين لا يعرفون الله بمصر. وعليه فقد قررت إدراة الطائفة الرئيسية بأمريكا بعث إرسالية تبشيرية للتبشير داخل البلاد ووقع اختيارنا على قرية الطين؛ لاعتبارها مركزًا مهمًا للتبشير وسط الشعب المسيحي السائر في طريق الخطيئة. وعليه فقد اتخذت خطوة كرئيس لطائفة «سفراء الرب» بمصر والعضو المنتدب لمجلس الطوائف العالمي أن أزور عائلات القرية الموثوق فيهم لدعوتهم للانضمام للطائفة واعتبارهم من القيادات الفعالة فما رأيكم؟

أنهي «بلاك» عرضه السخي للانضمام للطائفة، بينما «منير» قد أنهي فنجان الشاي أما «روجينا» فلم تمد يدها إلى الفنجان الخاص بها من أساسه مستمعة إلى حديث «مستر بلاك» بذهول شديد. نظر «منير» إلى أمه فأومأت له برأسها فتكلم «منير» موجهًا حديثه إليه قائلًا بلهجة إنجليزية قوية:

- يعني طائفة سعادتك شافت إن مصر ليس بها إيمان مسيحي.

نظر «بلاك» بتمعن إلى «منير» لا يعرف إن كان المقصود من كلام الأخير التهكم أم الاستفسار، لذا قرر أن يجيب بأسلوب المبدأ الثاني ألا وهو الاستفسار فأعاد جزءًا مما قاله مسبقًا ومن ثم أغلق حديثه بالنكهة التي يجيدها ألا وهي انتهاء الأيام وقرب الله وأنَّ المسيح على السحاب وأن أنسب طريق للوصول إلى الفردوس هو

عن طريق طائفتهم المباركة.

برقت عينا «منير» فاتحًا إياهما متعجبًا مما سمعه قائلًا:

- واشمعنا اخترت عائلة خياط باشا.

- لأنها عائلة كبيرة وعريقة وسط الشعب المسيحي بقرية الطين وعليه فإن انضمامها واحتسابها من القيادات لشيء مشرف إلى مجلس قيادة الطائفة ومكسب كبير لأهل القرية الذين سيهرعون إلينا عند معرفتهم بانضمامكم.

طرق «منير» بأصابع يدة على سطح المكتب غير مصدقٍ ما يسمعه، لازال هناك أناسٌ يفكرون بأن هناك في مصر كفرة أو أناساً لا يعبدون سوى الله ، اي حال هذا الذي رمي بهؤلاء القوم علنا لهدايتنا فقرر «منير» أن يهاجم» بلاك» بادب بالغ قائلًا:

- مستر بلاك ألم تر عندما شرفتنا بالزيارة إننا نضع صورًا للسيدة العذراء والقديسين على الحائط، وأن سبب زيارتك لنا هو جزء منه بسبب أننا عائلة مسيحية في الأساس، ألا تستنتج من كل هذا أنَّ المسيحية زارت بلادنا قبل مجيئك بالآف السنين.

ابتسم «بلاك» ابتسامة سخرية واستهجان واضحة على وجهه للعيان قائلًا:

- منير بيه إن إجادتك اللغة الإنجليزية مقبولة لذا عندما اخترت أن تحدثني بها لم أمانع، ولكن عندما تتعلمها من أهل بلادتا فإنك تصبح متمكن وأقوي ما تكون في إجادتها، هكذا الايمان.

ضاقت حدقة عيني منير واضعًا رسغه الأيسر على خدة ناظرًا بتمعن شديد إلى «بلاك» ومنطقه الغريب في شرح الأمور ليعجز حال لسانه عن مسايرة هذا الثعلب المكار المتشح تحت عباءة الدن لذا قررت هنا «روجينا» مساعدة ابنها ومد يد العون قائلة بلغة إنجليزية لا يشوبها خطأ:

عزيزي مستر بلاك زيارتك تسرنا ودعوتك مبهجة ولكنَّ أمريكا ليست هي منبع الإنجليزية كما أنَّ مصر هي منبع الإيمان وأنا كوالدة منير أؤكد لسيادتكم أنَّ المسيحية

في مصر منذ زمن بعيد حتي من قبل أنْ تكون هناك أمريكا.
أصاب «بلاك» الارتباك والتوتر نوعًا ما وقد ظهر ذلك بوضوح جراء الهجوم غير المباشر من «روجينا» تلك السيدة المخضرمة في نظره لذا سارع بتمالك أعصابه ومحاولة نقل دفة الحديث قائلًا:

- معكِ كل الحق يا سيدتي العظيمة، ولكن رأت رئاسة طائفتنا أن مسيحيي الشرق وبالأخص في المملكة المصرية بدون حماية تذكر وعرضة للاضطهاد فكان من واجبنا تقديم الدعم والحماية إلى مسيحيي مصر الأقباط.

منير: دعني أصحح لك معلومة مستر بلاك، إنَّ كلمة أقباط تعود على المصريين عمومًا وليس على المسيحيين فقط، فمعناها مصري باللغة المصرية القديمة ونحن لسنا في اضطهاد.

أصاب «بلاك» الحرج من جهله بما يقول ومن ثم حاول تدارك الموقف قائلًا:

- أعلَمُ، ولكن جري العرف على تسميتهم بأقباط البلاد وعمومًا أنا آسف لهذا التصنيف الذي ليس لي يد فيه، بل هو أحد تبعات الجهل الطائفي المسيطر على عقول غالبية من الشعب المصري لذا أكرر عذري للمرةِ الثانيةِ.

نظرت «روجينا» محدقةً في ذلك الرجل المتلون قائلة بهدوء:

- قصدك أيه من الحماية؟

ظهرت على وجه «بلاك» ابتسامة صفراء واثقًا من نفسه بأنَّه سيستطيع أنْ يقنع السيدة الكبيرة بالحماية قائلًا:

- الحماية ضد أي عدوان خارجي أو داخلي على شخصكم الموقر بمجرد انضمامكم إلى طائفتنا وحصولكم على الجنسية الأمريكية لتصبحون من الرعايا الأمريكية ومن يفكر أنْ يمسكم بسوء فقد مس حدقة عين الإرادة الأمريكية كلها، تلك هي الحماية.

صمت «بلاك» عن الكلام لبرهة من الوقت بينما رمقت «روجينا» ابنها بنظرة لم يفهم مغزاها سواه ليقول «منير» بثقة قوية:

- مستر بلاك، هل تضمن أنَّ الحماية الأمريكية لن تضعف أو تزول؟

لم يعرف بماذا يرد «بلاك» بل ظل محدقًا متجهمًا من هذا السؤال الغريب المعني فأكمل «منير» مستدركًا:

- صعب أنْ تجيب على هذا السؤال الآن لأن أي قوة لا بد وأنْ يأتي عليها يوم وتزول مهما طالت أو قصرت مدتها، مصيرها إلى زوال، لكن نحن في حماية من لا يزول أو ينتهي نحن في حماية البداية والنهاية الله، المقابلة انتهت.

انتفض» منير» من مجلسه لتعقبه والدته مصافحين «مستر بلاك» مغادرين حجرة المكتب ليخرج ورائهم «بلاك» و»متوشالح» أفندي يجران أذيالَ الخيبةِ والفشلِ وحال عقل «بلاك» متأكدًا أنَّهُ خَسِرَ عائلة «خياط» أو ليقل جزءً منها فللعائلة طرف آخر لم يتوانَ «متوشالح» أفندي أن يأخذ منهم ميعادًا أيضًا، ومع هؤلاء اختلف الوضع تمامًا لصالح «بلاك» مما جعل الدماء ترد في عروقه مرة أخري مقنعًا نفسه بأنَّه لم يفقد سحره في الإقناع؛ فذلك الرجل الستيني العمر لم يصل إلى منصبه من فراغ بل هو قوة مقنعة جبارة مما جعل رئاسة طائفته تجعله هو المسئول الأول عن الفرع الجديد بالشرق الأوسط ومقرها مصر. وبالفعل أثبت» بلاك» كفاءة عالية في التجول بربوع مصر وافتتاح عدة فروع للطائفة يساعدة في ذلك المجموعة التبشيرية المرافقة له في جميع أنحاء مصر وهو يتابعهم عن قرب من مقره الرئيسي بقرية الطين ووجودة هنا لسبب وجيه ألا وهو تمركز فئة كبيرة من المسيحيين الأغنياء أصحاب النفوذ والقوة وسط شعبهم، لذا نجاحه في انضمامهم لطائفته سيعطيها ثقلًا ورواجًا بين المسيحين عمومًا، وخاصة أهل قرية الطين الذين لا يُستهان بهم في التعداد ومعني خسارته لعائلة مثل عائلة «خياط» باشا ليس بالجيد، ولكن إلى حين فجزء من العائلة ألا وهي عائلة المرحوم «وفيق» بيه قد اقتنعت وعلى رأسهم «غاصب» الذي راق له الحديث عن السلطة والمنصب القيادي بجانب حصوله على الجنسية الأمريكية التي ستعضد من مركزه في قرية الطين بلا شك ولا مانع في المستقبل القريب من محاولة الحصول على لقب البهوية عن طريق علاقات مستر «بلاك» المتشعبة بالسرايا

الملكية. لم يفوت الفرصة في أنْ يسأل الأخير عن مدي قوة علاقاته وتشعبها داخل السرايا. لذا وجدها فرصة سانحة في رد ماء وجهه نوعًا ما أمام عائلة عمه «دوس» وبالذات ابن عمه» منير «بيه وإذا أفلح الأمر في الحصول على البهوية سوف تتساوي الروؤس من جديد ولا يوجد بيه أفضل من بيه.

- بيه وباشا وأفندية كمان وغلاوتك.

ارتشف «حسنين» بعضًا من الخمر ليعود كأسه أمامه مرة أخري بعد أنْ قال جملته تلك موجهًا حديثه إلى «منير» الذي ظل صامتًا وهو يلعب البريدج مشاركًا إياه اللعب «حسنين» و»مندور» بيه و»أوطه» بيه، أصدقاء الجيرة فهم يتجمعون كلما سنحت لهم الفرصة لاحتساء الخمر وتدخين السيجار وممارسة هوايتهم المفضلة ألا وهي لعب البريدج متجاذبين أطراف الحديث في شتي مناحي الحياة. كان ما غلب على حديثهم هو ظهور دماء جديدة دخيلة على القرية تدعو إلى لإيمان القويم ولا فرق بين أحدٍ في حديثه على رأي «حسنين» الذي جمع الكل داخل بوتقة واحدة في حديثه الأخير ليرد عليه «أوطه» قائلًا:

- والله يا حسنين بيه يا خويا معاك حق، طب أنا من كام أسبوع فاتوا زارني ناس بدقون طويلة بيعرضوا على انضمامي لجماعتهم.

عقب «حسنين» قائلًا:

- جماعة الإخوان المسلمين، عارفهم، زاروني أنا كمان بس لما لاقوني معرفش غير في الخمرة والنسوان قالولي متنفعش تبقي من الإخوان وسابولي هدي، سجادة صلاة.

ابتسم الجميع على تعلق «حسنين» وهم يواصلون اللعب بينما نظر «مندور» إلى «منير» قائلًا:

- بس أنت يا منير بيه شكلك مش عاجبني خالص.

اتخذ «منير» نفسًا عميقًا من سيجاره منفثًا دخانه في الهواء قائلًا:

- تفتكروا الناس دي لو اتمكنت فعلًا من البلد وخلقت شعبية هيبقي أيه الحال؟

نظر الجميع إلى بعضهم باهتمام شديد ومن ثم تجرع «حسنين» جرعة من الويسكي قائلًا:

- يبقي البلد خربت بجد، الناس دي أفكارها ومعتقداتها مش الدن تمامًا اللي هما بيتمسحوا فيه.

أوطه: ودة اللي يخوف، خصوصًا مع ضعاف النفوس والفقراء اللي ممكن السيطرة عليهم بسهولة.

مندور: وهتلاقي ناس زينا برضه، اصبر وهتشوف، واهوه الحرب العالمية شطبت والناس فضيت من الخوف والقلق.

منير: والخوف اللي وراء الناس دي أخطر من أي حرب عالمية.

حسنين: يا عم انس وروق، مفيش أحلي من القعدة الحلوة، أنا هاسافر إسكندرية الأسبوع الجاي، فريق البإلـه الروسي هيزور إسكندرية، مين قال يجي معايا؟

أوطه: فايق أنت والله يا حسنين بيه.

مندور: فريق البأيه الروسي، اللهم صلي على النبي، معاك يا حسنين بيه.

حسنين: أنا قلت مفيش غير مندور بيه حبيبي هو اللي هيشجعني علشان نتعلم بإلـه.

أنهي الجميع ليلتهم السعيدة على أمل اللقاء مجددًا في القريب العاجل بعد رجوع «حسنين» و«مندور» من رحلتهم إلى الإسكندرية لاستقبال وفد البإلـه الروسي. استقل «منير» عربته عائدًا إلى قصره والمسافة لا تتعدي العشرين دقيقة سيرًا بالعربة، قضاها في التأمل والتفكير فيما تمر به بلادة عامة وقريته خاصة، فمن ناحية يجد «مستر بلاك» وطائفته الجديدة التي تهدي المصريين المسيحيين إلى معرفة الله محددة إياهم بيوم القيامة الرهيب والتوعد من انتقام وغضب الله على روؤس عبيدة الذي سيحل عليهم إذا لم يشتركوا في طائفتهم، طائفة الخلاص من العذاب الأبدي. أي عقل يستوعب هذا المنطق الواهن الضعيف ناسين الله الرحيم الغفور الحنان

المنان، لكن يبدو أنَّ «مندور» بيه على حق فهولاء القوم سيجدون من يتبعهم تحت مسميات عديدة كالمناصب القيادية الدنية والحماية، والحال ليس قاصرًا على المسيحيين فقط بل، وعلى المسلمين أيضًا والله المستعان. أناس ظهروا يريدون أن يحكموا على أناسٍ آخرون باسم الدين وتطبيق الشريعة، بل والوصول إلى أبعد من هذا إلى ترهيب الجميع إنْ لم ينضم إليهم. فريقٌ يخيف من حوله من أهوال يوم القيامة والدنونة وفريقٌ آخر يحاول السيطرة على عقول من حوله بترهيبه من السلطه الغاشمة الكافرة التي تحكم وأنَّهُ لا بد من رجوع أحلام الخلافة الإسلامية العظيمة وكأن السلطة الحاكمة في مصر على رأسها الملك كفرة أوعابدي أوثان، أي حال هذا الذي وصلنا إليه. توقفت العربة أمام باب القصر و«منير» ترجل منها داعيًا الله أنْ لا يعيش أيامًا تكون تلك النوعيه من الناس قد وصلت إلى مرادة.

دخل «منير» إلى بهو القصر ليجد كلًا من أمه وزوجته ينتظروه وعلى وجهها ابتسامة جميلة صافية، فتعجب لسهرهما إلى هذا الوقت من الليل فقد قارب الفجر في أن يلوح ولكن ما جعل شكوكه تنتهي سريعًا هو منظرهما المريح للنفس لذا سارعها بالسؤال قائلًا:

- أيه اللي مسهر القمران اللي بينوروا حياتي لغاية دلوقتي.

قامت «رفقة» من مجلسها متجهة إليه في دلال واضح للعيان وما أنْ وَصَلَتْ إليه حتي همست في أذنه قائلة شيء ما. على أثرها نظر إليها وقد اتسعت حدقة عينه ظاهرة ابتسامة عذبة على وجهه بينما رقت عيناه محاولًا تمالك نفسه قائلًا:

- مش معقول.

ردت أمه عليه مصفقة قائلة:

- لا، معقول يا حبيب قلب ماما، ربنا عوض صبرنا خير، ألف مبروك.

- ألف مبروك علنا يا ماما، أنا مش مصدق نفسي إنَّ ربنا هيرزقنا بابن، يا ما أنت كريم يا رب.

- يارب يا كايد الأعادي، وزايح الغم والهم.

خرجت أم «جعود» وهي قائلة ذلك مزغردة بأعلى حسها موزعة الشربات على الجالسين من أقاربها في المنزل بينما ظل جعود ملاصقًا لزوجته الراقدة على فراشها قائلة في دلال:

- دة الأول، وربنا يرزقنا باللة بعدة.

- نعدي الأول بس، وبعد كدة نشوف اللي بعدة، نفتح الباب وربنا يرزق، أنا مش مصدق وداني من الفرحة يا ناس.

خرج «جعود» إلى الخارج تاركًا الحريم مع بعضهن يرقصن ويغنين مشعلًا سيجارة لف جالسًا مواجهًا الأرض الخضراء التي شعر أنها رجعت خضراء ثانية في عينه هامسًا إلى نفسه:

- الله على جمال الأرض وحلاوتها، أخيرًا عيل هيشيل اسمي، أخيرًا مراتي حبلت وبقت أرض خضراء، يا ما أنت كريم يا رب.

اقترب «السنباطي» وبصحبته شخص بذقن طويلة سوداء مقتربين من «جعود» ليتسائل أخيه عن سبب الضجة والهيصة فما أن أبلغه «جعود» بالخبر السعيد حتي هنأه بفرح عارم وأيضاً الأخ «الجنبلاطي» الذي دعا «جعود» إلى حضور اجتماعاتهم بجامع القرية للتعرف على جماعتهم الجديدة التي تهدف إلى خدمة الأهالي وهدايتهم إلى طريق الله، وقد اشترك أخوه معهم وما إن وعدة بالذهاب حتي فارقهما إلى حين لينظر «جعود» إلى أخيه باستغراب قائلًا:

- من إمتي عرفت طريق الجامع يا ابن أمي وأبويا.

أشعل «السنباطي» سيجارة مكنة قائلًا:

- من النهاردة، الناس دول طيبين وساعدوني بالفلوس وبكرة ولا بعدة هيشغلوني معاهم.

- هيشغلوك أيه.

- هاكلم الناس عن ربنا وأدعيهم للجماعة.

لم يفهم «جعود» شيء من هذا اللغو الذي نطق به أخوه مقررًا أنْ يري النتيجة

اولًا مع أخيه، ومن ثم يقرر إذا كان سينضم إلى تلك الجماعة أم لا فهو لا يعلم نواياهم واتجاهاتهم، ولكن لنري ما تخبئه الأيام ليعود من جديد إلى زوجته بينما «السنباطي» يفكر في مستقبله الجديد المزدهر مع تلك الجماعة التي حطت على قريتهم داعية الناس إلى الهداية واتقاء الله وفي سبيل الاشتراك معهم لا يبخلون على أحد، بل يقدمون المعونة ولكن لا يعلو شيء فوق صوت الجماعة.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٣-

- الجماعة تأمر فتطاع يا أسيدنا.

قال «الزعتلي» هذا موجهًا حديثه إلى الأستاذ «قلعاوي» وجميع الجالسين بالقهوة بينما «كبس الهواء» مهتمًا بالمشاريب وطلبات الزبائن ولا ينسي أنْ يتدخل في الحوار كعادته قائلًا:

- يعني أيه جماعة يا معلم؟

رد «القلعاوي» بعد أنْ أَخْرَجَ دُخَانَ الشيشةِ الخاصةِ به قائلًا:

- الجماعة يعني شوية ناس بتربطهم أهداف ومطالب معينة.

الزعلتي: ومطالب الناس دي أيه؟

القلعاوي: بيقولوا هداية الناس للحق ومعرفة ربنا.

الزعتلي: أستغفر الله العظيم يعني إحنا كفرة منعرفش ربنا يا أستاذ.

القلعاوي: أعوذ بالله يا معلم، هما بيقولوا إنّهم هيفهمونا الدين الصحيح الحنيف.

الزعتلي: أُمال إحنا ماشيين على دين أيه؟ معلش يا أستاذ، دة كلام ميدخلش الدماغ بِشِلِن.

كبس: أنا الصراحة وعدوني بجوازة حلوة وهيساعدوني كمان لو انضميت ليهم ويجيبولي مطرح.

obeikandl.com

نظر إله «القلعاوي» بتمعن قائلًا:

- وأنت يعني مش عارف تتجوز لوحدك.

كبس: منين يا أستاذ العين بصيرة والإيد قصيرة أنا عايش مع أبويا وأمي وعشرة إخوات في علبة كبريت.

القلعاوي: بس كدة دة اسمه شراء نفوس مش هداية نفوس.

كبس: يا أستاذ وأيه اللي مزعلك لما يساعدوا واحد غلبان زيي.

نظر «الزعتلي» إله مقتنعًا بمنطقه قائلًا:

- أظن مفيش مانع لو ساعدوا الناس وأهو كله بثوابه، لكن إنهم يكفرونا ويوقولوا إن إحنا مش ماشيين في الطريق الصح، أهو دة أكبر غلط.

القلعاوي: دائمًا يا معلم في التاريخ من استخدم سلاح مساعدة الناس ائتمن شرهم وكسب ولائهم وهو ليس بولي الأمر، دائمًا كانت النتائج وخيمة لأنَّهُ بيطلب قدام الخدمات دي مطالب ويكلفك بمهام لصالحه.

كبس: وأيه اللي هيطلبوه من واحد زيي يا أستاذ؟

القلعاوي: الله أعلم يا ابني، بس حِقِّتنا نأخد حذرنا من الناس دي لغاية لما نعرف هما عايزين أيه مننا بالظبط.

كبس: كل خير يا أستاذ.

دخل عليهم المأمور راميًا عقب سيجارته على الأرض داهسًا إياه بحذائه قائلًا:

- يا أهلا باهل القرية.

قام «الزعتلي» منتصبًا من مكانه محييًا ومصافحًا المأمور آمرًا الواد «كبس» بإحضار كرسي نظيف إلى حضرة الظابط. جلس المأمور ناظرًا إلى جميع الجالسين بريبة وشك، فما كان منهم إلا أنْ وضعوا اهتمامهم فيما يحتسون ويدخنون محاولين عدم الالتفات إليه بالمرة، بينما هو وجه سؤاله للأستاذ «قلعاوي» قائلًا:

- أيه يا أستاذ مفيش أخبار جديدة في البلد.

نظر إليه «القلعاوي» بتمعن لتظهر على وجهه ابتسامة هادئة قائلًا:

- الأخبار الجديدة كلها عند سعادتك، دة أنتم الحكومة.

رد فكري مشعلًا سيجارة قائلًا:

- أيه يا أستاذ هو أنت هترد على السؤال باستفسار ولا أيه؟ لو معندكش أخبار جديدة قل معنديش.

القلعاوي: لا للأسف معنديش.

نظر» فكري» إلى «الزعتلي» ببرود موجهًا حديثه إليه قائلًا:

- ولا أنت يا معلم.

أجاب «الزعتلي» مسرعًا:

- لا يا باشا، أعدمك لو أعرف حاجة.

تمعن «فكري» به في استهجان شديد قائلًا:

- وماله مش عيب وعمومًا كدة القضية بقت اتنين، مقتل أبو ناموسة وسرقة محل الذهب، فاضل أيه تاني؟

القلعاوي: كل خير يا باشا، والله اللي جاي هيبقي خير طول ما سعادتك مأمور القرية.

حملق «فكري» في «القلعاوي» بتفحص شديد قائلًا بصوت هادئ رزين:

- على فكرة كل الجرائم دي حصلت وأنا موجود، عمومًا أنا جيت أقولكم النهاردة إنَّ تقرير تحريات المباحث وصل، بتاع سرقة محل الذهب، لم يستدلوا على السارق يعني احتمال كبير يكون من أهل القرية وملهوش سوابق قبل كدة.

نظر الجميع إلى بعضهم لا يعرفون بما يجيبون بينما دخل «الجنبلاطي» إلى المقهي فوقعت عين المأمور عليه ليقول له:

- إزيك يا جنبلاطي وجماعتك الجديدة اللي بتقابلها في الجامع بعد صلاة العشاء كل يوم، أخبارهم أيه؟

obeikandi.com

رمق «الجنبلاطي» المأمور ببرود شديد قائلًا:

- كلهم كويسين.

انتصب المأمور من مجلسه قائلًا:

- نبقي نعدي وقت تاني يمكن نلاقي أخبار جديدة.

الزعتلي: سعادتك لسه الشاي على النار.

فكري: ملهوش لزوم نشربه وقت تاني، سلاموا علكم.

رد السلام الجميع ما عدا «الجنبلاطي» الذي اقترب منه «كبس الهواء» هامسًا في أُذنه ومن ثم غادر القهوة والمعلم يتابع كل ذلك ببصره.

- بصره أعمي، دة راجل أفاق ودجال وحرامي، أيه الحال بقا؟ أهي رفقة حملت، هنعمل أيه دلوقتي؟ هنتصرف إزاي؟

لم تعرف بماذ ترد «جانيت» الجالسة أمام ابنها بحجرة نومها بيدتا الكانفاه تحيك إياه. أما هو فيكاد ينفجر غيظًا وغضبًا سائرًا في الغرفة ذهابًا وإيابًا، والسيجارة لا تنطفئ في يدة بل تشتعل من واحدة إلى أخري والدخان قد عبق المكان كله وأمه تشاركه التدخين، ولكن ليس بتلك الشراهة الفظيعة وهو يقول بعصبية شديدة:

أنا قولتلك يا ماما إنَّ الراجل دة ابن كلب، مسمعتيش كلامي، بس اللي عليه يطلب طلبات غريبة كلفتنا كتير وفلوس أكتر، العمل أيه دلوقتي.

ظلت «جانيت» تتابع ابنها ببصرها وهو يتحرك بطول الغرفة وعرضها مكملًا حديثه:

والحل أيه؟ مصيبة لو رفقة خلفت وجابت ولد، ساعتها يبقي حلمنا كله راح في استرداد أي حاجة من عائلة دوس، أيه يا ماما هنعمل أيه؟

نطقت «جانيت» بصعوبة بالغة فالصدمة لازالت مؤثرة عليها تمامًا قائلة في هدوء حذر:

- أنت متأكد من حكاية حمل رفقة دي.

نظر «غاصب» والشرر يكاد يتطاير من عينيه قائلًا بجنون:

- زي ما متأكد إنك أمي بالظبط، المصدر اللي عندي ميعرفش يكذب على.

أخذت «جانيت»نفسًا عميقًا من سيجارتها منفثة إياه على دفعة واحدة قائلة:

- أظن لو حصل ورفقة خلفت يبقي كدة إحنا ضعنا خالص، لازم حل فوري.

أشعل «غاصب» سيجارته العشرين في ما لا يقل عن عشر دقائق قائلًا بتوتر وعصبية:

- ولما رحت للقرد الدجال ملقتهوش في بيته وفي ناس بتقول إنه رجع بلدة السودان، العمل أيه؟

- اهدأ يا غاصب، الحل دلوقتي إن رفقة تختفي من على وش الدنيا باللي في بطنها.

توقف «غاصب» ناظرًا إلى أمه بذهول لتتسع حدقة عينيه قائلًا:

- قصدك أيه يا ماما.

تركت «جانيت» سيجارتها بالطفاية البنور قائلة:

- قصدي زي ما أنت سمعت بالضبط.

ضاقت عيناه وانغلقت حواجبه لتظهرعلى وجهه ابتسامة صفراء خبيثة قائلًا:

- تمام كدة، فهمت.

- أشك إنَك فهمت حاجة أصلًا.

وجه «جعود» حديثه إلى أخيه الذي حك مؤخرة رأسه مخرجًا من تحت طاقيته سيجارة مشعلًا إياها قائلًا:

- يعني أنت عايز تقولي إنك قابلت المربوطة وقالتلك إن مراتك هتخلف، دة اسمه كلام برضه، دي امرأة هبلة مجنونة راكبها عفريت.

أطفأ»جعود» سيجارته قائلًا:

- والله أنت اللي راكبك عفريت، هي لو راكبها عفريت كانت تقولي على اللي هيحصل.

السنباطي: أستغفر الله العظيم يا أخويا، اهدأ أحسن حد يسمعك ونروح في داهية ويقولوا علك اتجننت رسمي.

وصل كل من «السنباطي» و«جعود» إلى الأرض فوجدا في انتظارهما «منير» الذي بكر للإشراف على أعمال الحصاد ومعرفة احتياجات الفلاحين، فموسم حصاد القطن مهم جدًا وعلى «منير» كل عام أن يحضره بنفسه ليري نتاج الأرض ويسمع شكاوي الفلاحين بنفسه محاولًا معالجتها إنْ أمكن.

اقترب كلًا من «السنباطي» و«جعود» من البيه ملقيين السلام بينما هنأ «منير» «جعود» على حمل زوجته داعيًا أن يمد الله يدة حتي تضع مولودتا، فشكره «جعود» جدًا متوسطًا لأخيه حتي يسمح له البيه بالعمل لدى بعد أنْ فشل في آخر عمل لدى ليجد أخيه يقول أمام الجميع ببرود:

- أنا مطلبتش أشتغل يا أخويا، ومبحبش أشتغل عند نصاري.

نظر إليه «منير» باستغراب وأيضًا بعض من الفلاحين المحيطين بهم غير مصدقين آذانهم فيما قاله هذا السفيه أخو «جعود». هكذا ظنوا بينما قرر «منير» أن يرد قائلًا:

- ولا تتعب نفسك، اعتبر نفسك من سكة وإحنا من سكة.

انتهر «جعود» أخيه على عدم حيائه وقلة أدبه أمام البيه زاجرًا إياه طالبًا منه الرحيل ومغادرة الأرض فورًا وعدم الحضور مرة أخري. ذهب الأخير بغير رجعة و«منير» على وجهه علامات الذهول والتعجب الشديد من جراء ما حدث محاولًا معرفة تلك الروح الخبيثة التي أصابت «السنباطي» فما من جعود إلا أنْ حاول تبرير منطق أخيه غير المعقول قائلًا:

- لا مؤاخذة يا بيه أنت عارف الواد دة مجنون ولسانه فالت منه وقليل التربية، لكن وغلاوتك عندي هاعرف أربيه الواد الناقص دة.

نظر «منير» بتمعن إلى «جعود» ولم يتفوه بشيء في ذلك الموضوع بل اتجه إلى طريقٍ آخر بالحديث وهو تهنئته مرة أخري بحمل زوجته سائلًا إياه إذا كان المولود

ولد ماذا سيسميه؟ وإنْ كان فتاة فماذا سيسميها؟ ليقضي الاثنان يومهما في مناقشة متطلبات الجيل الجديد الذي سيحل قريبًا في وسطهم. كان «منير» قد قرر أنْ لا يشيع أنَّ زوجته حامل سوى بعد أنْ تظهر عليها أعراض الحمل وذلك تبعًا لنصيحة «حسنين» درءًا للعين الحاسدة الحاقدة حتي يمرر الله تلك الأيام على خير.

- خير إزاي بس يا غاصب بيه، إحنا نسرق آه، نعمل شقاوة آه، لكن نقتل نسوان حوامل، صعب دي.

- أنا هادفع اللي أنت عايزه، أي مبلغ لكن لازم الست دي تموت ومعاها اللي في بطنها.

نظر «برعي الدقل» بضيق إلى «غاصب» الذي عرض عليه ذلك العرض المغري، لكن لكل شيء حدود لدى «الدقل» فحتي الجريمة لها حدود عند أهل الجبل وتعديا يمكن أنْ يضع الجميع في مأزق مع الحكومة. فالقتل بدون سبب يعتبر تعدي للخطوط الحمراء بأي حال من الأحوال؛ لذا صمم «الدقل» على رفض طلب «غاصب»، فهو ليس بقوة عائلات البهوات ومعاداتهم ليس لها نهاية وإذا تم كشف المستور يومًا ما، فلن تحمد العواقب. لذا رفض هذا الطلب غير المحدد الثمن ليذهب «غاصب» إلى آخر يطلب منه أنْ يقتل له زوجة ابن عمه وليظل «الدقل» في الظل.

جر «غاصب» ذيول الخيبة نازلًا من الجبل حتي قارب على مشارف القرية متجولًا على جوادة فوجد صوت حوافر جياد وكأنها تتبعه فتوقف عن السير فتوقفت، ليعود من جديد للسير فعادت الأصوات فقرر التَرَجُّل من على جوادة لمعرفة متتبعه الخفي الذي لم تمر لحظات حتي ظهر بشخصه، إنَّهُ «فكري الركيب» المأمور ممتطيًا جوادة، ابتسم له قائلًا بسخرية:

- يا مساء الخيرات يا غاصب أفندي.

أَخْرَجَ «غاصب» صوته بصعوبة بعد أنْ تنفس الصعداء من أنْ يكون أحدًا من أهل القرية هو من يتتبعه ليراه وهو يهبط من الجبل في جنح الليل لذا حاول استجماع أعصابه قائلًا:

- هو أنا متراقب ولا أيه.

أَخْرَجَ المأمور سيجارة مشعلًا إياها قائلًا بعد أنْ نفث دخان السيجارة بالهواء:

- عارف أنا اسمي ليه فكري الركيب؟

نظر إله «غاصب» ببرود شديد ليكمل الآخر قائلًا:

- لأني باركب على كتاف أي حد ومبنزلش أبدًا.

- تمام وأنا دخلي أيه في الموضوع دة.

نفث «فكري» دخان سيجارته مغلقًا عينيه نوعًا ما قائلًا:

- عيب جدًا إنك تطلع لرجالة الجبل بدون علمي، كفاية أول مرة قلبت بيها البلد في سرقة محل الذهب والمديرية فتحت عينها علنا بالجامد، المرة دي طالع علشان تكري على مرأة ابن عمك.

بلع «غاصب» ريقه بصعوبة وهو لا يعرف بما يجيب بالمرة ناظرًا بحذر إلى المأمور الذي أكمل قائلًا:

- كل يوم طلباتك بتزيد وبتكبر ولغاية دلوقتي مش عارف إنَّ البلد ليها كبير وإن لي رجالتي جوه الجبل وبراه وكفاية قصه أبو ناموسة، اركب حصانك وتعال نتمشي شوية ولا أقولك ما تيجي نروح لصاحبتك تحية، دي ست لطيفة.

فهم «غاصب» ما يرمي إله المأمور فابتسم بخبث قائلًا:

- غالي والطلب رخيص.

ركب «غاصب» جوادة متجهًا إلى منزل «تحية» يرافقه المأمور . رأتها«تحية» فاستغربت بشدة من مجيء المأمور لدنا، فما من «غاصب» إلا أنْ انفرد بها طالبًا منها مشاركتها الجلسة وملاطفة المامور فرفضت «تحية» بشدة في البداية متذكرة أيام زوجها القذرة، لكن مع «ضغط» غاصب النفسي الشديد عليها واعدًا إياها بالزواج حتي رضخت في النهاية لمطلبه لتقوم بإعداد ليلة لطيفة من مأكولات ومشهيات وفواكه مدعمة إياها بأقوي أنواع الكونياك الفرنسي هذا من جانب، ومن جانب

آخر ارتدت أفخر الثياب لدا وتعطرت بأحلي العطور من أجل ملاطفة المأمور الذي انهمك في تلك الليلة سريعًا متبادلًا مع «غاصب» أطراف الحديث أمام «تحية». طلب المأمور منه مبلغ ألفا جنيه لإنهاء قضية «أبو ناموسة « إلى الأبد؛ فهو يعلم أن غاصب هو من أطلق النار على «أبو ناموسة» مذكرًا إياه بما حدث بينه وبين القتيل الذي طلب منه هو شخصيًا أنْ يقوم بتخريب بعض الممتلكات القيمة لعائلة عمه وأعطاه جزءًا من العربون المتفق عليه بينهما لأنَّ «أبو ناموسة» ليس له أمان بالمرة بل هو الخيانة بذاتها على أنْ يدفع له البقية بعد إتمام العملية، ومع ذلك لم يفعل القتيل أي شيء بل مارس سياسة الابتزاز مع «غاصب» محددًا بكشف سره إلى ابن عمه إذا لم يعطه نقودًا ولم ينته الأمر إلا برصاصةٍ تَخْرُجُ من مسدس «غاصب» لتستقر في صدر» أبو ناموسة» منهية عليه إلى الأبد. ولأن ذلك المسدس مرخص ومعلوم لدى ملفات «فكري» مأمور القرية فقد قام بمساومة «غاصب» بعد أنْ توصل إلى أنَّ مُسَدَّسَهُ هو صاحب جريمة القتل التسعة مللي ماركة سميث فلا يوجد مثله في القرية إلا مع غاصب. وبعد الضغط عليه نوعًا ما اعترف للمأمور بعد أنْ اتفقا على تسوية الأمور بعد أن عَرِفَ «غاصب» مطلب المأمور الذي من ناحيته لا يجد مانعًا في غلق القضية إلى الأبد أمام مقابل مادي محترم، ولكل شيء ثمن في هذا العالم ورفض المأمور أنْ يعرف لما كان «غاصب» وراء حادثة سرقة محل الذهب لأنَّهُ لا يهمه مادام ليس به دماء؛ لذا لم يجد «غاصب» مانعًا من أن يضم طلبه الأخير الذي ذهب فيه إلى رجال الجبل. كانت «تحية» صامتة تستمع إلى كل ذلك الشر الرهيب المتدفق منهما غير متوقعة بالمرة ما يقوله الاثنان، فحبيبها يبدو أنه شيخ مَنسر والمأمور حامي القرية ما هو إلا أداة جيدة لتوصيل الشر إلى منابعه بسلام. و لم يتوانَ «فكري» في أنْ يغازل «تحية» وهي تتذكر كل تاريخها السابق مع زوجها المرحوم ليبدو أنَها كتب عليها تلك الوظيفة لتكون محظية من أجل الجميع، ولا أحد يحبها حتي «غاصب» مارس معها نفس السياسة القديمة ولا عزاء لقلبها المسكين. انتهت الليلة وقد حصل كل شخص على مبتغاه ليمضي المأمور مفكرًا في خطة مناسبة بينما تهللت أسارير «غاصب» لقرب وصوله إلى ضالته المنشودة ألا وهي التخلص من

حفيد عائلة «دوس» القادم إلى الأبد فما من «تحية» إلا أنْ رأت فورية التدخل قائلة:

- هو بجد يا غاصب اللي أنا سمعته دة.

أشعل «غاصب» سيجارة ناظرًا في سقف غرفة النوم وقد خلع قميصه ليصبح شبه عارٍ مدخنًا قائلًا:

- وأنت سمعت أيه يا خنزيرة.

تمعنت فيه بشدة من تبسيطه للمصائب إلت سمعتها منذ قليل بقولها:

- أنت اللي عملت كل دة مع المأمور ولسه هتعمل.

- أنت عارفه ليه أبويا سماني غاصب يا توحة.

لم يبدر منها أي إجابة، بل ظلت صامتة مندهشة من كمية الهدوء التي يبدو عليها ليكمل حديثه:

- علشان أبويا شاف إني لازم أخد كل حاجة غصب عن عين الناس ودة مصيري، لازم أخد حقي بالغصب يا رب.

قاطعته قائلة بانفعال:

- ماشي نأخذ حقنا بالغصب مش بالقتل.

- لا .. لا.. أنا اللي أخد حقي بالغصب بس، مش إحنا، والقتل ما هو إلا وسيلة من وسائل الغصب في الزمن دة، يعني عندك هتلر مثلًا كان نفسه يأخد العالم غصب، لكن ناس تانية غصبت عليه إنَّ هو اللي يسيب العالم وأخدت منه كل حاجة، شفت يعني أيه غصب يا أمورة.

أشار إلها لكي تأتي إليه جالسة على جحره وهو يداعب صدرها بيدة واضعًا السيجارة في فمها آخذة نفسًا منفثة إياه بالهواء قائلة له:

- أنت بتحبني يا غاصب.

نظر إلها مربتًا على شعرها الناعم قائلًا مصطنعًا الحنان:

- موت يا حبيبتي ... موت.

obeikandl.com

-١٤-

- موت أيه بس يا ست هانم، بعد الشر عنك، إن شاء الله عدوينك، دة كان كابوس وراح لحاله الحمد لله.

نظرت «رفقة» إلى «رئيفة» وهي لا تدري بماذا ترد عليها بعد أنْ سردت لها عن الكابوس الذي رأته ليلة أمس في منامها حيث كانت هي و«منير» بعربتهم التي انزلقت في الترعة ومات كلُ من بالعربةِ. فما من «رئيفة» إلا أنْ استعاذت بالله من الشيطان الرجيم مؤكدة لسيدتها أنَّه كابوس بالتاكيد وأنَّه لا داعي لها أنْ تتذكره بالمرة وعليها الاهتمام بما هو في بطنها. ثم أخرجت الفطير المشلتت من المشنة التي أتت بها من دارها واضعة إياه أمام «رفقة» التي ما أنْ اشتمت رائحته الشهية حتي انهالت أكلًا منه بنهم. طلبت من «رئيفة» أنْ تشاركها لتعتذر الأخري متحججة بأنها سبقتها داعية لها بالهناء والشفاء ثم تجاذبتا أطراف الحديث عن الحمل ومتاعبه اللذيذة بينما أقبلت «روجينا» هانم عليهما لتنسحب «رئيفة» بهدوء عالمة طباع الست هانم الكبيرة.

روجينا: أيه دة اللي أنت بتأكليه دة؟

رفقة: دة فطير مشلتت ، رئيفة هي اللي خبزاه علشاني .

تأخذه «روجينا» من أمامها مشيرة بيدةا إلى «لبيب» ليحمل ذاك الفطير بعيدًا وهي

تقول في حرص زائد جدًا:

- مفيش أكل غريب هتأكليه لغاية لما تولدى، أنت فاهمة، كل أكلك لازم يطبخ في القصر وتحت إشرافي، أنت فاهمة، لازم تبقي صحتك كويسة.

أخذ «لبيب» الفطير بعيدًا. وقلب «رقية» يكاد ينفطر عليه فهي تعلم حلاوة مذاق فطير «رئيفة» الذي تعشقه جدًا، لكن أوامر ونواهي ماما «روجينا» فوق الجميع وليكن ما يكون لتمارس «روجينا» تلاوة أوامرها ووصاياها إلى المسكينة «رقية» قائلة:

- يا ريت تخففي من مقابلات صديقاتك وكفاية كلام مع رئيفة عن الحمل والولادة حتي ولو هي حامل وبلاش تباسط مع عامة الخدم عمومًا، أنت دلوقتي أم حفيد عائلة دوس باشا، عارفة دة معناه أيه، يعني العظمة.

نظرت إليها «رقية « بحسرة من كثرة تلك الأوامر التي لا فائدة منها من وجهة نظرها فهي ليست سوى نوع من أنواع درء الحسد الذي تؤمن به «روجينا» تمامًا لذا قررت «رقية» أن تغير من دفة الحديث قائلة:

- أنا عايزة أروح لماما وقت الولادة.

ابتسمت «روجينا» ابتسامة باردة قائلة:

- مفيش خروج من القصر وماما هابعت السواق يجيبها لغاية هنا لأنك هتولدى في قصر دوس باشا، مفهوم.

أومأت «رقية» برأسها علامة الإيجاب لكي تتحاشي غضب «روجينا» التي تظهر كل ملامح الشدة في الحفاظ على المولود القادم.

دخل «منير» على أمه وزوجته مقبلًا كلًا منهما جالسًا بينهما واجدًا «روجينا» تأمره هو أيضًا قائلة:

- ممنوع خروج مع مرأتك إلومين دول لغاية لما تخلف، أنت فاهم.

تعجب «منير» من لهجة أمه الحازمة الآمرة فقال محاولًا تخفيف التوتر:

- لسه بدري يا ماما دي في الشهر السادس.

قاطعته «روجينا» قائلة في جدية وحدة:

- شهر سادس، تاسع، هتفضل هنا لغاية لما تولد، أنا مش عايزة تعب أعصاب، أنتم فاهمين.

نهضت «روجينا» تاركة ابنها مع زوجته التي ما أنْ تركتهما حتي بدأت في التحدث إلى زوجها بود قائلة:

- ماما خايفة على جدًا، دة حتي فطير رئيفة مش عايزاني آكل منه، خايفة جدًا.

ابتسم «منير» في هدوء شديد قائلًا:

- حقها، الست نفسها تشوف حفيد قوي وبعدين ارحمي رئيفة شوية، دي على وش ولادة.

- صدقني مش أنا اللي قلتلها تخبز الفطير دة، هي من نفسها اللي عملته، ما تروح تجيب حته منه.

- بلاش طفاسة يا رفقة، أنت عارفة دة جعود هيطير من الفرح، دة كان على وَشَكْ يتجوز تاني.

- يا ريت نغير السيرة دي.

لاحظ «منير» تغير مناخ زوجته عند ذكر الزواج الثاني فتذكر ما كان يفكر فيه قبل حمل زوجته، طرد كل تلك الأفكار الخبيثة من عقله حتي لا يُعَكِّر صفو زوجته بالحديث عنها، ولم يمض وقت حتي دخل عليهم «مراد» ملقيًا التحية على الجميع في بشاشة وود ليبادلاه مثلها؛ «فمنير» يكن مشاعر المودة والترحاب لابن عمه «مراد» عكس «غاصب « الذي لا يطيقه أبدًا. هو يعتبر»مراد» دائمًا حمامة السلام القائمة بين عائلة «دوس» وعائلة «وفيق» منذ زمن. وكم من مرة تدخل لدرء العائلتين مشاكل عديدة من صنع أخيه وأمه للحفاظ على لم شمل العائلة ووحدتها حتي وإنْ كان ظاهريًا لذا «فمنير» لا يخشي على عائلته وهم مع «مراد» الذي لم يبخل على «رفقة» بمساعدته لها في إدارة الأعمال الخيرية وهي في تلك الفترة؛ وهذا هو سبب

زيارته لها الآن حيث عرض عليها جميع الأعمال المتعلقة ببيت الأيتام ومن ثم تطور إنشاء المدرسة التي أوشكت على الانتهاء تمامًا. وستبدأ الدراسة فيها من الموسم الدراسي القادم إنْ شاء الله وقد أعلمها بأنه قد بعث إلى وزارة المعارف يبلغهم بأنهم في مسيس الحاجة إلى طاقم المدرسين الخبراء الأقوياء للتدريس في المدرسة وعليهم أنْ يرشحوا لهم الأفضل. تفائلت «رفقة» من حديث «مراد» جدًا داعية بالتوفيق لتلك المساعي، وأنْ لا يحدث شيئًا يعكر صفو تلك الأعمال التي لا تهدف سوى لمصلحة أبناء القرية وشددت على أن يتم تعلم الأطفال في مرحلة التعلم الأساسي العديد من اللغات التي ستجعل من مدرستهم منارة ومركز للتعلم الراقي حتي إن أدي الأمر إلى الاستعانة بمدرسين أجانب لتدريس اللغات كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية أسوة بمدارس الجاليات الأجنبية كالراهبات الأمريكان للفتيات، ومدارس الرهبان الفرنسيسكان واليسوعيين للفتيان، يجب أن لا يقل مستوي مدرستهم عن تلك المدارس التي يلتحق بها أبناء صفوة المجتمع ليكونوا نبراسًا للمملكة المصرية وفخرًا. شجع «منير» تلك الأفكار داعمًا إياهم باتصالات قوية سيجريها بالأيام القادمة بهيئات القناصل لإمدادتم بمثل هذا الطاقم من المدرسين الأجانب الأكفاء. بَلَّغَ «مراد» أيضًا سلام جميع أطفال بيت الأيتام وتمنياتهم بعودة ماما «رفقة» سريعًا إليهم ومعها أخيهم أو أختهم الجديدة التي ستنضم إلى عائلة «خياط» في القريب العاجل، فأسعد ذلك «رفقة» جدًا فهي تكنّ لهؤلاء الأطفال مشاعر الأمومة الجياشة الجارفة.

احتسي جميعهم الشاي ما عدا «رفقة» التي شربت إلنسون حتي دخلت عليهم «تحية» لتزور صديقتها مطمئنة على حالتها الصحية ليقع عين «مراد» عليها من قرب فهو قد قابلها أكثر من مرة، ولكن لم يتسن له أنْ جالسها عن قرب مثل تلك المرة فَرَاقَهُ جمالها الأخاذ وعذوبة حديثها مع «رفقة» فوضع الأمر في عقله إلى حين مقررًا أن يترك المجال للصديقتين مستغذنًا منصرفًا واعدًا «رفقة» بلقاء قريب. وما أنْ وصل إلى عربته راكبا إياها راحلًا حتي وجدها لا تعمل فيبدو أنَّه أصابها عطب ما فتركها إلى أنْ يبعث بالميكانيكي ليري ماذا أصاب عربته الصغيرة، فقرر «منير» أنْ ينتظر معهم على أنْ يقوم السائق الخاص به بإيصاله إلى منزله وتحت إلحاح وضغط منه

رضخ «مراد» منتظرًا مجيء السائق من مشواره الذي كلفه به منير مقضًيا إياه. كانت «تحية « قد قررت أن ترحل أيضًا فصمم «منير» أنْ يقوم السائق بإيصالها أيضًا مع «مراد» بعد أنْ علم أنَّها قد أتت بحنطور وذلك أقل واجب. لم تجد «تحية» عذرًا لرفض الدعوة الكريمة لتستقل العربة ومعها «مراد». انطلق السائق الذي أتجه بهما إلى بيت «تحية» في البداية وما أنْ خرجت العربة من القصر متخذة طريق الترعة الغربي حتي خرجت عربة نصف نقل من الطريق الجانبي للزراعات مغلقة المسار على عربة «منير» مما جعل السائق يطلق النفير لإخلاء الطريق له، فما أن أخلت له العربة النصف نقل مساحة ليمر بجانبها حتي اقتربت منهم بشدة ضاربة العربة بشدة وقسوة مما جعلها تنحرف عن مسارها ساقطة في الترعة و«تحية» تصرخ بداخلها بشدة بينما «مراد» يحاول تخليصها حتي لا تغرق. هربت العربة مسرعة ولم يستطع أحدٌ من أهل القرية متابعتها بل انشغلوا بإنقاذ العربة حتي لا يذهب كل من فيها بدون رجعة وأفلح «مراد» في إنقاذ «تحية» بينما علق هو داخل العربة محاولًا إنقاذ السائق الذي لم ينج قط، بينما «مراد» وهو يحاول إنقاذ نفسه أغْلِق باب العربة على قدمه إلسري فلم يستطع أن يحركها وشعر بأنه يغرق فأسلم قدره إلى الله ليشعر بيد تنتشله من الماء سريعًا قبل أنْ يلفظ أنفاسه الأخيرة تمامًا ليدخل في إغماءة طويلة فاقدًا الوعي من الآلم والإعياء الشديدين.

التهبت مشاعر أهل القرية جميعًا عند سماعهم هذا الخبر المدوي فور حدوثه لاختلاط الأمر بأنَّ من كان في العربة هو «منير» بيه وزوجته تلك السيدة الطيبة الرحيمة «رفقة» هانم؛ لذا انتشر الخبر بسرعة البرق بين الأهالي جميعهم بأنَّ من ذهب ضحية تلك الحادثة هم أهل عائلة «خياط» جميعًا حتي وصل الخبر إلى بيت الأيتام الذي أصاب كل من به بالذعر والهلع لهذه الفاجعة ووصل الخبر إلى آذان «منير» الذي لم يصدق ما حدث آخذًا عربته الأخري بدون أن يُبَلِّغْ زوجته خوفًا عليها من الصدمة في تلك الفترة من الحمل ذاهبًا بمفردة ليجد «تحية» جالسة وعلامات الدهشة والخوف المريع على وجهها البريء، وحولها عدد من الفلاحات اللاتي شاهدن الواقعة يحاولن التهوين عنها فرحين بنجاتها. بينما «مراد» مستلقٍ على الأرض و الفلاحون حوله لا

يدرون إلى أينَ يأخذوه. قام «منير» بإيصال مراد إلى مستشفي المديرية التابع لها قريتهم وعليه تم إسعافه وإخراج باقي الماء الذي بالرئة نتيجة تجرعه الكثير من الماء ومن ثم بدأيه معالجته من الكسر المضاعف بقدمه إلسري نتيجة غلق باب السيارة ليبدو أنَّ «مراد» سيرقد في المستشفي لمدة من الوقت.

عادت «تحية» إلى منزلها بعد أنْ تركها «منير» في رعاية بعض المعارف الموثوق بهم وهي تسأل نفسها أتلك الحادثة بفعل فاعل أم أنها قضاء وقدر؟ وحال عقلها يرفض المنطق الثاني تمامًا. أيعقل أن يكون قد فعلها «غاصب» والمأمور، والحَظُّ هو من وضعها داخل العربة مع «مراد» بدلًا من «منير» وزوجته، أي حال هذا الذي أصابني يا ربي، ولكن كل هذا من سوء ظني وتفكيري الخاطئ وثقتي في أناس ليسوا أهلًا للمعاشرة.

حاولت «تحية» الوصول إلى «غاصب « لكن باءت كل محاولتها بالفشل، فالأستاذ ليس له أثر في جميع أنحاء القرية المتعارف عليها وغير معلوم إذا كان قد سافر أم لازال داخل أنحاء القرية. أما المأمور فهو في مهمة خارج القرية خاصة بالمديرية، والعربة التي صدمتهم ليس لها أثر، شُلَّ التفكير بعقل «تحية» غير عالمة من تصدق، أتصدق نفسها أم الظروف؟

حاول «منير» في تلك الأثناء بعد رجوعه من المديرية أن يتعقب أي خيط يمكن أن يوصله لإذا كانت تلك الحادثة مُدَّبرة أم الحظ العاثر هو من أوقع أصحابها بها، فمعروف أنَّ حوادث الطرق كثيرة لدسم في القرية لضيق الطرق وعدم انتظامها لذا قرر أنْ يجمع البهوات لمناقشة هذا الأمر في القريب العاجل بينما ساعد أهل السائق الذي راح ضحية هذا الحادث الإليم و«منير» سخي جدًا مع موظفيه إذا ما أصابهم مكروه أثناء العمل. أمر بأن يظل مرتب السائق كما هو بل يزيد وأنْ يتعلم أبناؤه على حساب «منير» الشخصي. وجد «رفقة» قد علمت بالحادث من الخدم وقد أصابها الذعر الشديد على من كانوا بالعربة فطمأنها زوجها بأن الأمور على ما يرام، وأنَّ أهل القرية قد أخرجوا العربة من الترعة وصديقتها بألف خير بمنزلها، وقد أرسل

لها طبيب العائلة فور وصولها إلى منزلها للاطمئنان على صحتها وقد علم أنها في أتم صحة وعافية ما عدا نفسيتها المضطربة؛ لذا اتجه الدكتور إلى إعطائها بعض المهدئات المسكنة على إثرها ذهبت في سبات عميق مؤكدًا أنها ستكون أفضل. أما حال «مراد» فهو الذي تعقد نوعًا ما ليجروا له عملية بقدمه إلسري لتعديل مسار العظم وقدمه الآن موضوعة بالجبس والحال مستقرة الآن. شعرت «رفقة» بالراحة إلى حد ما محاولة إزالة التوتر والقلق من ذهنها حتي لا يؤثر ذلك بالسلب على الجنين داعية الله أن يحفظ عائلتها من كل شر.

- شر البلية ما يضحك، صحيح.

قال المأمور تلك الجملة وهو ممسكٌ بسيجارة مشعلًا إياها وفي إلد الأخري كأس ويسكي موجهًا حديثه إلى «غاصب» الذي جلس قبالته وأمامه زجاجة الويسكي الأولي فارغة والثانية قد انتهي نصفها تقريبًا ولا يوجد من يحتسي الخمر سواهما بشقة «غاصب» بالإسكندرية.

ابتسم» فكري» قائلًا وقد احمرت عيناه من كثرة الشر:

- لا وتيجي في مين، في أخوك وصاحبتها، يا دين النبي.

نظر «غاصب» إلى «فكري» بتمعن شديد وعيناه قد غلب عليها الاحمرار من كثرة شرب الخمر غير واجدٍ ما يتفوه به؛ فعقله به الكثير من الأفكار القاتلة المتخبطة ليكمل «فكري» حديثه:

- مالك، لسانك أكلته القطة ولا أيه، أنا بقالي أكتر من ساعتين بأتكلم لوحدي، أمال أنت كنت فاكر أيه؟

انتفض «غاصب» من مكمنه قائلًا بصوت عالٍ:

- أنت ضَحِكت على، أنت حِلفتلي على المصحف إن العملية هتنجح.

أطال» فكري» النظر إلى غاصب تاركًا كأسه على المنضدة التي أمامه واضعًا السيجارة في فمه مصفقًا لهذا الآداء المسرحي المصطنع من «غاصب» قائلًا ببرود:

- ولو كانت نجحت العملية كان هيبقي الضحايا، عشيقتك وأخوك يا غاصب

أفندي.

- حاول غاصب التماسك جالسًا مرة أخري ليصب لنفسه كأسًا آخر من الويسكي محتسيًا نصفه قائلًا:

- ودة اللي حيجنني، إزاي؟ أيه اللي لم الشامي على المغربي في عربية واحدة.

- بتسألني أنا، اسأل نفسك يا محترم وشوف ربنا حكمته أيه؟

نظر «غاصب» بذهول وقد اتسعت عيناه من منطق «فكري» قائلًا في هدوء شديد:

- أكيد هنجرب تاني.

ابتسم»فكري» ابتسامة صفراء خبيثة قائلًا وهو يطفئ سيجارته:

- أظن مش دلوقتي خالص وكفاية اللي حصل دلوقتي، إحنا مش عايزين نفتح العيون علينا.

أشعل «غاصب» سيجارة منفثًا دخانها في فراغ الغرفة المعبأة بدخان السجائر قائلًا:

- محدش يقدر يِفَتح عينه فينا.

أشعل «فكري» سيجارة قائلًا:

- أنا موظف ميري يا غاصب أفندي ومش من مصلحتي أضرب ضربتين وراء بعض، كفاية إن الأولي عدت على خير والواد هرب بالعربية النصف نقل المسروقة، واللي مات حد مش مهم.

- يعني إحنا هنستني لغاية إمتي؟

- مش أقل من شهر أو اتنين ولا يبقي كدة هيبان أن المستهدف هي عائلة خياط وهنا ينكشف المحظور.

عض «غاصب» على شفتيه من الغيظ فشهر أو اثنان ليس في صالحه بالمرة فإذا وضعت «رفقة» مولودتا سيكون من الصعب قتل ثلاثة عوضًا عن قتل اثنين الآن ولا يدري أسيصل إلهم مرة أخري أم لا؟

-١٥-

- لا، الاسم دة مش حلو، الصراحة يا جعود أنا كان فة نيتة لو طلعت بنت هاسميها قمر.

وجهت «رئيفة» أم البنت حديثها إلى زوجها الحامل على ذراعيه ابنتهما الغالية حديثة الولادة محمدةدًا إياها والجميع من حوله من نساء يباركن له ممن ساعدن «رئيفة» أثناء عملية الولادة حتي أنْ الله مد يدة وقامت بالسلامة.

تمعن «جعود» بابنته قائلًا:

- خلاص نسميها قمر، والله ما أنا مرجعلك كلمة.

هتفت النسوة بالزغاريد العالية مهنئين أبو قمر بالمولودة السعيدة قمر.

دخلت أم «جعود» حاملة صينية مليئة بالطعام وهي تزغرد قائلة:

- المرة دي بنت، لكن والمصحف المرة الجاية لو مش ولد، ذكر، هاخرب بيتك يا رئيفة.

نظر «جعود» بامتعاض إلى أمه لا يعرف بماذا يرد عليها، بينما «رئيفة» قد ابتسمت وهي تضرب «جعود» بيدها فابتسم هو الآخر. أمسكت «رئيفة» زوجها من جلبابه ففهم أنَّ زوجته تريد أنْ تهمس في أذنه فنزل إليها لتقول له:

- رفقة هانم عاملة أيه.

obeikandl.com

- بيقولوا حالتها متعثرة ويمكن تولد بين يوم والتاني.

وضعت أم «جعود» صينية الطعام أمام «رئيفة» قائلة:

- اتغذي وكلي أنت دلوقتي بتأكلي لنفرين يا بنتي.

لاحظت «رئيفة» ظهور حنان قديم كانت قد نسته من أم «جعود» لم تره منها سوى بعد زواجها حديثًا وماتت مع الأيام الطويلة، لكنها الآن عادت الحياة إلى مجاريها بعد سنين الجفاف والجفاء التي أصابت الجميع، لكن هي عن نفسها فالشهادة لله أضاءت صوابعها العشرة شمع لحماتها التي همست في أذن «رئيفة» قائلة:

- أظن ننسي اللي فات يا بنتي وأنا زي أمك الله يرحمها، ربنا مسامح كريم يا أم قمر يا غالية.

لم تستطع «رئيفة» أنْ تمنع دموعها التي انسابت منها فجأة وبدون سابق إنذار مما أزعج «جعود» قائلًا بصوت عالٍ واضح:

- في أيه يا أما، أيه تاني، ما خلاص قمر قدامك وبكره ربنا يكرمنا ونجيب شمس كمان.

أطلقت أم «جعود» الزغاريد بنشوة عارمة.

لم يمر أسبوع على ولادة الطفلة وتهنئة «منير» «جعود» في يوم سبوع «قمر» حيث جلس «منير» متوسطًا الاحتفال الذي أقامه «جعود» لسبوع ابنته وبعد أن قام «منير» بتنقيط الطفلة الصغيرة بمبلغ خمسون جنيهًا. أقبل «لبيب» مسرعًا مخترقًا الاحتفال والغازية ترقص والجميع منسجمون ليميل على أذن «منير» هامسًا بشيء لم يسمعه أحد سوى البيه فقط الذي هب على عجلة من أمره جاريًا لاهثًا مما استرعي انتباه جميع الحاضرين حتي أنَّ»جعود» نفسه انتظر برهة من الوقت ولحق بالبيه تاركًا ورائه أخيه الذي ظل يلاطف الغازية صاحبة الصدر الغض، أما أمه فقد اهتمت بأن يأكل الجميع في سبوع «قمر» داعين لها بمستقبل سعيد .

وصل «منير» إلى القصر داخلًا غرفة النوم ليجد الحكيم واقفًا وبجانبه «روجينا» و»أم رفقة»، بينما زوجته تصرخ بعلو حسها الذي أسمع القصر كله من الآلام، فما من

الطبيب إلا أنْ أخرج «منير» والعرق يتصبب منه أنهارًا والممرضة تجففه له مفضلًا ألا يري البيه زوجته في هذه الحالة فخرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب؟ فظل يسير بغرفة مكتبه ذهابًا وإيابًا مشعلًا السيجار مدخنًا من شدة التوتر والانفعال وصوت زوجته يعلو شيئًا فشيئًا ليرج جوانب القصر وهو يكاد يجن حتي وصل «جعود» ليشاركه قلقه محاولًا التخفيف عليه فذلك هو حالهن معشر النساء والله كريم.

طالت المدة أكثر من اللازم فاتجه «منير» إلى غرفة جانبية بها صورة للسيدة العذراء كثيرًا ما وقف أمامها كلما زادت الأمور سوءًا في حياته والآن يقف أمامها طالبًا منها مساعدة زوجته التي تئن وصوتها يكاد يصل إلى آخر القرية. وفجأة توقف الصوت تمامًا و ساد هدوء عظيم ليسمع «منير» انفتاح باب حجرة النوم وصوت أقدام تسير بهدوء وبطء شديد حتي وصلت إلى صومعته لتدخل أمه عليه وهي تكاد تحمل نفسها بالكاد وعيناها تهمر منها الدموع الغزيرة. لقد انكسرت «روجينا» هانم، لم يتمالك «منير» أن يري أمه بهذا الشكل لتسقط دمعة صامتة من عينين ذابلتين، بينما لم تحتمل هي أن تقف فجلست مرتمية على أقرب كرسي وجدته ومنديلها القماش بيدها مبتلًا لتجفف دموعها الغزيرة. أما هو فقد استجمع قواه نوعًا ما قائلًا في حزن شديد وانسحاق رهيب مميت وصوت مختنق سائلًا:

- ولد ولا بنت.

أجابت بصوت مبحوح قائلة:

- ولد.

صرخ «منير» صرخة عظيمة ناظرًا إلى صورة العذراء ثم قبض على يدة رافعًا إياها في الهواء منهالًا على الصورة الزيتية ليجد أمه قد أمسكت بمعصمه قائلة:

- دي إرادة ربنا يا منير.

دفن «منير» رأسه في حضن أمه باكيا بينما سمع الجميع صوت بكاء طفل والخادمة تقطع عليهما خلوتهما قائلة:

- بنت يا هانم، بنت يا منير بيه.

لم يصدق «منير» بل جري مسرعًا على إثر تلك المفاجأة الجديدة التي تفجرت الآن بالمنزل محولة الحزن إلى فرح بينما نظرت «روجينا» إلى صورة العذراء مبتسمة مجففة دموعها الحزينة لتحل مكانها دموعها السعيدة.

قابل «منير» الطبيب الخارج من الغرفة مجففًا عرقه الغزير كالأمطار فما أنْ لاحظ حالته حتي هنأه على مجيء المولودة الثانية شارحًا له أنهما كانا توأمًا طفل صبي وهذا قد نزل ميتًا أعقبه فتاة لم يلاحظوا وجودة بالمرة سوى بعد أنْ تحركت في أحشاء أمها تريد الخروج وهكذا مع صعوبة الأمر إلا أنها فلحت في أنْ تنجو وتخرج إلى الحياة تلك الفتاة العنيدة الجميلة التي تحدت القدر مستميتة في أن تحيا. وعليه فإن حالة المولودة في خير حال أما الأم لما لاقته من تعب وأنين وفقدان الكثير من الدماء فقد خلدت للراحة ونصح الطبيب بالإكثار من السوائل لها لتعويض ما فقدته من دماء وبالنهاية ألف مبروك يا «منير» بيه، هكذا أنهي الطبيب حديثه.

دخل «منير» على زوجته الغرفة ليجدها غارقة في سبات عميق ومظاهر التعب والإرهاق ظاهرة بوضوح على وجهها الشاحب نوعًا ما. فاتجه إلى السرير العاجي ليجد الممرضة ترفع الصغيرة النائمة واضعة إياها في أحضان أبيها الذي قبلها غير مصدق أنه يحمل ابنته فلذة كبدة بين يدي الاثنتين وما هي إلا لحظات حتي سألته الممرضة بماذا سيسمي الفتاة؟، فسمعوا صوت «روجينا» هانم قائلة:

- ماري، هنسميها ماري.

نظر الجميع إلى حيث الهانم الكبيرة الواقفة بشموخ وعزة عند أحد أطراف الغرفة فما كان من «منير» إلا أن نظر إلى ابنته التي بدأت تفتح عينيها السوداء الجميلة، وجه «منير» حديثه إلى الممرضة قائلًا:

- ماري، على خيرة الله.

أخذتها الممرضة منه واضعة إياها في السرير العاجي المخصص للأطفال قائلة في حبور:

- ربنا يخلي يا أبو ماري.

ابتسم «منير» فقد أصبح له اسم ثاني الآن ألا وهو» أبو ماري».

مر أول أسبوع وقد قرر «منير» أن يقيم سبوعًا فخمًا ضخمًا لابنته البكرية «ماري» فقام بدعوة جميع بهوات وبشوات القرية وعائلاتهم الكريمة ومن ثم صنع وليمة ضخمة إلى أهالي القرية البسطاء بالأرض لدى حيث نحر الكثير من الذبائح موزعًا إياها على الفقراء والمحتاجين والكل يدعو «لمنير» بيه «أبو ماري» بطول العمر، ما عدا شخص واحد تمني من كل قلبه أنْ يهدم المعبد على رأس عائلة «منير» خوفًا من أن يحدث حملٌ آخر وتلك المرة يكون صبي ويذهب حلم «غاصب» هباءً في الإطاحة بإمبراطورية «دوس» من على وجه الأرض والاستيلاء عليها للأبد. إنها لعنة القدر التي جعلت «رفقة» تحبل وتلد ابنة وتدعي «ماري»، هكذا فكر «غاصب» مشعلًا سيجارته آخذًا جانب بأحد أركان قصر «دوس» باشا حيث وقف يشاهد احتفال السبوع من بعيد والكل سعيد يشرب أجود أنواع الخمور الإنجليزية والفرنسية ويأكلون أشهي المأكولات التي صنعها رئيس الطباخين الفرنسي الذي جلبه «حسنين» هدية إلى حفل السبوع من فندق سان ستيفانو بالإسكندرية.

اتخذت «روجينا» مجلسها وسط صديقاتها الهوانم وهي تشعر الآن بعزة النفس والكرامة التي نفخت في صورتها وسط قريناتها، فالآن وبحق أصبح لها حفيدة من صلب ابنها، هي ابنة لكن لا مانع في كسر النحس الآن ولتكن الجولة الثانية قريبًا جدًا ويجب أن يكون صبيًا ليحمل اسم عائلة «دوس». قالت «خاتون» هانم ضاحكة:

- هي البنت كدة هتبقي برج أيه؟

قاطعتها «زبيدة» مبتسمة:

- أنت بتصدقي في قصص الأبراج دي يا خاتون هانم؟

خاتون: طبعًا، بتأثر كتير على شخصية الطفل وتكوينه.

ظهرت ابتسامة هادئة على وجه «روجينا» قائلة:

- ماري، برج العذراء، زي جدتها.

وعلى جانب آخر اصطف «منير» وسط أقرانه من أصدقائه البهوات ليقول «حسنين» مداعبًا صديقه:

- والله وعملتها يا منير بيه، معلش هي الأولي بنت وأنا الصراحة مش بنقط بنات، لكن علشان خاطرك يا أبو ماري هانقطها.

قاطعه «مندور» قائلًا:

- بنت، وعاجبنا يا سي حسنين، وأنت مالك، أخ لو مكنتش ماري كنت حجزتها لولد من ولادي الحسن أو الحسين.

ابتسم «منير» قائلًا:

- مش عارف أقول أيه والله يا بهوات، أخجلتم تواضعنا.

دخل المأمور بزيه العسكري المهندم مصافحًا «منير» أولًا ثم البقية قائلًا:

-ألف مبروك يا منير بيه، عقبال لما تخاويها.

ابتسم «منير» مستقبلًا تهنئة المأمور بترحاب شديد، جلست «رفقة» وسط صديقاتها وبجانبها أمها تعطيها كوب العصير لتشربه وهي ترفض قائلة:

- دي خامس كوباية عصير أشربها في أقل من ساعة يا ماما.

قالت أمها بقلق مفرط على ابنتها:

- الدكتور قال أيه، سوائل على طول أنت فاهمة، اشربي.

وضعت أمها الكوب على فمها بينما صديقاتها مبتسمين من طريقة معاملة «أم رفقة» لابنتها ومن ثم سرحت أمها بفكرها قائلة بصوت خفيض:

- آه لو كان أبوك عايش، كان زمانه طاير من الفرحة دلوقتي.

قالت «مفيدة» وهي تحاول فرض جو من المرح كعادتها:

- كلنا يا طنط فرحانين بماري وأم ماري.

عقبت «تحية» قائلة:

- بس اشمعنا ماري، اشمعنا الاسم دة.

نظرت «رفقة» يمينًا ويسارًا في خبث حتي لا يسمعها أحد وهي تضع كوب العصير الفارغ منهية إياه قائلة:

obeikandl.com

- اختيار جدتها، أم أبوها.

ابتسمت السيدات جميعًا بينما أومأت «تحية» برأسها متفهمة الموقف، أقبلت «رئيفة» وسط الجمع حاملة طبق الفطير المشلتت الساخن إلى الهوانم فما إن رأته «رفقة» حتي قالت في حبور:

- أيه دة بس يا رئيفة أنت لسه تعبانة وخبزت فطير، صحيح أنت مش طبيعية.

ردت «رئيفة» وهي تضحك قائلة:

- وإحنا لو مخدمنكيش إلومين دول وأخدنا بالنا منك مين هيرعاك يا ست الكل، كلي بالهناء والشفاء .

ابتسمت «رفقة» لتقطع قطعة من الفطير طالبة من صديقاتها مشاركتها اللاتي لم يتأخرن تحت إغراء رائحة الفطير الشهية.

دخل إلى السبوع «مراد» مسببًا حضوره المفاجئ مرتكنًا على عكازه اهتمام الجميع حتي أنَّ «منير» استأذن من الجمع ذاهبًا ليسند ابن عمه حتي قال له باهتمام بالغ:

- أيه اللي تعبك وجابك يا مراد، كنت جيت على التناصير.

نظر «مراد» إلى «منير» بعتاب قائلًا:

- يبقي بنت أخويا ومجيش أشوفها، عيب أوي يا منير، فين أم ماري.

ذهب «مراد» و«منير» يحاول مساعدته حتي وصلا إلى «أم ماري» مصافحًا إياها محنئًا ثم ألقي التحية على الجميع بمن فيهم «تحية» التي أبدت اهتمامًا شديدًا به حتي أنَّه عندما أخذ جانبًا ليستريح قررت أنْ ترافقه في مجلسه مما لفت انتباه «غاصب» والمأمور أيضًا وبعض صديقات رفقة اللاتي لم يمر الأمر عليهم مرور الكرام فقالت «مفيدة»:

- أنتم شايفين اهتمام تحية بمراد، زيادة عن اللزوم شوية.

قاطعتها «رفقة» مبددة كل تلك الشكوك والظنون قائلة:

- لا، عادي، ومتنسيش إنَّه لولا وجودة في العربية معاها بالصدفة كان الله

يرحمها ويحسن إليها.

نظرت «شريفة» إلى الخاتم الخاص بها في أصبعها قائلة:

- بس ربنا يستر والعلاقة متكبرش عن كدة.

تمعنت «رفقة» باهتمام غير متفهمة مقصدها سائلة إياها عن تخوفها من «تحية»، لتبتسم «شريفة» قائلة:

- دي أرملة يا رفقة هانم أنت ناسية.

حاولت «رفقة» رسم ابتسامة على وجهها، لكنها لم تستطع بسبب ما فرضته «شريفة» من منطقها الذي يعتبر بالنسبه لها أسلوب حياة؛ «فشريفة» من نوعية النساء التي تفكر بعقلها لا بقلبها ومن مبادئها أنَّ الأرملة لن يتفاعل معها سوى الأرمل والمطلقة لن ينفعها سوى المطلق ولكل بنت بكر رجل شاب بكر أيضًا يذوق طعم البكورية، لذا فهي تستبعد قيام علاقة بين «تحية» ومراد بل وتستنكر تلك النوعية من العلاقات إذا وجدت وعليه لم ترد «رفقة» المزايدة في هذا النقاش لأنها تعلم أنَّ آخره طريق مسدود، بينما «إسعاد» قالت:

- بس الشهادة لله تحية ما قصرت كانت تقريبًا كل يوم بتزوره في البيت لغاية لما استرد عافيته.

أما «مفيدة» فوضعت كوب العصير لتسأل عن ميعاد التناصير متي؟

ذهب عقل «غاصب» إلى أنَّ كل هذا الهراء لابد وأنْ ينتهي قريبًا جدًا فقلبه من الداخل يحترق مشتعلًا من الغيظ مما يراه الآن ليقع بصره بهو القصر على صورة الباشا «خياط» بجانب ابنيه ليتأمل صورة أبيه الشاب الذي دبت الحياة فيه فجأة متذكرًا ما قاله له يومًا قبيل موته وهما جالسان بمنزلهما:

وفيق: اسمع يا غاصب يا ابني، لازم عائلة دوس من بعدي متشوفش يوم حلو.

نظر إليه «غاصب» بتمعن مستفسرًا عن كيفية حدوث هذا من والدة. الذي أفهمه بدقة ما سيفعله من حرق لأراضيهم، مرورًا بقتل بهائمهم وإنْ استطعت اهدم القصر على رأسهم، لاعنًا إليوم الذي ذهب منه كل هذا العز رامين له الفتات كالكلاب.

رد عليه «غاصب» قائلًا بحدية:

- طب مينفعش نرجع حقنا منهم.

- خلاص اللي راح راح يا ابني، لكن اللي جاي لازم يبقي بتاعك أنت وأخوك، اعمل كل ما في وسعك علشان ترجع كل حاجة، عائلة دوس لازم ميكونش ليها وريث، ميكونش ليها وريث.

رنت كلمات «وفيق» في أذن ابنه الذي رجع إلى حاضره واجدًا سيادة المأمور واقفًا أمامه مشعلًا سيجارة منفثًا دخانها في الهواء قائلًا:

- أيه اللي واخد بالك مننا يا غاصب أفندي.

نظر إله «غاصب» بغيظ قائلًا:

- بكرة أبقي غاصب بيه وهتشوف.

ابتسم المأمور باستهجان واضح قائلًا:

- بكرة، بقالنا سنين بنسمع الكلام دة، بس أنا عندي إحساس إنك طيب وتستاهل تكون بيه.

ظهرت على ملامح «غاصب» ملامح سخرية قائلًا:

- آه، أنا طيب وأستاهل كل خير وأنت أمير وتستأهل تكون باشا.

ضحك المأمور من قلبه مقهقهًا قائلًا:

- محدش يعرف يهزر معاك، بس تعال قل لي، أنت مش شايف أخوك قاعد مع مين.

- شايف، وماله أصحاب.

أومأ المأمور برأسه موافقًا على كلام «غاصب» قائلًا:

- آه أصحاب وماله.

نظر «غاصب» متابعًا أخيه و»تحية» اللذان كانا منسجمين جدًا في الحديث حيث سألته باهتمام قائلة:

- طب والدكتور مقالكش هتفك الحبس إمتي.

- بعد أسبوعين، الصراحة أنت تَعَبْتِ نفسك معايا جدًا الفترة اللي فاتت، أنا متشكر جدًا.

- يا خبر أما أنت بتشكرني، أُمَّالْ أنا أقولك أيه، أنا لو على أقعد جنبك العمر كله.

شعر «مراد» بالخجل من حديث تحية لتتورد وجنتاه فهو أمام هذا النوع من الحديث لا يعرف بماذا يجيب و«تحية» قد ألقت شباكها عليه؛ لأسباب كثيرة مستغلة ما حدث بينهما وحالته المرضية فهي في نفسها الآن مشاعر كثيرة متضاربة، ففي البداية شعرت أنها لحظة مناسبة للتقرب إلى عائلة «غاصب» والخوض بداخلها والتقرب من أخيه وأمه للضغط عليه للزواج بها، أما هو فلم يعرها اهتمامًا. وفي الوقت ذاته مع كثرة الضغط بدأت تشعر بميل تجاه «مراد» ذاك الشاب الأبيض القلب، الصافي العقل، النقي السريرة، كل ذلك وأكثر قد اكتشفته في «مراد» لتبدأ تشعر بمشاعر مختلفة كلما جلست لتتحادث معه في زيارتها، إنها تشعر بأنها ليست من أهل القرية بل العالم أجمعه حينما تجلس تستمع إلى صوته العذب محمومًا عليها وحدتها القاتلة كاسرًا عزلتها خالقًا بداخلها أملًا في الغد، وأنَّ العالم لم ينته عند موت زوجها حتي وإن كان قد سَبَّبَ لها عقدة نفسية من طريقة معاملته الفظة لها؛ ففارق السن بينهما كان شاسعًا مما خلق هوة عظيمة في العلاقة بينهما فهو من جيل وهي من جيل آخر. أما عن نفسها فلم تحدثه عن ما كان يغصبها عليه زوجها مكتفية بأنْ يكون ذلك سرها الدفين حتي موتها، والذي بدأ «غاصب» في إحيائه من كثرة ترددة مع المأمور على منزلها وإرغامها على ملاطفته ومسايرته، والله يعلم إلى أين ستنتهي تلك المعاملة البذيئة والسخيفة من وجهة نظرها وفي النهاية هي تشعر مع «غاصب» أنها ما إلا وسيلة لمتعته. أما مع «مراد» فتشعر بأنها إنسانه من لحم ودم وروح سامية في هذا العالم، لذا تركت مشاعرها الجديدة تقودتا إلى حيث لا تعلم. ولم تعلم أنَّ هناك من يراقبها.

-١٦-

- يراقبها ويراقب أبوها كمان، إحنا مش عايزين مشاكل.

هكذا قال «متوشالح» أفندي موجهًا حديثه إلى «غاصب» في وجود « مستر بلاك» عند لقائهم بقاعة الاجتماع الملحقة بالمبني الخاص بالطائفة ليرد «غاصب» على «متوشالح» قائلًا:

- هي بتعمل أيه لكل دة؟ دي ست مجنونة أصلًا.

رد مستر »بلاك» بلغة عربية مكسرة نوعًا ما:

- مينفعش تستني قدام باب كنيستنا وتشتم الناس اللي طالعة من جوه وتقول عليهم إنهم مش مسيحيين.

رد «غاصب» وهو يحك ذقنه متسائلًا:

- أمَّال يبقوا أيه؟

وجد تجهم على وجه «متوشالح» الذي قال بانفعال:

- أكيد مسيحيين يا أستاذ غاصب وغصبًا عنها، هي الست دي مِلِّتُها أيه؟

لم يعرف «غاصب» بماذا يرد في البداية، لكنه قال متذبذبًا:

والله مش عارف، إحنا من ساعة لما طلعنا على الدنيا دي وهي اسمها المربوطة، منعرفش ليها ملة، في عيد المسيحيين بتعيد وفي عيد المسلمين بتعيد بَرْضُه.

قال «بلاك» بلغته إنجليزية صارمة:

- مثل تلك النوعية من البشر لا بد وأنْ تنقرض من العالم فهم سبب تخلف وجهل لمن حولها، ألا زلتم تظنون أنَّ هناك شياطين يمكن أنْ تتحكم في أبناء آدم .

ابتسم «غاصب» بسخرية قائلًا بالإنجليزية :

- أنا أتفق معك في تلك النقطة، فالشيطان يتعلم من الإنسان الآن.

ابتسم «بلاك» من منطق «غاصب» الذي جاء موافقًا لمزاجه تمامًا لينتهي الحوار بينهما على أنْ يبذل «غاصب» ما في وسعه للتخلص من تلك «المربوطة» نهائيًا بأي شكل كان.

أخذت «رفقة» كل من «شريفة» و»رئيفة» معها في تلك الجولة البعيدة نوعًا ما مفضلةً أنْ تسوق هي العربة بنفسها و»شريفة» تتحايل عليها لكي تعرف إلى أين يتجهن، فهن منذ أكثر من ساعة يسيرن بالعربة حتي قارن على الوصول إلى مشارف القرية حيث الخلاء و»رفقة» لا تريد أنْ تفصح عن وجهتها حتي وصلن إلى مكان خَرِبٌ خالٍ من ملامح الحياة تمامًا وتوقفت العربة حيث ترجلت «رفقة» و»شريفة» التي خافت أنْ تنزل من العربة قائلة:

- أنت اتجننتي رسمي يا رفقة، أيه المكان دة وأيه اللي نزلك، مش خايفة لَحَدْ من رجَّالة الجبل يهجم علينا ويسرقنا ويموتنا.

ضحكت «رفقة» طالبة من «رئيفة» النزول وهي تقول:

- متخافيش يا شريفة، عملت حسابي، افتحي التابلوه.

فتحت «شريفة « تابلوه العربة لتجد مسدس إنجليزي من نوعية الساقية فاستراحت نفسيًا قائلة والمسدس بيدتا:

- كدة طمئنتي قلبي، الواحدة تنزل وهي مطمئنة.

ارتبكت «رئيفة» عند رؤية السلاح بينما هدأت من روعها «رفقة» على عكس «شريفة» التي ظل المسدس بيدتا تحسبًا لأي شر يحدث ليس في الحسبان في تلك

المنطقة المهجورة.

نظرت «شريفة» يمينًا ويسارًا لا تدري ما سيحدث ولما أتت «رفقة» بهم إلى هنا؟ سألتها وقد ظهر عليها القلق قائلة:

- وبعدين يا رفقة، أنا ابتديت أقلق.

حاولت «رفقة» طمأنة الجميع قائلة:

- الصبر طيب اطمئني.

صفقت «رفقة» بيدها ثلاث مرات بطريقة معينة وكأنها شفرة ما لتخرج عليهن «المربوطة» فما من «شريفة» إلا أن رفعت المسدس في وجهها ملوحة به قائلة بتوتر زائد وواضح:

- ابعدي يا ست أنت عننا، أوعي تقربي هاضربك بالنار.

ابتسمت «المربوطة» بينما تحركت «رفقة» ناحية شريفة الممسكة بالمسدس خافضة إياه قائلة بثقة:

- اهدئ يا شريفة هانم، أحب أعرّفك المربوطة صديقتي.

أَنزَلَتْ» شريفة» المسدس و هي لا تكاد تصدق أذنيها مما سمعته من «رفقة» الآن أما «رئيفة» فقد رجعت بضع خطوات إلى الوراء نوعًا ما مسيطرًا عليها الخوف والذهول الرهيب، إنها أول مرة تكتشف أنَّ الهانم الصغيرة على صلة «بالمربوطة» من قريب هكذا، اقتربت «رفقة» أكثر وأكثر من «المربوطة» التي ابتسمت لها قائلة في ود:

- إزيك يا أم الصبية.

ارتسمت على شفتي «رفقة» ابتسامة هادئة ومن ثم تحولت إلى من معها قائلة في سرور:

- أحب أعرفكم إنها أول واحدة قالتلي إني هابقي أم الصبية.

نظرت «شريفة» بذهول إلى «رفقة» التي لم تتوانَ في أن تطلب من «رئيفة» بإحضار الأطعمة الشهية والفطير المشلتت المعد من قبل وموضوع بعناية داخل المشنة

واضعة إياه أمام «المربوطة» وبعدتا أخرجت «رفقة» من شنطتها نقود واضعة إياها في يد «المربوطة» قائلة لها في حبور وصفاء نفسي:

- ودي حلاوة ماري، إحنا سمينا الصبية ماري.

ابتسمت «المربوطة» وبدأت تصفق وهي تزغرد بصوت عالٍ قائلة:

- مبروك يا أم ماري، مبروك.

أخذت «المربوطة» مشنة الطعام لتسير في طريقها مختفية وراء المرتفع الذي أمام الجميع ولم يسمعن منها سوى صوتها حتي غابت عن نظرهن تمامًا وانقطع الصوت فنظرت «رفقة» إليهما وعيناها قد ظهر بهما لمعة خفيفة قائلة:

- نعرف بعض من مدة.

حاولت «شريفة» في طريق العودة أنْ تعرف أكثر وأكثر عن علاقة «رفقة» «بالمربوطة» فشغف النساء يفوق الحدود ومع إلحاح منها وضغط، سردت لها «رفقة» أنَّ علاقتها مع تلك السيدة الغريبة جاءت بالصدفة، فهي كانت يومًا ما مصابة باكتئاب وحزن شديد متجولة بجوادتا حتي رأت المربوطة مقتربة منها سائلةً إياها عن حالها وحال زوجها داعية لها بالرزق والنسل الصالح ذاكرة أنَّ الله سيرزقني بطفلة داعية إياي من وقتها باسم أم الصبية. نظرت «شريفة» بذهول إلى «رفقة» متعجبة من بساطتها في سرد القصة متسائلة عن إيمان تلك «المربوطة»، فهل هي تؤمن بالله؟ انتهرتها «رفقة» قائلة:

- يا شريفة أنت بتسمعي لكلام أهل البلد اللي أغلبهم جهلة ويقولوا لابسها شياطين ومربوطة من السفلين، دة هبل وخبل يا شريفة، أنت شفتي دي ست طيبة وتستحق المساعدة.

فضلت «شريفة» أنْ لا تسأل بخصوص «المربوطة» مرة أخري لتسأل عن شيء آخر ألا وهو هل «منير «على علم بمثل تلك العلاقة؟ فردت «رفقة» بثقة نافية، فمن غير المستحب أن يعرف بالمرة.

عاد كل واحدة منهن إلى وجهتها. رجعت «رئيفة» إلى ابنتها وبيتها لتجد زوجها يداعب

ابنته فسردت له ما حدث إلىوم مع سيدتها فابتسم «جعود» مما سمع ليزيل كل الشكوك والظنون من عقل زوجته البسيطة ساردًا لها ما حدث معه من مدة قبل حملها فأيقنت «رئيفة» في ذلك الوقت أنَّ تلك «المربوطة» بها قوة خفية تجعلها تعرف ما سيحدث قبل أنْ يحدث فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم بينما ظل «جعود» مبتسمًا قائلًا لزوجته:

- على فكرة بكرة تناصير بنت منير بيه وكلنا هنروح الكنيسة معاهم وبعد كدة البيه عامل قعدة فة جنينة القصر للبهوات والبشوات.

نظرت إليه «رئيفة» بتمعن قائلة:

- جبت التأيهة يا راجل، ما أنا عارفة وخبزت فطير يكفي البلد كلها اللي المربوطة بتآكل منه دلوقتي، ارحمنا يا رب، ربنا يجعل كلامنا خفيف عليها.

أشْعَلَ «جعود «سيجارة قد سبق ولفها من قبل مدخنًا إياها خارج الدار ليجد أخاه قادمًا مع «الجنبلاطي» اللذان ما أنْ اقتربا من الدار حتي سار «الجنبلاطي» في طريقه محييًا «جعود» من بعيد، بينما اقترب «السنباطي» منه محييًا إياه فاتحًا الزير آخذًا قليلًا من الماء بالكوز شاربًا ثم سكب بعض الماء على وجهه مشعلًا سيجارة ليجد أخاه يقول له بتعجب:

- وبعدين يا ابن أمي وأبويا، ربنا مش هيتوب علك وتيجي تشتغل معايا عند منير بيه وتشيل الأفكار النجسة دي من عقلك.

نفث «السنباطي» دخان سيجارته في الهواء متمزجًا قائلًا:

- الشغل عند منير بيه بتاعك ميلزمنيش، وسبق وقلتلك مبشتغلش عند نصاري.

أمسكه «جعود» من تلابيب جلبابه في عصبية:

- قلتلك ألف مرة مَبَجِبّْش أسمع كلمة نصاري دي، وقسمًا عظمًا يا سنباطي لو مخرجتش الفكر الوسخ دة من دماغك، يبقي أنا من سكة وأنت من سكة.

ابتسم «السنباطي» بسخرية مما جعل السيجارة تسقط من فمه ليبعد يد أخيه عن جلبابه برفق قائلًا:

- اهدأ يا أخويا، أنا كنت هاسيب الدار وأشوف سكن تاني وأخد أمي معايا.
- يكون في علمك أمك مش هتسيب بيتها، اللي هي دار أبوك.
- خلاص يبقي بشوقها يا سيد الناس بالإذن.

ابتعد «السنباطي» مشعلًا سيجارةً أخري وجعود يتابعه بنظره وهو لا يعلم أي داهية الذي وضع مثل هذا التفكير العقيم داخل عقل أخيه ليشك في ذلك «الجنبلاطي» ذي اللحية الطويلة الذي يتخذ من جامع القرية شبه مجلسٍ له و حوله نفرٌ قليلٌ من أصحاب اللحي الطويلة أيضًا. وهو يتذكر جيدًا عندما دعاه يومًا أخوه بعد صلاة الجمعة للجلوس مع تلك الطائفة والاستماع إليهم، فلم يكن حديث ذلك «الجنبلاطي» سوى الدعاء بالخراب على أولي الأمر حكام البلاد وعلى رأسهم الملك والمسئولين الكفرة الزناداقة والويل كل الويل من عذاب القبر، وللنجاة منه يجب على كل المسلمين الشرفاء الانضمام لجماعتهم، جماعة الإخوان المسلمين التي هي مرساة النجاة وبر الأمان للجميع على أنْ يتبع كل أقوالهم وطلباتهم وبالطبع واحدة منها البعد عن الكفرة الذين قالوا إنا يهود أو نصاري، فالبعد عنهم غنيمة وأموالهم ونسائهم حلال. وعند هذا الحد لم يستطع «جعود» الجلوس والاستماع أكثر من ذلك بل قام منتفضًا تاركًا الجمع المريض هذا واصفًا إياهمْ بأنَّهم مرضي بعقولهم وعليه أنْ ينصح أخاه بالابتعاد، لكن «السنباطي» وجد ضالته في تلك الجماعة غير الشاقة له بالمرة فهم لا يكلفونه بأشياء عسيرة أبدًا مقابل دعم مادي مناسب جدًا لحالته، واعدين إياه بالزواج في أقرب فرصة وتوفير دار مناسبه له. لذا فماذا يحتاج أكثر من هذا فقد ضمن جميع المزايا الأرضية والجنة في الآخرة وكل ما عليه هو السمع والطاعة في سبيل الجماعة التي لا تهدف سوى لطاعة الله عز وجل وتنفيذ وصاياه بطريقتهم وتفكيرهم البعيد تمام البعد عن النهج الصحيح لأهل البلد الشرفاء ولا يعلم أحد إلى أين سينتهي المطاف.

- المطاف دة لازم يكون له نهاية، أنا مش قادر استحمل.

قال «غاصب» تلك الكلمات إلى المأمور الذي ظل يحتسي الخمر و«تحية» جالسة معهما ولم يكن مكان لقائهم سوى بمنزلها.

قال «فكري» باستهزاء والخمر قد لعبت برأسه:

- بس أيه حكاية تحية هانم ومراد أفندي.

نظر «غاصب» بتمعن إلى «فكري» أولًا ومن ثم نقل بصرة إلى «تحية» التي بدا على وجهها الانزعاج من ذلك السؤال المريب قائلة:

- إنسان كويس وكفاية إن لولاه كان زمانكم دلوقتي مش لاقيين مكان تقعدوا فيه ولا أيه يا غاصب بيه.

لم يتفوه «غاصب» بأي كلمة واحدة ليكمل المأمور حديثه مستطرقًا:

- بيه، غاصب بقي بيه، يبقي أشتغل أنا رقاصة أحسن.

قهقه ضاحكًا بصوت عالٍ من مزحته السخيفة في نظر كل من «غاصب» و«تحية» ثم قام من مجلسه محييًا الجميع قائلًا:

- لازم أمشي بدري الليلة علشان بكرة تناصير ماري بنت منير بيه، عقبالكم.

رحل المأمور وقدماه تحملانه بالكاد تاركًا كل من «تحية «و«غاصب» بمفردهما نَاظرَيْن إلى بعضهما البعض في صمت حتي صمت هي على أن تقطع صمتها قائلة:

- كل دة لازم ينتهي، أنا زهقت.

صب «غاصب» كأسًا من الخمر محتسيًا إياه على محل مشعلًا سيجارة له غير عابئ بما تقوله، بل نظر إلى الكأسِ الخاص به في صمت رهيب مما دفعها إلى العصبية والجنون قائلة:

- أنت أيه مزهقتش من العيشة دي، أنا زهقت وعايزة أستقر، أنت فاهم، أنت شكلك مش هتتجوزني، أنت نسخة طبق الأصل من جوزي القديم، أنتم الاثنين وحوش، مستغلين وأنا مش هاسمح إني أبقي ضحية تاني، اسمع يا غاصب اللي بينا انتهي

وإوعي تيجي هنا تاني أو تجيب المأمور أنت فاهم، اتفضل خلص كأسك وامشِ وإوعي ترجع أنت فاهم.

ترك «غاصب» كأس الخمر تاركًا «تحية « بمفردها خارجًا من المنزل وما أن وصل إلى الباب الخارجي حتي ألقي السيجارة على السجادة داهسًا إياها بقدمه فاتحًا الباب خارجًا وورائه «تحية» تلقي بكأس الخمر على الباب، بل والزجاجة وبقية الكئوس الأخري باكية بجنون.

سار «غاصب» بمفردة سائرًا على طريق الترعة مصممًا أن ينهي كل هذا مرة واحدة على يدة هو. يجب أن يعود حقه وحق أبيه على يدة هو، يجب أن يخاف منه الجميع حاسبين له ألف حساب، يجب أن يكمل المشوار إلى آخره. وصل «غاصب» إلى منزله آخذًا جوادة صاعدًا إلى الجبل مرة أخري ليصفي بعض الحسابات.

- حسابات أيه يا راجل، سيبها على الله، اللي أنت عايزه أنا هاعمله ليك يا منير يا أخويا، ألف مبروك تناصير ماري.

هكذا قال «حسنين» «لمنير» بالكنيسة بعد أن حضرا تناصير «ماري» ليقوم «حسنين» بتوزيع بعض الهدايا والشيكولاته على الحاضرين مما جعل «منير» يريد أن يرد له الجميل بدفع قيمة تلك الهدايا ليبدي «حسنين» استيائه «فماري» مثل أولادة «حامد «و»حمدي». اقترب «جعود» من الكاهن «أغابيوس» سائلًا:

- يعني أيه تناصير يا أبونا ؟

ابتسم القس «أغابيوس» من سؤال «جعود» قائلًا له محاولًا تبسيط الأمور لذلك الفلاح البسيط:

- بنصلي للطفل علشان ربنا يحفظه من الشياطين وكل سوء يا جعود يا ابني.

أخذ «جعود» «رئيفة» وابنته «قمر» التي على يدة قائلًا للكاهن بوجه بشوش:

- طب ما تصلي وتدعي لقمر كمان يا أبونا علشان ربنا يباركها.

ابتسم القس من منطق «جعود» البسيط قائلًا له في حبور روحاني:

- ربنا يباركها لك ويحفظها لك من كل شر ويخليك ليها يا ابني.

ارتاحت نفس «جعود» معتبرًا بركة الكاهن كافية لإبعاد الشياطين عن ابنته العمر كله.

عاد الجميع إلى القصر ليبدأوا حفلهم البسيط الذي أقامه «منير» في حديقة القصر. ومر إلوم بسلام تام وانسجام متناغم رائع وما أنْ حل الليل حتي نشبت نيران ناحية مخازن القطن المملوكة «لمنير» فما من «جعود» إلا أنْ هب بإبلاغ «منير» بيه الذي أعطي أوامره للرجال بسرعة التحرك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. انحني على «رفقة «مقبلًا إياها وهي تغط في سبات عميق بجانب ابنتها التي بين أحضانها بينما استيقظت «روجينا» لتطمئن على ابنها الذي خرج على رأس رجاله لإطفاء النيران قبل أنْ تجهز على ما يوجد من قطن بالمخازن ولا تعلم «روجينا» لما انقبض قلبها فجأة فذهبت جالسة أمام صورة السيدة العذراء ناظرةً إليها طالبةً منها أنْ تمر تلك الليلة على خير.

وصل «منير « و»جعود» والرجال إلى المخازن التي اشتعلت فيها النار عن بكرة أبيها ملتهمة كل شيء أمامها، فحمل الجميع كل ما يمكن ملأه بالماء ومن لم يستطع بدأ يأخذ ترابًا مميلًا إياه على النار. و»جعود» بجانب «منير» يساعدان في إطفاء النيران وفجأة التفت «جعود» ورائه ليأتي بماء أكثر فوقعت عيناه على شخص مصوبًا مسدسًا من بعيد فصرخ قائلًا:

- منير بيه.

استقرت رصاصة برأس «جعود» ليلتفت «منير» على إثرها ناظرًا لما صرخ «جعود» فلم يكد يلتف حتي استقرت رصاصة في رأسه هو أيضًا وسقط الاثنان بجانب بعضهما لا حراك أو نفس أو كلمة. وقع كلًا منهما وعيناه مثبتتان إلى السماء الواسعة وألسنة النيران تشتعل مضيئة تلك السماء الكالحة الظلام مضيئة إياها بنيران الشر الجميل لدى البعض والكريه لدى البعض الآخر. لقد انطفأت شعلة الحياة داخل كل من «جعود» و»منير» إلى الأبد مسكتة إياهما بنيران الغدر والخسة والنذالة بينما

على طرفٍ آخر شخصٌ حمل مسدسه راجعًا من حيث لا يدري أحدٌ، راجعًا إلى كهف الشر محتميًا به هاربًا من وجه العدالة السمائية، معتقدًا بل ومتأكدًا أنَّ أحدًا لم يره وهو يرتكب جريمته البشعة، لم يره أحدٌ وتلك حقيقة لا جِدالَ فيها، لم يره أحدٌ على وجه الأرض.

استطاع رجال «منير» إخماد النيران والسيطرة عليها بعد فترة من الوقت ليبحثوا حولهم عن «منير» بيه و»جعود» حتي وجدوا جثتين مسجيتين على الأرض فانطلقت صرخات وآهات الحزن والرعب متسائلين عمن يستطيع أنْ يفعل هذا بأي حال من الأحوال؟ وتحول ليل قرية الطين إلى طين ملطخ بالدماء الطاهرة البريئة ليصل الخبر إلى «روجينا» هانم التي نظرت إلى صورة العذراء بعتاب شديد جدًا. والخدم في طريقهم لإيقاظ «رفقة» انتهرتهم روجينا متبعة مبدأ أنَّ للصباح عيون فلا داعي لأنْ يوقظوا الطفلة الرضيعة في حضن أمها.

خرج الصباح بلونٍ غير اعتيادي في ذلك إلسوم لتنطلق الصرخات من نواحي عديدة وحزن المصريين العظيم الشأن وبالذات إذا رحل الشبان تاركين الشيوخ والأرامل والأيتام من ورائهم يندبون عليهم حافرين الأحزان داخل قلوبهم.

انقلب حال قرية الطين ليصبح الطين فوق رؤوس الجميع وخيم اللون الأسود على الأجساد فالمصيبة مفجعة والدماء غالية من كلا الطرفين، لم يصدق «حسنين» نفسه في البداية عندما وصله الخبر فذهب مسرعًا إلى قصر «خياط» باشا ليجد «روجينا» جالسة في البهو متشحة بالسواد وجميع الخدم على أهبة الاستعداد لاستقبال القادمين وكلهم بلا استثناء وعلى رأسهم» لبيب» دموعهم على وجوههم ظاهرةً للعيان وصوت نحيب قادم من الدور العلوي حيث بكاء «رفقة» المستلقية في حضن أمها تبكي بدل الدموع دماء ومن حولها صديقاتها اللائي علمن الخبر باكرًا توافدن الواحدة تلو الأخري.

قَدَّمَ «حسنين» التعازي إلى «روجينا «هانم مستفسرًا عن كيفية حدوث تلك الجريمة البشعة التي لم تحدث من قبل بالقرية فروت «روجينا» له ما تعرفه كما روي لها

شهود العيان من رجال «منير» الذين ذهبوا معه لإطفاء الحريق، وأنَّ العمدة في طريقه إلى المديرية لطلب الإمدادات الأمنية للبحث عن القاتل.

أما المأمور فقد فرض كردون أمني على موقع الجريمة وتم نقل الجثث إلى المشرحة.

استمع «حسنين» بصمتٍ لكل كلمة قالتها «روجينا» بعنايةٍ شديدةٍ ثم أخرج علبة السجائر الخاصة مشعلًا سيجارة منفثًا دخانها في الهواء راشفًا من فنجان القهوة السادة قائلًا:

- متقلقيش يا هانم، أنا هاعمل كل ما في وسعي إني أعرف اللي عمل كدة وتأكدي إني مش هاسمح لجثة منير ....

توقف قليلًا عن الحديث لتتحشرج الكلمات في فمه حيث صعب عليه الأمر أنْ يذكر لقب جثة على صديق عمره وأخيه «منير» لذا تمالك نفسه وقد لمعت عيناه مكملًا حديثه:

- المرحوم لازم يستريح في قبره ومش هاسمح إنْ حد يهدله أبدًا.

دخلت «جانيت» متشحة بالسواد مع ابنها «غاصب» يتبعهم «مراد» متكئًا على عكازه الخشبي وهو لا يصدق ما حدث. نظر الجميع إلهم باستغراب شديد وبالذات «روجينا» حيث اقتربت منها «جانيت» متشحة بالسواد وهي تنحني لتقبلها قائلة:

- الله يرحمه مات بدري.

نظرت «روجينا» بتمعن شديد إلى «جانيت» ولم تنطق بكلمة واحدة بينما تقدم بعدها «غاصب» مصطنعًا الحزن الشديد قائلًا:

- البقية في حياتك يا مرأة عمي، وحياتك لازم نعرف مين الكلب اللي عمل كدة.

أما «مراد» فلم يتمالك نفسه بل انهمرت دموعه وهو يقبل امرأة عمه مما جعل أعصابها تهتز مبادلةً إياه البكاء.

اضطر «حسنين» أنْ يستاذن ومعه نفرٌ من البهوات لإنهاء تصاريح الدفن وتخليص الجثة من المشرحة في أقرب وقت ممكن وكانت نتيجة الفحص هي وفاة «منير بيه

دوس الخياط» بطلق ناري في الرأس مما أدي إلى الوفاة مباشرةً وعليه تم تخريج جثة القتيل والأمر بدفنها واستخراج التصاريح اللازمة على أنْ يستكمل التحقيق. قام «حسنين» ومعه «مندور» و«أوطة» بالاتصال بالسرايا الملكي بالقاهرة بعابدين للاهتمام بالأمر؛ تحسبًا لأي هجمات أخري تستهدف الطبقة الراقية في قريتهم من بهوات وبشوات لا سيما وأنَّ «منير» لم يكن له أعداء بالمرة، لذا يمكن أنْ يكون للجريمة أبعاد شبهة عنصرية بين الفقراء الجرابيع والأغنياء إذا تكررت مرة أخري مع أحدهم. من أجل هذا استصدرت السرايا الملكية تعلماتها بإدخال رجال خبراء مصلحة البحث الجنائي لمباشرة التحقيقات بتلك القضية والتوصل إلى نتيجه إيجابية. وتحدد ميعاد جنازة «منير» بيه لتقوم العائلة بإبلاغ الجميع. وعلى الجانب الآخر بيت «جعود» الذي التهبت فيه المشاعر المتأججة بالحزن الشديد والهم العظيم الذي يصيب أهالي الفلاحين عند فقدهم العزيز والغالي فافترشت النساء النادبات الأرض واضعة الرمال على رؤوسهن صارخة بصوت عظيم نائحة باكية قائلة:

- مين هينور بيتك من بعدك يا غالي.
- سبتنا لمين يا حبيبنا.
- اتخرب البيت من بعدك يا أخويا.

وهكذا كلامٌ كثير يجعل النفوس تئن والدموع تنهمر بغزارة من الكبير والصغير، رجال وسيدات حتي الأطفال انزعجت أرواحهم البريئة، جلست النساء جميعهن داخل الدار مولولات باكيات نائحات وعلى رأسهن أم «جعود» أما حال زوجته «رئيفة» فلا يقل شأنًا عنهن بل أقوي منهن في الحزن فقد خلعت غطاء رأسها وأهالت التراب على شعرها قائلة:

- يا خراب بيتك يا رئيفة، يا خراب بيتك، هتفوتي لمين يا غالي يا حبيبي.

بكاؤها يدمي القلوب لأن المصيبةَ كبيرة ولا يُسْتَهانُ بها أبدًا والأكثر من هذا أنَّه قتيل.

- أخويا اتقتل يا شيخ جنبلاطي، لازم أعرف مين اللي قتله، ورحمة أخويا لازم أقتله.

وجه «السنباطي» حديثه إلى «الجنبلاطي» الذي جلس بجانبه مستقبلًا العزاء من جميع الأهل والأقارب وأهالي القرية الذين حضروا من جميع أقاصي الصعيد للمشاركة في الجنازة وتقديم التعازي. وعليه فقد حضر الجميع الجنازة الحارة التي اتسمت بالحزن العميق لرحيل الشاب رجل البيت وتركه زوجته وابنته بيد الرحمن. لم يوافق «السنباطي» على تشريح جثمان أخيه مقنعًا نفسه بأنَّ أخيه مات وانتهي وليس من الداعي كشف الحرمات لمعرفة كيف مات؟ لذا اكتفي بتصريح الدفن ليواري أخيه التراب متقبلًا العزاء مؤقتًا حتي يأخذ بثأر أخيه ولم يجد خيرًا من الشيخ» الجنبلاطي» الجالس بجانبه في العزاء وما كان من الأخير إلا أنْ امتص غضب» السنباطي» قائلًا وقد اكتسي وجهه بالجدية والحزم الشديدين:

- اهدأ باللهِ عليك يا أخ سنباطي وكل شيء بأوانه إن شاء الله.

قال «السنباطي» بعصبية شديدة جعلت السيجارة التي بيدة تسقط مشتعلة:

- أهدأ إزاي يا مولانا، أنا قايد نار من جوه.

- لست أنت بمفردك فرغم اختلافنا مع الأخ جعود رحمة الله عليه إلا أنَّه قُتِلَ مع نصراني لتختلط دمائه بدماء الكافر وهذا ما يضايقني، لكن عشمنا في الله أنْ يتفقدة برحمته لأنَّك أخوه وقد قبلت الهداية.

- يعني أفهم من كدة إنك مش هتساعدني أنتقم.

نظر «الجنبلاطي» إلى «السنباطي» وعيناه تكاد تقذفان لهبًا مقنعًا إياه بأنَّ وقت الثأر لم يأت بعد فهم لا بد وأنْ يعرفوا بالضبط من وراء تلك الحادثة ولما فعلها حتي لا يقتلوا نفسًا بلا ذنب؛ لذا فإنه من المناسب الانتظار حتي انتهاء تحريات البوليس في مقتل «منير» لمعرفة الحقيقة وإذا لم يفلحوا في معرفة الجاني، عندئذ فقط سيستخدم «الجنبلاطي» طرقه الكثيرة المتشعبة لمعرفة الجاني، سمع «السنباطي» هذا الكلام ليهدأ نوعًا ما واثقًا أنَّ جماعته لن تتركه في هذه المحنة العصيبة.

تم إقامة الصلاة على «منير» بالكنيسة التابعة للقرية ليرأس الصلاة أسقف البلدة يعاونه في ذلك الكاهن «أغابيوس» وقد حضر صلاة الجنازة جميع كبار أهل القرية

والمأمور ولفيف من عائلات الصعيد الهامة، كعائلة «الكسان» وعائلة «الخناجري» وعائلة «الحيوان» وعائلة «قزمان» وعائلة «عتمان» و«الشايب « والكثير من أصدقاء المرحوم مسلمين ومسيحيين. واقفوا وقلوبهم تدمي على فراق أخيهم وصديقهم المرحوم» منير بيه دوس» وهكذا كتب على شاهد قبره حيث تم دفنه بمقابر العائلة بمدافن الأقباط الأرثوذكس بقرية الطين. وانتهي إلىوم بالعزاء الذي استمر لمدة ثلاثة أيام متتالية فالجميع يحضر تباعًا لتقديم واجب العزاء في الفقيد المرحوم وعزاء البهوات والبشوات يختلف عن عزاء أولاد القرية، فالأول منظم ومهندم ومن يقدم واجب التعازي يستقر فترة ثم يبرح مكانه للآخرين على أنْ يعود في إلىوم التالي ويمكن حسب رغبة بعض النساء أنْ يقيموا مع نساء عائلة المتوفي لمدة ثلاثة أيام أو أكثر حسب الحاجة. أما النوع الثاني فإنَّ الرجال والنساء يمتنعون عن الطعام لمدة الثلاثة أيام الأولي بعد الجنازة مكتفين بشرب الشاي أما السجائر فللرجال فقط وهذه عادات قرية الطين في الحزن الدفين.

جلست «روجينا « هانم بمفردةا بحجرة المكتب بعد أنْ انتهي العزاء تاركًا إياها الجميع ما عدا بعض صديقات «رفقة» اللاتي آثرن أنْ يقيمن معها لفترة من الوقت حتي يزيحن عنها ولو شكليًا القليل من الحزن الذي سيخيم على القصر إلى الأبد باعتقاد «روجينا» هانم التي اختلت بنفسها في صمت الليل بحجرة المكتب جالسة أمام صورةِ زوجها وابنها ناظرةً إليهما بشدة من كثرة البكاء الحارق الذي استمر ولن ينتهي، نظرت بعمق إلى الصورة ويداها متصلبتان على المسند الخشبي للكرسي الجالسة عليه مخاطبة نفسها:

- سبتوني ليه، سبتني ليه يا باشا وأخدت ابني مني ليه. ابنك لسه شاب يا باشا، أخدته ليه مني، هاعمل أنا أيه لوحدي، فاكر يوم ما وصيتني عليه يا باشا.

رجعت «روجينا» بالذاكرة إلى يوم وفاة الباشا وقبل أنْ يلفظ أنفاسه الأخيرة نظر إليها وهو في قمة الألم قائلًا:

- خلي بالك من ابننا يا روجينا، خلي بالك من اسم عائلة خياط.

عادت «روجينا» مرةً أخري وعيناها تدمع لتخرج سيجارًا من علبة ابنها الموضوعه على المكتب مشعلة إياها لتدخن ودموعها قد بللت السيجار لتطفئه فوضعته جانبًا مكملة حديثها إلى نفسها:

- طب أعمل أيه أنا؟ هاحافظ على اسم عائلة خياط إزاي، أنت حَمَّلْتني يا باشا أكثر من طاقتي جدًا، أنت سامعني، دة حرام.

استردت أنفاسها لتطلق صرخة مكتومة قائلة:

- دة حرام.

obeikandl.com

obeikandl.com

- دة حرام يا ولداه اللي حصل.

وجه «الزعتلي» حديثه إلى الأستاذ «القلعاوي» الذي ذهب لتأدية واجب العزاء بالكنيسة لصلاة الأربعين ترحمًا على ذكري انتقال «منير» بيه ليعود بعدها إلى القهوة والحزن يملأ نفسه قائلًا:

- أي نعم يا معلم، مصيبة مفجعة ومؤلمة، دة شكل الست حرمه رفقة هانم يصعب على الكافر، بقي الوش المورد اللي كان عامل زي البدر المنور اتسخط من الحزن، ربنا ينتقم منه اللي عمل كدة.

أطلق المعلم دخان الشيشة من فمه قائلًا:

- واللي يجنن أنَّ البوليس معرفش يمسك اللي قتل والمحضر قيد ضد مجهول وقضية أبو ناموسة لسه شغاله.

- خلاص يا معلم الزمن اتغير والخير قل والناس بقي قلبها قاسي، بقي دي قرية الطين اللي كان في يوم من الأيام أهلها يُضْرَب بيهم المثل في المحبة ويسألوا على بعض، هو أيه اللي حصل يا جدعان.

- معاك حق يا أستاذ، حاجة تحزن والمصحف.

دخل «فكري الركيب» مدخنًا سيجارته منفثًا دخانها قائلًا:

obeikandl.com

- هو أيه اللي يحزن يا معلم.

انتصب المعلم مصافحًا المأمور وهكذا فعل الأستاذ بينما جلس في الجهة المقابلة كلًا من «السنباطي» و«الجنبلاطي» ومعهم نفرٌ من الجماعة، ألقي عليهم المأمور نظرة سريعة خاطفة جالسًا ليأمر له المعلم بكوب الشاي المضبوط ليطفئ المأمور سيجارته مشعلًا أخري قائلًا في حدة:

- طبعًا الكفر كله دلوقتي ملهوش حديث غير إزاي إنّ القضية اتقفلت ضد مجهول، لكن أنا فكري الركيب مأمور قرية الطين ولازم أعرف مين المجهول.

علت ضحكة ساخرة من «الجنبلاطي» قائلًا:

- ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

نظر المأمور بغيظ شديد إلى «الجنبلاطي» موجهًا كلامه إلى المعلم قائلًا:

- وحياة أمك ليك يوم يا سفيه.

اغتاظ أحد الجالسين مع الجماعة فقام ليرد على المأمور إلا أنَّ «الجنبلاطي» أمسكه من ذراعه محدثًا إياه طالبًا منه الجلوس وعدم الاحتكاك بالمأمور فوقته لم يأت بعد.

أشعل المأمور سيجارة أخري عوضًا عن التي أنهاها قائلًا:

- هي القرية دي مالها، مش على بعضها ليه.

نظر إليه المعلم بتمعن قائلًا مرتشفًا جرعة شاي قائلًا:

- لسه يا باشا كنا بنحكي أنا والأستاذ في الموضوع دة.

دخل «كبس الهواء» واضعًا الشاي أمام المأمور قائلًا مشاركًا في الحديث:

- كله من بنت الكلب المربوطة، ربطت البلد.

انتبه أحد أنفار «الجنبلاطي» إلى سيرة «المربوطة» فصرح لمن معه بأن تلك المجنونة قد احتكت أكثر من مرة بأفراد الجماعة عند خروجهم من الجامع بعد صلاة العشاء لتقذفهم بالحجارة داعية إياهم بأنهم غير مسلمين، وأنَّ ما يفعلوه لا يرضي الله والرسول وهذا الأمر قد تكرر أكثر من مرة ويجب التخلص منها إلى الأبد. استمع

«الجنبلاطي» إلى كل هذا قائلًا ببرود شديد:

- لها يومها تلك الملعونة النصرانية.

نظر إليه الجميع باستغراب من هذا التصريح ليقول واحدٌ منهم:

- أنت عرفت ملتها يا مولانا.

أجاب «الجنبلاطي» بثقة شديدة قائلًا:

- أكيد اللي تشتم أبناء المسلمين وتلعنهم، هي ليست بواحدة مننا.

رد واحدٌ آخر قائلًا:

- بس أنا سمعت أنها تفعل هكذا مع النصارى يا مولانا وبالأخص طائفة المستر بلاك الأمريكي.

رد عليه «الجنبلاطي»:

- مستر بلاك حليف لطيف وله كثير من المساعدات لنا وسنتناقش أنا وهو بذلك الأمر بإذن الله.

نظر «الجنبلاطي» إلى «السنباطي» الجالس يدخن السجائر في صمت غير مكترث بالحديث عن «المربوطة» تمامًا فانتبه «الجنبلاطي» لذلك ليوجه إليه حديثه قائلًا:

- إني أعلم ما في عقلك يا أخ سنباطي، لا تقلق إنَّ غدًا لناظره قريب، لقد رأيت لك رؤيا في المنام تفرح القلب وتشرح الصدر.

تمعن «السنباطي» بلهف وشغف في «الجنبلاطي» ليكمل ما رآه في الرؤيا ليعلم الأخير أنَّه استحوذ على عقل «السنباطي» قائلًا:

- خير اللهم ما أجعله خير، قال أنت لابس أبيض في أبيض وماسك سيف مكتوب على مقبضه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والسيف ملطخٌ بالدماء على حافة النصل وأنت تصرخ محاربًا في سبيل الله تقتل من قتل أخوك، قاطعه «السنباطي» بلهفة قائلًا:

- وشفت يا مولانا مين اللي قتل أخويا.

obeikandl.com

رد «الجنبلاطي» بثقة:

- لم يكشف لي الله سبحانه وتعالى بعد، لكن ثق أننا سنعرفه قريبًا.

شرب المأمور الشاي متوعدًا الجميع أنَّه لن يهدأ حتي يصلح من حال تلك البلدة المنقلبة رأسًا على عقب. وقام خارجاً حتي توقف عند باب القهوة ناظرًا إلى «السنباطي» مناديًا عليه فتمهل الثاني ناظرًا إلى «الجنبلاطي» الذي أشار إليه بأنْ يذهب ليري الداعي فما أنْ اختلط به المأمور حتي قال له:

- أنا عايزك تهدأ يا سنباطي ومتعملش أي حاجة تندم عليها بعد كدة، الموضوع مش ثأر واللي قتل أخوك ممكن يكون قتله بدون قصد مثلًا يعني قضاء وقدر بعيار طائش يعني.

نظر إليه «السنباطي» دون أنْ يتفوه بحرف واحد ليكمل المأمور:

- إوعي تمشي وراء كلام أي حد ولو عرفت حاجة تعالى وقل لي وأنا هاتصرف وبلاش قعدة مع الجنبلاطي كتير، فيه كلام مش كويس بيوصلني، دة غير إنَّ سمعته مش ولا بد من زمان.

قاطعه «السنباطي» قائلًا في حدة:

- وتاب عن اللي عمله زمان وخلصنا، أنا حر يا باشا، أقعد مع اللي أنا عايزه في الوقت اللي يعجبني لأني مبعملش الغلط، بعد إذنك.

تركه عائدًا إلى مجلسه مما جعل المأمور يشعر بالغيظ مشعلًا سيجارة جديدة لاعنًا في دخيلته تلك الأيام السوداء.

- أيام سوداء تلك التي ستراها عائلة «خياط «بعد أنْ انتهت الأربعين يومًا حدادًا وحزنًا على الفقيد المرحوم. صحت جميع الشكوك والظنون التي دارت في عقل «روجينا» طيلة المدة المنصرمة منذ وفاة ابنها وحتي الآن. لقد قامت عائلة «وفيق» بما انتظروه طويلًا جدًا، منذ وفاة «خياط باشا» وحتي وقتنا هذا، لقد مات «خياط» و«دوس» و«منير» ولا يوجد وريث ذكري للعائلة لذا تدور عجلة الزمان إلى الوراء لتعود

أكثر من ثلاثين عامًا منذ بداية كل هذا اللغط على الثروة، ثروة «خياط» باشا تلك الفدادين التي لا نهاية لها والكثير من الأملاك المتناثرة بين القاهرة والإسكندرية ومبلغ مإلى محترم ببنك مصر حيث كان «خياط» باشا مُؤمن أشد الإيمان بوطنه مصر وأنها على طريق التقدم والفلاح؛ لذا رأي أنَّه لا بد من الإسهام والارتقاء بالاقتصاد المصري وشجعه على ذلك صداقته وعلاقته الوطيدة بالرجل الاقتصادي اللامع «محمد طلعت حرب باشا « فقرر وقتها استثمار مبلغ كبير ببنك مصر. والآن فإنَّ كل تلك الممتلكات قد حان ميعاد فتح الحسابات الخاصة بها القديمة المغلقة بالأختام منذ زمنٍ بعيدٍ، جاء وقت فك الأختام ولكن تلك المرة مع اختلاف الشخصيات، قد مات «منير» وانفتحت أبواب جهنم وما توقعته «روجينا» حدث بالحرف فبعد انقضاء الأربعين يومًا تلقت دعوة على يد محضر من المحكمة تطالب فيه عائلة «وفيق خياط « باستخراج إعلام شرعي للمرحوم «منير دوس خياط» وعليه تم إبلاغ المذكورة السيدة «روجينا» هانم بذلك وميعاد الجلسة في حينه .. إلخ ... إلخ ..

وقعت «روجينا» على الدعوة باستلامها لتقرر أنْ تذهب إلى القاهرة تاركه «رفقة» برفقة والدتها.

ذهبت إلى القاهرة لمقابلة محامي العائلة، الأستاذ «مكرم عبيد» الذي كانت تربطه صلة صداقة مع زوجها «دوس» باشا والذي استقبلها بحفاوة بالغة، أبلغته بما في جعبتها فأصابه الضيق والغم كثيرًا لما سمعه وما أحزن قلبه هو عدم التوصل إلى القاتل حتي الآن؛ معللًا ذلك بأنَّه قمة انتهاك الأمن العام في المملكة المصرية التي أصابها الصدأ والفساد حتي النخاع لاعنًا الفاسدين والقتلة مؤكدًا على ضرورة التغيير. استمع «عبيد» إلى كل ما قالته «روجينا» معطيةً إياه صورة إعلان الدعوي التي وصلتها من المحكمة باستخراج إعلام شرعي، طالبة منه النصح والإرشاد القانوني لحماية حقوق عائلتها.

صمت «مكرم» لفترة من الوقت ناظرًا إلى صورة الراحل «سعد باشا زغلول» المعلقة بمكتبه قائلًا بعد أنْ رشف من فنجان القهوة:

- والله يا روجينا هانم قانون المواريث اللي بيطبق في مصر هو القانون الإسلامي وبما أنَّ المرحوم توفي وهو ليس لدى أبناء ذكور بالمرة لذا ففي هذه الحالة لا بد أنْ يدخل أهل العصب وهم في تلك الحالة أولاد العموم والعم إذا كان حيًا، ولكن في حالة وفاته يمكن لأبنائه أن يتقدموا بالمطالبة بنصيبهم بالميراث كوصية واجبة.

احتقن وجه «روجينا» جدًا متحولًا إلى اللون الأسود القاتم وهي تستمع إلى السواد الأعظم المقبله عليه الأيام القادمة التي تلونت بنفس لون فستانها لتكمل الاستماع إلى «مكرم باشا عبيد» الذي استطرد شارحًا فقاطعته بأدب قائلة:

- بس إحنا مش مسلمين إحنا مسيحين.

ابتسم «مكرم» باشًا قائلًا جملته المشهورة:

- نحن مسلمون وطنًا ونصاري دينًا يا سيدتي العزيزة.

لم تستوعب «روجينا» تلك الجملة فشرح لها الباشا أنَّ قانون الأحوال الشخصية لغير المسلمين الذي يندرج تحته قانون المواريث لا زال في طور الإعداد لعرضه على مجلس النواب مع العلم أنَّ هناك معارضه بين النواب في تطبيق مثل هذه القوانين وبالذات فيما يخص المواريث مطالبين تطبيق الشريعة الإسلامية فقط على الجميع مسلمين وغير مسلمين.

ذهلت «روجينا» من هذا المنطق غير المقبول بالمرة فبذلك يمكن أنْ يفقد المسيحيين الكثير فقالت:

- لكن إزاي؟

لم يعرف بما يجيبها «مكرم باشا» في البداية الذي أنهي قهوته ناظرًا بتمعن إلى «روجينا» مكملًا حديثه في هدوء شديد مزيلًا حالة الذهول والدهشة لدا مقنعًا إياها أنَّه من الأصلح لها وللعائلة أنْ تجلس مع الجانب الآخر لتحاول التفاهم بالعقل وصوت الحكمة الشديد؛ لأنه ليس من مصلحتها أنْ تذهب إلى المحكمة بالمرة لأنها في هذه الحالة سيطبق عليها الشريعة الإسلامية فيما يخص قوانين المواريث وللذكر مثل حظ الأنثين وستفقد الكثير من تركة المرحوم «منير» وأنَّه على أتم الاستعداد

للسفر معها في أي وقت إلى القرية للجلوس مع جميع الأطراف لحل هذا النزاع وديًا بقدر الإمكان وعدم اللجوء إلى المحاكم؛ لتجنب العائلة الصراع وسط القضاء، وهناك ألاعيب كثيرة و ثغرات يمكن أنْ يفعلوها، لكنها في النهاية لن تنفع بالمرة بل كل ما ستكسبه إياهم هو الوقت وعائلة خياط اسم عريق في الصعيد وغير محبب للمضغ به بين القيل والقال من عامة الناس؛ لذا لنلجأ إلى السلم أولًا وإذا لم يكن لنستخدم أسلحتنا الدفاعية الواهنة.

أنهت «روجينا» لقائها مع «مكرم باشا عبيد» على أمل اللقاء مجددًا ليرحب بها الباشا في أي وقت داعيًا إياها بدون قيود أو مواعيد أو شروط مترحِّمًا على روح «دوس باشا» و ابنه «منير» و أن لا يريها الله أحزانًا أخري في غالٍ أو حبيب.

خرجت «روجينا» من مكتب «مكرم» باشا لا تعرف إلى أين تذهب فطلبت من السائق أنْ يسير بها على كورنيش النيل بالزمالك لوقت قليل قبل أنْ يصل بها إلى شقتهم السكنية القاطنة بحي الزمالك الراقي التي تقع بعمارتهم السكنية التي يمتلكونها من أيام «دوس» باشا الذي اشتراها جاعلًا شقته بها كاستراحة للعائلة عند حلولهم بمصر، فَنَفَّذَ السائق طلبها ليسير الهويني على طريق الكورنيش بالعربة وهي تفكر في دخيله نفسها:

- لن يرضخ غاصب وأمه ولن يلجأوا إلى الحلول السلمية فهم يريدون كل شيء، كل شيء ولن يوقفهم أحُدٌ بالمرة.

أخذها تفكيرها إلى أبعد مما تتخيل، لقد فكرت في أنْ تقتلهم بطريق غير مباشر فالبلطجية ورجال الجبل متاحون في أي وقت والفلوس تصنع المعجزات والجرائم ولا أحد يرفضها بالمرة، لكنها تراجعت عن ذلك الفكر القاتل فهي مهما كان لن تضع يدها في أيدي سفاحين؛ لذا لتستعين بأحد ليكون وسيطًا. وأمعنت تفكيرها باحثة عن تلك الشخصية التي يمكن أنْ تتكتم سرها وبعد أنْ استقرأت جميع الأسماء التي في مخيلتها لم تجد أحدًا و من وجدته خافت من أنْ تبوح له حتي لا يكشف سرها لأحد لذا استبعدت فكرة الانتقام الدموي الذي ذهبت إليه لتعود إلى رشدها وإلى

مسكنها، حيث نادي عليها السائق أكثر من مرة وهي غير منتبهة بالمرة حتي سمعته أخيرًا ليعلمها أنهما قد وصلا إلى المنزل. نظرت إليه «روجينا» بتمعن قائلة:

- اطلع بينا على البلد، على بيت وفيق خياط .

لم يتفوه السائق بكلمة فهي من عادتها حينما تأتي إلى القاهرة أنْ تمكث ليلة أو ليلتين بشقة الزمالك لا سيما وأنها قد بعثت بالخدم لتنظيفها قبل مجيئها، ولكن ليكن القرار أولًا وأخيرًا لها ليعود السائق إلى قرية الطين والقلق والتفكير ينهش عقل «روجينا» فيما سيحدث في الساعات القليلة القادمة التي ستشكل المستقبل البعيد.

وقفت «روجينا» في بهو منزل «وفيق خياط» منتظرة «جانيت» لمقابلتها وبالفعل وقفت «جانيت» أمامها وجهًا لوجه ليبدأ الصدام الحقيقي، أمعنت «روجينا» النظر إلى»جانيت» قائلة محاولة اصطناع اللطف:

- هو إحنا مش هنقعد.

ظهرت على وجه «جانيت» ابتسامة هادئة صفراء قائلة:

- اتفضلي يا روجينا هانم.

جلس الاثنان لتأمر»جانيت» خادمها بالقهوة فلبى الأخير على وجه السرعة ولم تمر دقائق حتى ارتشفت كل واحدة من فنجانها ناظرين إلى بعض بدقاء شديد ومكر وزيادة في المشاعر الكريهة والشماتة من جانب «جانيت» لتقطع «روجينا» الصمت قائلة:

- طلباتك أيه يا هانم.
- أنا مليش طلبات.
- أنا وصلني إعلان دعوى لجلسة إعلام وراثة للمرحوم منير.
- حقي وحق أولادي.

رفعت «روجينا» حاجبها الأيسر بينما الأيمن في مكانه قائلة :

- أنت متأكدة إن دة حقك يا جانيت هانم .

- دة أنا واثقة إن دة حقي وحق أولادي من زمان جدًا وربنا عادل وِجَهْ الوقت إن أحنا نسترد حق جوزي الله يرحمه .

حاولت «روجينا» بكل الطرق التفاهم مع «جانيت» لإنهاء الوضع وديًا دون اللجوء إلى المحاكم وخلافه نظرًا لحساسية اسم العائلة ووضعها وإنَّ ما حدث في الماضي ليس لها هي يد فيه لذا فإنَّ الانتقام منها ومن زوجة «منير» وابنته لأكبر عبث فهم ضحايا مثلها، لم تنتظر «جانيت» حتى تهبي الأخيرة حديثها بل هاجمتها بشراسة مستهزئة بمنطق الضحايا ذلك الذي تصف «روجينا» نفسها به لتنقض عليها مفترسة إياها بأنَّها لن تتراجع عن مخططاتها وأنَّ الوقت قد حان لتذوق بعضًا من المرار والذل الذي تذوقته هي وزوجها وأطفالها حتي أنَّ زوجها مات من حرقته على ما أصابه من أبيه وأخيه والآن جاء وقت رد الحساب بأكمله. وإذا كانت تخشين على اسم العائلة وحساسيته الشديدة، إذن لتعطيهم كل شيء، كل شيء.

اغتاظت «روجينا» من هذا المنطق الفظيع فتلك «الجانيت» تريد كل شيء؛ لذا لم تجد سوى إعلان الحرب وهي لا تعلم إذا كانت ستفوز أمْ لا، لكن لا بديل آخر فالحرب هي السبيل الوحيد للحفاظ على شرف العائلة، وعدم تمكين تلك الصعلوكه وأبنائها شيئًا ما، ولتستخدم كل أسلحتها حتي النهاية لتترك «روجينا» منزل «وفيق» وقد أعلنت الحرب بلا هوادة أو شفقة، إنها معركة البقاء للأقوى ولا بد أنْ تكون هي وعائلتها الأقوى.

مرت الأيام في صراع نفسي رهيب حيث حشدت «روجينا» ما تقدر عليه من حشود في مواجهة زحف «جانيت» وأبنائها وبالذات «غاصب» المتوحش أما «مراد» فقد أَخَذَ جانبًا متنحيًا عن هذا الصراع رافضًا إياه بكل الوسائل والطرق محاولًا بشتي الطرق إنهائه بطريقة ما أو تحييدة لأي من الطرفين بدون كل تلك الفضائح والشوشرة التي ملأت القرية؛ فلا يمر أسبوع إلا وإنذار عرض من المحكمة أو إعلان دعوي مقامة ليستخدم الجميع كل الأسلحة الشريفة وغير الشريفة. حتي أنَّ أهل القرية انقسموا على ذاتهم، ففئة تعاطفت مع عائلة المرحوم «منير» وطائفة تحزبت

لعائلة «وفيق» التي ضاع حقها منذ زمن بعيد وجاء وقت استرداد الحق و المستحق وقد حاولت «روجينا» تجنب «رفقة» تلك الصراعات لتتفرغ لتربية الفتاه الغالية على قلبها «ماري» لتتصدى هي كاللبؤة المتوحشة المستعدة للانقضاض على فريستها. حتي وقع المحظور بتمكين عائلة «وفيق» وعلى رأسهم «غاصب» من ميراثهم في تركة المرحوم «منير دوس» و عليه بدأ صراع التقسيم لأنَّ هناك أشياء غير قابلة للتقسيم مثل القصر والذي كان أهم مطلب لعائلة «وفيق» لكسر نفس «روجينا» إلى الأبد؛ لذا قرر «غاصب» أنْ يأخذ حامية من البوليس على رأسها المأمور لتنفيذ أمر المحكمة بتمكينه من القصر كحق في ميراثه الشرعي ليجد «روجينا» والمحامي المبعوث من قبل مكتب «مكرم باشا عبيد» يتصدون إلى هذا التدخل حيث قام المحامي برفع قضية استشكال لاستحالة تقسيم القصر وبعض الممتلكات الأخرى التي يصعب تقسيمها وعليه فإننا في انتظار رد المحكمة التي ما أنْ يترآي لها صعوبة التقسيم يحدث نوعًا من أنواع الفرز والتجنيب لكلا الطرفين. وتبدأ بالود أولاً لتعرض عليهم الممتلكات غير القابلة للقسمة لعلهم يتراضون بالهدوء وبدون منازعات في تقسيمها، وإنْ لم يكن تقرر فتح المزاد العلني ومن معه من الطرفين ليشتري وإما فتح الباب لمزايدة علنية ترأسها المحكمة ليبدأ مشوار آخر في المحاكم يستغرق سنوات أمام ساحة القضاء.

لكن منظر «غاصب» والمأمور جعل «روجينا» ذلك المارد الجبار يقع على كرسيه متشبثة بالمسند الخشبي غير قادر على الحراك حتي غادروا القصر. ليحاول أهل القصر مساعدتها على النهوض، لكن بلا فائدة لقد أصاب الوحش المرض اللعين من شدة الحزن والقهر والألم الداخلي لتصاب «روجينا» بجلطة دماغية تؤثر على مخارج الكلام لدا مصيبةً إياها بشلل رباعي ومشاعرها تحدثها بأنَّ كل شيء ضاع منها وأنَّ مستقبل حفيدتها مظلم ولا يدري سوى الله ماذا سيحدث لها من بعدتا ومن سيتولاها؟

وقع المحظور وانزوت روجينا في ركنٍ بعيد هادئ منتظرة خلاص الله في صمت. لتكشف لنا الساحة عن مُدَافع صنديد وخصم عنيد خرج عن صمته وهو أجدر

شخصية يجب أنْ تتكلم، خرجت «رفقة «هانم إلى ساحة المعركة مكملة مشوار حماتها ليطلق عليها أهل القصر من خدم لقب مدام «خياط» عوضاً عن السيدة الكبيرة.

ركعت «رفقة» بجانب الكرسي المتحرك الجالسة عليه «روجينا» قائلة في همس:

- وحق منير في تربته يا ماما هاقف قدام غاصب و أمه وهاحاول بكل الطرق أمنعهم يمدوا أيدةم على القصر حتي لو كلفني دة عمري، متخافيش أنا برضه من عائلة خياط و مش هاسمح ليها بالأذي أبدًا، سمعاني يا ماما ، مش هاسمح لينا بالخراب.

شددت «رفقة» بيدةا على يد «روجينا» التي لم يصدر عنها أي حركة سوى أنها نظرت ناحية «رفقة» وعينيها ظهر بهما بريق لامع لتسقط دمعة صامتة و «رفقة «تمد يدةا مجففة تلك الدمعة الغالية.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٨-

- الغالية دي تبقي أمك و بس مش رفقة يا حبيب أمك.

وجه «غاصب» حديثه إلى أخيه الواقف أمامه مستندًا على عكازه محاورًا إياه بأن كل ما يحدث من طرفهم هو قمة الانحراف العائلي تجاه عائلة ابن عمهم المرحوم «منير» ويكفي أنَّه قد مات قتيلًا. لم يعجب «غاصب» هذا الكلام وبالذات عندما ذكر» مراد» أنَّ «رفقة» غالية عليهم فاحتد عليه «غاصب» واستمر النقاش حتي خرجت أمهم عليهم من شدة الصياح ناظرةً إلى «مراد» بحدة شديدة قائلة:

- أيه يا حبيبي، خايف على رفقة وبنتها، خلاص اتجوزها واتحكم فيها براحتك، لكن أنا وأخوك مش هنتنازل عن نصيبنا في الميراث أنت فاهم.

لم يعرف «مراد» بما يجيب في البداية لكنه حاول استجماع أفكاره قائلًا:

- إحنا سيرتنا بقت على كل لسان في البلد يا ماما، مفيش سيرة لأهل البلد إلا عائلة خياط عَمِلتْ أيه النهاردة، وأيه اللي حصل عندهم إمبارح، عاجبكم كدة.

صفق «غاصب» إلى لأخيه قائلًا بسخرية :

- ومن أمتي سيرتنا مش على كل لسان، وهو أهل البلد الجرابيع دول ليهم حاجة غير الكلام على ولاد الناس وبس، اسمع يا مراد أبعد أنت عن الموضوع دة .

أكملت «جانيت» قائلة :

- ولو أنت مش عايز نصبيك في الميراث اتنازل عنه لي أنا وأخوك .

قاطعها «مراد» قائلًا:

- طب ما أتنازل عنه للي يستحقوه .

اقترب «غاصب» منه وقد ظهرت على عينيه علامات الشر و الغيظ من أخيه قائلًا بصوت خافض:

- إياك تعملها يا أخويا، كفاية الإعاقة اللي أنت عايش بيها ولا عايز تِحَصِّلْ ابن عمك.

ابتعد «مراد» عن أخيه غير مصدق أذنه. انسحب من الحوار الذي لن يؤدي إلى شئ فهو يعلم أنَّ انطباق السماء على الأرض أسهل بكثير من أنْ يتنازل «غاصب» وأمه عن نصيبهم في الميراث الذي جاء لهم على طبق من فضة لكن أنْ يسمع من أخيه ما سمعه الآن فقد جعله في حيرة من أمره، هل هذا الانفعال وقتي من غاصب أَمْ أنَّها الحقيقة المرة التي يمكن أنْ لا يستبعدها فالكراهية عمياء يمكن أنْ تؤدي إلى أي شئ في الكون .

وجد «مراد» نفسه أمام منزل «تحية» التي استقبلته بكل ترحاب ومودة ليجلسا متجاذبين أطراف الحديث ولم يكن هناك حديث سوى عما يحدث فيما بينهم كعائلة واحدة ليصرح «مراد» بأنَّه قد مَلَّ من هذه الحرب التي لا يريد الاشتراك فيها حتي ولو باسمه وأنَّه قد عزم عند نهاية المطاف سوف يُرَجِّع كل شيء إلى عائلة عمه، كل ما سيعطيه له حقه في الميراث سيرده مرة أخرى إلى أصله لأنَّه يشعر بأنه ليس من حقه. لترى «تحية» مثالًا للرجل المخلص الأمين الشهم الذي تَمَثَّته منذ زمن بعيد ولولا أنَّها تعلم مبادئه وأخلاقه لارتمت بنفسها داخل أحضانه مستدفئة بحنانه ورجولته الحانية؛ لكي تجد نفسها تشجعه بما يفكر فيه لأنَّه لن يصح إلا الصحيح إذا رأى أنَّ ذلك هو الطريق الصحيح وهي تثق في اختياره لقراراته الصائبة. ليصرح لها بأنَّ «رفقة» ليس لها يد في كل تلك المشاحنات وتصفية الحسابات القديمة التي بين العائلتين، وما زاد الطين بللًا هو وجود «ماري» تلك الفتاة التي لا ذنب لها

في أي شيء مما يحدث ويجب أنْ تربى في كنف عائلة متحدة تفتخر بها وليس عائلة متفككة بالمرة ولا بد أنْ تعيش في نعيم ورغد كما كان يحلم لها أبيها، بل وأكثر ، يجب أنْ يتصدى أحدٌ «لغاصب» وأفكاره الشريرة. فَرَاقَ ذلك الكلام إلى عقل «تحية» فهي تريد أنْ ترى أحدًا يرد له الكف الذي أعطاه لها بعلاقة فاشلة استمرت مدة من الزمن لتجد نفسها تقول «لمراد» بثقة:

- أنت أحسن واحد يقدر يقف قدامه ويصدة .

نظر «مراد» إلها بتمعن مفكرًا فيما قاله له أخوه من تهديد شبه مباشر إذا تصدى له؛ لذا فهو يعلم منذ زمن أنَّ»غاصب» عنيف ولا يسمع سوى لنفسه و يمكن أنْ يفعل أي شئ في سبيل الوصول إلى غايته لذا الوقوف أمامه نوع من المخاطرة الجسيمة غير المحمودة العواقب تمامًا وللأسف إنَّ حقه القانوني سليم وهذا ما يحير عقل «مراد» لما انقلب الوضع رأسًا على عقب على كاهل عائلة عمه مطيحًا القدر «بمنير» بتلك الطريقة الغريبة، وبدأ الشك يتسلل إلى قلبه بأنَّ أخيه وراء عمل مثل هذا، لكن عقله يحاول رفض هذا التخمين ليصبح في دوامة نفسية رهيبة محاولًا تخليص المسكينة «رفقة» وابنتها من براثن أخيه وأمه ليتفق مع» تحية» بأنْ يستخدم منطق العقل مرة أخري في التحدث معهم جميعًا للوصول إلى تسوية ترضي جميع الأطراف للخروج من تلك الأزمة الطاحنة و ما لفت انتباه «تحية» هو اهتمام مراد الشديد برفقة من طريقة حديثه عنها وإعجابه بصمودها وتحملها كل تلك المصائب الواحدة تلو الأخرى، وهي واقفة كالجبل العتيد الراسخ مما جعل الغيرة تدب في قلب وعقل «تحية» لتجد نفسها تقتحم خصوصية «مراد» سائلة إياه بكل جراءة متناهية قائلة :

- أنت بتحب رفقة ؟

استغرب «مراد» مندهشًا من ذلك السؤال الذي ليس في مكانه أو وقته فهو يشعر بحب ناحية «رفقة» بالفعل ليوضح» لتحية» أنَّ حبه لها نابع من قوة شخصيتها التي نادرًا ما نجد مثلها في القرية هنا؛ فهي حكيمة، تحب الخير وعمل الرحمة وهذا ما يجعله يحبها ويحترمها كأخت له بالضبط وليس أكثر فهو لو تمني من الله أختًا لن يجد

حوله أفضل أو أحسن من «رفقة خياط» زوجة ابن عمه المرحوم «منير»، الذي كان يعتبره أخًا أيضًا فهو لم يشعر ناحيته بالكراهية مثل أمه وأخيه الذين لو بيدهم لكانوا أخفوا عائلة «دوس» من على وجه الأرض منذ زمن بعيد، لاعنًا أبو الثروة على من يريدها ويتكالب عليها مطيحًا بمن أمامه مصرحًا « لتحية « بأنَّه قد كره هذا العالم فهو يشعر بوحدة غريبة عجيبة واضعة إياه في حالة يائسة بأنَّ غدًا لن يكون أفضل أو لربما هذا من وجهة نظره التي يراها بناءً على كثرة الشر وقلة صانعي الخير مما يجعل أسهم الشر تعلو محيطة بأسهم الخير وعليه يبقى غدًا في يد الله الرحيم الذي يتمني من كل قلبه أنْ يعيد الرحمة إلى قلوب عبادة لينصلح حال هذا الكون .

سمعت «تحية» في صوت «مراد» ما إلا انعكاس لتفكيرها الداخلي الذي يجعل النوم يهرب من عينيها كل ليلة؛ فهي لم تجد من يصنع معها رحمة في ذلك العالم وإذا افتَرَضَتْ أنَّ ما صنعه معها زوجها المرحوم من أعمال رحمة فلتعتبر تلك هي أقسى أنواع الرحمة لأنها دفعت ثمنها من شرفها وعزتها لتصبح من وجهة نظرها في مصاف الجواري وليس في مصاف السيدات الأحرار الأشراف، إنَّ ما ذكره «مراد» ما هو إلا كل ما مرت به على مدى حياتها لذا وجدت نفسها تفرض سؤالا آخر اخترق تلك المرة قلب «مراد» قائلة:

- وأنت هتحب مين يا مراد؟

ظهرت على وجه «مراد» ابتسامة هادئة ماسكًا يدها بحنان بالغ قائلًا وعيناه قد اخترقت عينيها .

- بحبك أنت.

اختار قلب «مراد» البسيط تحية التي شعرت بطعنة تخترق فؤادها مع أنها طيلة المدة المنصرمة تمنت أنْ تسمع تلك الكلمة منه أكثر من مرة، لكنها كانت تراها في أعماله و تصرفاته معها، تلك الأخلاق النبيلة الكريمة مما جعلتها تتمناه في أحلامها، لكنها وقفت أمام حائط سد منيع ألا و هو "غاصب".

- غاصب أفندي موجود وعايز يقابل حضرتك يا هانم .

هذا ما قاله «لبيب» «لرفقة» التي بدت على وجهها علامات عدم الارتياح والقلق من زيارة هذا الشخص في وقت متأخر من الليل وفكرت أتقابله أمْ تمتنع؟ و لكنها وجدت أنَّ امتناعها يمكن أنْ يخلق نوعًا من أنوع النفور وهي في مرحلة حرجة الآن معه لذا ارتكنت إلى مبدأ « أيه اللي رماك على المر قال الأمَرّ منه» فقررت أنْ تقابله وما هي إلا دقائق حتى وقفت أمامه بهو القصر لتجدة يقول لها .

- طبعًا أنت عايزة توقفي تقسيم الثروة .

نظرت إليه باستغراب شديد لتَطَرُّقه إلى الموضوع مباشرة ليكمل :

- أنا مبحبش أضيع وقت يا رفقة هانم، بعد مرض مرأة عمي بقيت أنت المسئولة عن كل شئ و أظن أنك بتتمني الموت لي أنا و أمي .

قاطعته «رفقة» بحدية قائلة :

- أنا عمري ما أتمني لحد الموت يا غاصب .

ابتسم «غاصب» ابتسامة خبيثة هادئة قائلًا:

- آسف يمكن خانني التعبير، قصدي نختفي من وشك للأبد لكن معلش مش هيحصل ومن مصلحتنا إن إحنا نتحد مع بعض ولا أيه .

تمعنت «رفقة» به غير مستوعبة مقصدة سائلة إياه قائلة :

- نتحد إزاي ؟

جلس «غاصب» على الكرسي المواجه لصورة الباشا قائلًا في خبث :

- نتحد أنا وأنت، نتجوز .

شعرت «رفقة «بأنَّ مرزبة قد طرقت على رأسها ناسفة إياها لتجد نفسها تقول بجدية شديدة ناظرة إليه بغيظ شديد :

- أنت بتقول أيه؟

ابتسم «غاصب» نصف ابتسامة قائلًا:

- أنت سمعتي يا رفقة هانم يا سليلة الحسب والنسب، نتجوز، أنا مش أقل من منير، أنا ابن عمه وأنا بحبك فعلاً .

قام منتصبًا مقتربًا منها مما جعلها تأخذ خطوات إلى الخلف لتحافظ على بعد المسافة بينهم مما جعله يقف في مكانه مكملاً:

- لو اتجوزنا أنا وأنت ممكن وقتها بس أقنع أمي بأن كل حاجة تفضل زي ما هي وميحصلش تقسيم قلت أيه .

- قولتلك نجوم السماء أقربلك، أنا كنت فاكراك أذكى من كدة، لكن أنت ظهرت على حقيقتك إنك في قمة الغباء، أنت لسه بتحلم تحط إيدك على القصر وتاخدني فوق البيعة، انس يا غاصب أنا مش هاتجوز خالص ، لا أنت ولا غيرك، بعد منير مفيش راجل يملأ عيني، أنا عندي بنتي هاريها وهتبقي هي كل حاجة في حياتي .

صفق «غاصب» باستهزاء قائلًا:

- يبقي أنت الغبية، دي كانت فرصتك الوحيدة لإنقاذ الثروة، وبما إنك رفضتيها يبقي اسمحيلي أعَرِّفك إنَّ من هنا ورايح اعتبريني لعنة من لعنات القدر اللي وقعت عليك وهتدمرك إلا لو رجعت في قرارك ووافقت على الجواز، فكِّري على المهل وخدي فرصتك لكن لو صبري نفد يبقي أنت حرة، هادمرك يا رفقة .

تركها واقفة وحيدة ليسير هو في طريقه مغادرًا القصر بينما هي انتابتها حالة من الخوف الشديد الأشبه بالهلع لتجد نفسها جالسة على أقرب مقعد منخرطة في البكاء؛ فمهما كان «رفقة» أنثى حساسة جدًا لا ترضى بالذل المهين الذي مارسه معها الآن غاصب فهي تعلم أنها ليست سوى عبدة في صفقته تلك التي إنْ وافقته على تنفيذها لدخلت بقدمها إلى قفص العبودية متجرعة المرار والمهانة طيلة عمرها القادم في سبيل إبقاء الوضع كما هو عليه وعدم تقسيم الميراث. حاولت «رفقة» استجماع قوتها المتبقية الواهية لتدخل إلى مكتب زوجها حتي لا يراها أحد من الخدم في تلك الحالة المزرية لتقف أمام صورة زوجها التي تم تعليقها بعد وفاته، تلك الصورة الفوتغرافية الكبيرة الأبيض والأسود الموضوعة داخل البرواز الذهبي. وجدت نفسها تبوح له

بكل ما في صدرها من ألم و اختناق يكاد يطيح بها من على الأرض ناقلًا إياها من تلك الحياة لتلحق به، و لكن لمن ستترك ابنتها الرضيعة؟ سألته أسئلة عديدة ولم تجد إجابات، مجرد صورة «لمنير» وهو مبتسم ولكن تلك المرة ابتسامته لم تخلق في داخل «رفقة» السلام والطمأنينة بل شعرت أنَّه يضحك على حالها الذي وصلت إليه الآن على يد «غاصب»، فهي تعلم أنها ليس لها ناقة ولا جمل في تلك المعركة بل هي قديمة منذ أنْ أشعل الباشا الكبير فتيل الحرب بين أبنائه ليمر العمر وتقع هي وابنتها ضحية ذلك الانفجار العائلي الذي سيطيح بالجميع وأولهم هي، فهي واثقة أن «روجينا» ليس لها شفاء كما أكَّد لها الأطباء فالطب ليس بيده حيلة ولا بد من معجزة لذا ذهب الطب مع أدراج الرياح وحالتها تزداد سوءًا وإذا حدث التقسيم فعليًا فيمكن بل أكيد ستكون تلك نهايتها؛ لذا أخرجت «روجينا» من حساباتها تمامًا لتجد نفسها هي فقط بمفردها واقفة أمام التيار المندفع بقوة جارفًا أمامه كل شيء ليترك ضحايا فقط وأرض يابسة قاحلة لا حياة فيها. أي لعنه تلك التي سقطت على كاهلها، لا تدري ماذا فعلت خطأ في حياتها ليأتي وقت الحساب من وجهة نظرها.

أيمكن أنْ تتمنى الشر «لغاصب» وأمه، لا تستطيع فذلك القلب الذي تربى على المحبة لا يعرف الكره أو الشر أو الخبث طريقًا له بالمرة، حاولت السيطرة على نفسها ودموعها المنهمرة كالأمطار لتسأل صورة زوجها قائلة في يأس شديد:

- أعمل أيه يا مراد، رد عليّ.

انفتح باب المكتب فجأة لتدخل «روجينا» على الكرسي المتحرك و لخادمة تدفع بالكرسي فيبدو هكذا أأ السيدة الكبيرة قد سمعت كل شيء لأنَّه بَعْدَ إصابتها بالشلل تم تجهيز غرفة لها قريبة من البهو؛ لذا كان من السهل أنْ تسمع بما جرى بين «غاصب» و«رفقة» التي لم تجد سوى أن تجري على «روجينا» راكعة واضعة رأسها على أقدامها منخرطة في بكاء رهيب حتي أنَّ الخادمة بكت بينما لمعت عينا «روجينا» لتسقط دموعها الصامتة وصوت أنين يعلو من داخلها، تريد أنْ تصرخ ولا تستطيع، تريد أنْ تقاتل ولكن القدر كتب نهايتها بالسكون، تريد أنْ تقف منتصبة

مؤازرة تلك الصبية الصغيرة؛ لكنها لا تجد سوى أنين يخرج منها معبرًا عن حالها حتي أنها لا تستطيع أنْ تمد يدها مربتة على رأس المسكينة التي لا حول لها ولا قوة فيما يحدث، لقد عرفت وقتها «روجينا» أنَّ نجم عائلة «دوس» بدأ يخبو ومصير «ماري» سيكون مجهولًا تمامًا ولا يوجد سوى الله الذي تنتظر أنْ يمطر مراحمه عليهم، ولكن أتوجد مراحم لدى الرب لعائلة «خياط» أم لا ...؟

مضت الأيام التالية ثقيلة وسوداء لا يوجد بها أي شيء يدعو للتفاؤل حيث تم تقسيم الثروة وللذكر مثل حظ الأنثيين لذا تضخم نصيب «غاصب» جدًا و تعاظم جدًا مقارنةً بنصيب «رفقة « و»ماري» و»روجينا» وتقسمت الأراضي الزراعية وحسابات بنك مصر المودعة باسم «منير» وتبقت الأملاك المتناثرة ما بين عمارة سكنية في حي الزمالك وفيلا بالاسكندرية والقصر التي أخضعتهم «رفقة» لقضية الفرز والتجنيب التي غالبًا ما تستغرق سنوات وسنوات في المحاكم حيث يتم انتداب خبراء من وزارة الحقانية لتقدير تلك الممتلكات التي غالبًا ما يطعن عليها المتخاصمون حتي تصل إلى مرحلة المزاد العلني وعليه بدأ نوع جديد من الصراع بين «رفقة «من جهة و»غاصب» من جهة أخري و للطرف الأخير أساليب شتى في المضايقات التي يمارسها بحرفية على «رفقة» للضغط عليها للزواج منه وإلا فهو سيكون لعنتها الأبدية و مع كثرة المضايقات والتناحرات ذهبت «روجينا» بسلام، ولكن ليس بداخلها سلام لتلحق بابنها وزوجها تاركةً «رفقة» بمفردها فهي لم تحتمل الصدمة التي فعلها «غاصب «إثر استلامه ممتلكاته حيث شرع في بناء سور ضخم ليفصل أرضه عن أرضهم المقام عليها القصر التي هي جزء من مساحة الخمسة أفدنة المحيطة بها لذا عندما تسلم نصيبه في تلك الأرض قام مسرعاً ببناء ذلك السور و الشروع في بناء قصر آخر لا يقل في العظمة و الوجاهة عن الآخر المتعلق عليه النزاع ، لم تقدر روح «روجينا» أنْ تحتمل كل هذا فَذَبُلت عيناها مغلقة إياهم إلى الأبد تاركة أرض الشقاء واللعنة لتكمل «رفقة» المسيرة من بعدها التي كلما مر عليها يوم شعرت أنَّه يوازي سنوات لتزداد صلابةً ومناعةً وقوةً لتثبت أنَّها من عائلة «خياط»، يعاونها في ذلك المقربون إليها الذين عز عليهم رؤية كل تلك الآلآم والأحزان التي مرت بها

ليكونوا لها نسمة الهواء المنعشة في تلك الصحراء الجرداء ولم تتوقف «رفقة» عن مباشرة أعمالها يساندها في ذلك «مراد»، لتمر السنوات ثقيلة و«رفقة» لم تنس رعاية «رئيفة» وابنتها «قمر» .

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٩-

- قمر بتكبر ومش معقول تكون بدون أب ولا أيه.

نظر «السنباطي» باستغراب شديد إلى منطق «غاصب» الذي طلب مقابلته ليجنده لصالحه ويكون عينه المراقبة على «رفقة» بداخل القصر؛ ولكي يتم له مراده يجب أنْ تحدث مناورة على أثرها يستطيع أنْ يزرع «السنباطي» داخل القصر لذا تعمد إلى استدعائه لإلقاء شباكه عليه واصطيادة وساعده في مد جسور تلك العلاقة «مستر بلاك» «بالجنبلاطي» الذي سهل لهذا اللقاء فالقرية الآن لم تعد كما سبق بل دخلت عليها تغيرات كثيرة حيث أصبح «السنباطي» اليد إلمني للشيخ «الجنبلاطي» وتعامله مع النصارى بحساب شديد وإنْ أدى الأمر لا يتعامل معهم بالمرة ليتبعه في ذلك جماعة من الرجال و النساء التابعين لتعليم الجماعة منفذين أوامر مولانا «الجنبلاطي» الذي تربطه علاقة منفعة بحتة في باطنها وصداقة في ظاهرها مع «المستر بلاك « المبشر الذي من أفضل هواياته إشعال فتيل الفتنة ومساعدة المسيحين على الهجرة ومغادرة البلاد أو تزكية روح الخوف من الآخر وأنَّه لا يوجد حامي بعد الله سوى هو و طائفته. وقد انخدع مسيحيون كثيرون من ضعاف النفوس الذين يَسْهُلَ التأثير عليهم باسم الدين والانقياد إلى أحاديث «بلاك» و تعإلمه مما شجع «غاصب» على أنْ يطلب من» بلاك» أنْ يوفر له فرصة مقابلة مع «السنباطي» و تم بالفعل ليدخل له من ناحية ابنة أخيه اليتيمة وعندما لم يظهر أي

obeikandl.com

بادرة اقتناع على ملامح وجه «السنباطي» قرر «غاصب» أنْ يسلك مسلكًا آخر لتأييد فكرته قائلًا:

- تدخن .

أومأ»السنباطي» برأسه بعلامة الموافقة ليخرج «غاصب» علبة السجائر معطيًا الآخر سيجارة وهو واحدة مشعلًا السيجارتان لينفث دخان سيجارته في الهواء قائلًا في خبث شديد :

- أنا سمعت إن رفقة ماشية مشي بطال، ما أنت شايف الباب في الباب، والقصر بتاعي لصق في القصر بتاعها اللي بكره إن شاء الله تبقي بتاعتي بعد ما أكسب القضية .

قاطعه «السنباطي» قائلًا:

- هات من الآخر يا أفندي ، أنت عايز أيه بالظبط مني .

نظر إليه «غاصب» بتمعن مغتاظاً من كلمة أفندي تلك، لكن لا مفر منها ليبتسم في وجهه محاولًا عدم إظهاره توتره قائلًا:

- يعجبني فيك يا سنباطي إنك صريح وتخش في الموضوع، اسمع مني أنا عايز أيه منك بالظبط .

و بدأ «السنباطي» يحتسي الينسون منصتًا إلى كل كلمة يقولها «غاصب» الذي انحصر حديثه في أنَّه يريد أنْ يكون يده إلمني داخل قصر «خياط «باشا ليراقب تحركات «رفقة» ولن يتحقق له ذلك إلا إذا تزوج «رئيفة» مقنعًا إياها بأنَّه الرجل الأنسب والأمثل لها حيث يكمل المشوار خلفًا لأخيه المرحوم ويربي الفتاة الصغيرة راعيًا شئون أسرة أخيه معتنيًا بأرملته التي ستصبح زوجته بالتأكيد بعد الضغط والإلحاح الشديد لتقوم هي بدورها و تتوسط له لدى «رفقة» بأنْ يحل محل أخيه في العمل مكملًا المسيرة وبذلك يكون قد وضع قدمه داخل القصر ويومًا بعد الآخر حتي يصبح «غاصب» هو مالك القصر الفعلي ولن ينسي بالتأكيد جميل «السنباطي» معه الذي ما أن أنهي «غاصب» حديثه حتي أخرج سيجارة مشعلاً

إياها قائلًا:

- والمقابل أيه ؟

ابتسم «غاصب» فخورًا بنفسه أنَّه قد استطاع السيطرة على «السنباطي» تمامًا ليصلوا إلى اتفاق نهائي بموجبه يدفع «غاصب» شهرية محترمة إلى «السنباطي» في سبيل أنْ ينفذ له الأخير طلبه في زرع جاسوس قوي متخفي وراء جدران قصر «خياط» مراقبًا زوجة المرحوم .

- المرحوم كان غالي علينا كلنا يا رفقة هانم، هي النهاردة الذكرى السنوية السادسة مش كدة .

وضعت «رفقة» فنجان الشاي على المنضدة ناظرة إلى «شريفة» التي تسائلت مؤكدةً لها صحة المعلومة ولم تكن الجلسة سوى جلسة تأبين على روح المرحوم «منير» و قد اجتمع الجمع من الهوانم صديقاتها بهو القصر حتي خرجت «إسعاد» عن صمتها قائلة :

- ولسه المشاكل والقضايا بينك و بين غاصب زي ما هي ؟

نظرت إليها «رفقة» والآسي في عينيها قائلة بصوت واهن :

- هنعمل أيه ، قدرنا ...

ساد الصمت نوعًا ما على الحضور جراء سؤال «إسعاد» الأخير التي قَلَّبَتْ المواجع نوعًا ما، لكن «رفقة» تغاضت عن ذلك فقد اعتادت على شرب المر لتصبح بحر المرارة مصرحة بأنها سَتُلْحِق ابنتها بالمدرسة تلك السنة لتسألها «شريفة» قائلة:

- وهتدخّليها مدرسة أيه ؟؟ أكيد زيك، الراهبات الأمريكان.

أومأت «رفقة» برأسها بالنفي فتعجب الجميع لتزيل دهشتهم قائلة :

- هادخلها المدرسة اللي إحنا بنيناها في القرية ، النهاردة المدرسة بتاعتنا مش أقل من مدارس الجاليات الأجنبية ودة بشهادة الجميع .

أثنى جميع الحاضرات على حديث «رفقة» مقتنعين بما تقوله فسمعة مدرستهم أصبحت مرموقة في وسط مدارس الصعيد ولا تقل شأنًا، مستعينين بمدرسين

أجانب لتعليم اللغة لذا لم يكن هناك داعٍ من وجهة نظر «رفقة» لإلحاق ابنتها بمدرسة أمريكية فالخير كل الخير في مدرستها المشتركة بنين وبنات والأهم من هذا هو تكالب علية القوم في إلحاق أبنائهم بها. أقبلت «ماري» عليهم وهي ترتدي فستانها الأزرق الجميل وحذائها الأبيض الرائع لتجد جميع الهوانم يدللونها حتي توقفت لدى «شريفة» سائلة إياها عن أولادها «طارق» و«حبيبة» لما لم يأتوا للعب معها فصرحت لها بأنهما مع أبيهما في سفر فصمتت «ماري» لبرهة لتسأل من حولها قائلة :

- طب وأنا إمتى هيبقي لي بابا علشان أسافر معاه .

خيم السكون الرهيب على جميع الحاضرين وكأن «ماري» قد فجرت قنبلة راح ضحيتها الجالسات لتمتص «رفقة» تلك القذيفة قائلة في حنان وهي تضم ابنتها قرة عينها :

- إحنا مش قولنا قبل كدة إن بابا في السماء يا ماري يا حبيبتي، و إن شاء الله لما يرجع طارق وحبيبة من السفر هتروحي تلعبي معاهم، روحي العبي مع قمر.

ذهبت الطفلة مبتعدة وقد خيم الطير على رؤوسهن لتقطع «رفقة» صمتهم قائلة:

- أيه يا جماعة ما أسكت الله لكم صوتًا، معلش طفلة ولسه مش مدركة الأمور.

أمضي الجميع جلستهم في التحاور مع «رفقة» فيما يخص الأعمال المتأخرة بخصوص جمعية نساء الصعيد وبعض الأمور الأخري المتعلقة ليجدوا رد فعل غريب من «رفقة» بأنها تريد أنْ تتنحى من كل تلك الأعمال تاركة إياها إلى «شريفة هانم أوطة» أو أي منهن لأنها تريد أنْ تتفرغ لمشاكلها العائلية والأهم من هذا تربية الطفلة. نظر إليها الجميع من غرابة منطقها هذا تاركين لها فرصة في التفكير مرة أخرى حاسبين لها أنها أول سيدة في القرية منذ زمن فكرت في إقامة تلك المشاريع الخيرية التي لن يأتي أحد الآن لزعزعة مكانتها بسبب ما تمر به من ظروف قهرية ليس لها يد بها، ولن يدعو لها الفرصة بأن تفكر بتلك الطريقة الشاذة تاركين إياها لتهدأ أو تفكر من جديد. استأذن الجميع بينما تبقت «تحية» فقط لبعض من الوقت قائلة لها باهتمام :

- أيه اللي مغيرك يا رفقة، عايزة أي حاجة ومراد قَصَّرْ معاك.

نظرت إليها «رفقة» باهتمام أمام ذلك الاهتمام المبالغ فيه لتشكرها على كل ما قدمته هي و زوجها «مراد» الذي والشهادة لله لم يترك عائلة عمه وحيدة بل وقف يؤازرها، وبالذات «رفقة» حيث أدار لها جميع أعمال الأرض التي تبقت لها بعد قسمة الميراث ولم يبخل بوقته حيث يشرف بنفسه على تحصيل الإيجارات من عمارة الزمالك بعد أنْ وقعت من نصيب «رفقة» بالميراث ليأخذ أمامها «غاصب» فيلا الإسكندرية مرتضيًا بهذا بعد إلحاح شديد من «مراد» الأشبه بالتذلل وتقبيل الأقدام ليوافق «غاصب» ليعطي «رفقة» فرصة لرؤية رحمته. وعليه سارت الحياة لتقدم «رفقة» أسمى آيات الشكر لها ولزوجها داعية لهم براحة البال والسلام الداخلي. استاذنت «تحية» ذاهبة في طريقها عائدة إلى بيت زوجها ذلك البيت القديم الذي كانت تقطنه عائلة «وفيق» من قبل، ولكن بعد بناء القصر الخاص «بغاصب» انتقل هو و أمه تاركًا أخيه بناء على رغبته في بيتهم الصغير القديم حيث رفض الأخير الذهاب معهم معتبرًا تلك الأموال ليست سوى أموال دماء وتلك الأرض هي أرض الدم، لذا لم يرضخ لطلبهم بالانتقال معهم مفضلًا هو الاحتفاظ بالبيت القديم ولم تمانع «تحية» في الانتقال إليه بعد زواجهما. وبينما هي في طريقها مرت عربة «غاصب» وهو بداخلها فنظر إليها مبتسمًا فأصابها الرعب والنكد الشديد فهي لا ترتاح لوجهه أبدًا وما أنْ يظهر في يومها حتي ينقلب رأسًا على عقب مصيبًا إياه بالنحس لذا تتعمد أن تتحاشاه دائمًا وكلما ذهب «مراد» بالأعياد ليلقي تهنئة العيد على أخيه وأمه تعللت هي بأي شيء حتي لا تذهب معه. وقد لاحظ «مراد» أكثر من مرة تكرار هذا الأمر مستفسرًا فلم يجد إجابة فظن أنه ربما لا تحب مجالستها لسبب أو لآخر فيمكن أنْ يكون قد استعمل «غاصب» معها سياسته السمجة أو أنَّ أمه قد قذفتها بكلامها الأشبه بالقنابل المدوِّية؛ لذا ترفض أن تذهب معه، لكن الحقيقة مختلفة تمامًا «فتحية» رأت أنَّه من الأفضل دفن الماضي في قبره و دم الإفصاح به أبدًا لذا لم تفصح لزوجها عن مدى سوء علاقتها مع زوجها المرحوم ولم تتفوه ببنت شفة عن علاقتها غير الشرعية «بغاصب» أو قذارة المأمور معها لتبدأ عهدًا جديدًا مع «مراد» بدون أي معرفة أو شفافية مكتفية بإعطائه الحب والحنان والاهتمام.

- انتقلت «رفقة» من موقعها بهو القصر إلى مكتب زوجها مختلية بنفسها وقد أصبح الآن مكتبها لتدير منه جميع أعمال العائلة الصغيرة، جلست على مقعدها الجلدى خلف المكتب مواجهة صورة حماتها و زوجها فلولا «روجينا» هانم لكانت «رفقة» الآن في خبر كان فهي التي عدلت كفة الميزان قبل موتها حيث أرشدت «رفقة» إلى مكان ذهبها الذي يقدر بثروة طائلة. ومن ثم نقلت جميع حسابات البنوك الخاصه بها باسمها إلى اسم «رفقة» وحفيدتها «ماري» وهو مبلغ لا يُستهان به حصلت عليه المرحومة من إرثها الشرعي من أبيها الباشا وجزء آخر تركه لها زوجها باسمها هي؛ لكي تجد ما يعينها إذا ساءت الأمور من بعده وبالفعل حدث ما كان متوقعًا، أنْ تُكشِّر الأيام عن أنيابها في وجه عائلة «دوس» ولم تكتف«روجينا» بل قامت بنقل جميع ما تمتلكه من عقارات بالإسكندرية وفيلا بمصر الجديدة إلى ابنتها «رفقة» لتودع الحياة وقد اطمأنت أنَّ ما حدث مع ابنها لن يحدث معها بعد وفاتها لتؤمِّن «لرفقة» وحفيدتها حياة كريمة ولا يمدان أيديهما لسائل أو غريب. وهذا ما ساعد «رفقة»على الوقوف على قدميها والصمود أمام العالم القاسي الذي يريد الفتك بها متمثلًا في «غاصب» وأمه.

دارت بمخيلة «رفقة» كل تلك الأفكار في ذكرى وفاة زوجها التي تحرص على إحيائه كل عام و توزيع المأكولات والنقود رحمة و نور على روحه. مقيمة القداس الإلهي بالكنيسة مترحمة على زوجها و بعدها تزور المقابر التي دفن فيها وهي تراعي أنْ تمارس ذلك الطقس في مناسبه ذكري رحيل زوجها وحماتها و ربنا لا يقطعها عادة سوى بنهاية حياتها على الأرض. طرقت «رئيفة» على باب المكتب لتسمح لها «رفقة» بالدخول فوراً سائلة عن حالها وحال ابنتها «قمر» فما من «رئيفة» إلا أنْ شكرت السيدة على مشاعرها داعية لها بطيلة العمر وابتعاد أولاد الحرام عنها وعن ابنتها وعليه سألت «رئيفة» معروفًا فأمعنت «رفقة» النظر إليها متسائلة عن ماهية هذا المعروف فهي لا ترفض طلبًا لها أبدًا قط معتبرة إياها صديقة عزيزة غالية؛ لذا لم يكن طلبها سوى السماح لابنتها بالالتحاق بالمدرسة للتعلم فهي لا تريد لابنتها «قمر» أنْ تصبح جاهلة. فرحت «رفقة» لهذا الطلب موافقة عليه بدون شك بل وأكثر من

هذا أعطت «لرئيفة» تصريحًا بالإعفاء من المصاريف حتي تنتهي «قمر» من تعليمها الأساسي ولتكن هي و»ماري» في مدرسة واحدة صديقات مخلصات لبعضهن، فهن قد تعودن على اللعب مع بعضهن وكثرة اللقاءات الطفولية الممتعة التي لا مانع في أن تمتد إلى الحياة المدرسية ليصبحا زميلتين. وبينما «رئيفة» تغادر المكتب التفتت إلى «رفقة» مرة أخري قائلة:

- يا ست هانم عايزة أخد مشورتك.

استغربت «رفقة» من حال «رئيفة» اليوم داعية إياها إلى التحدث لتقول لها :

- أنا النهاردة أتقدملي السنباطي أخو المرحوم وعايز يتجوزني و يربي بنت أخوه، أيه رأيك يا ست هانم.

تعجبت «رفقة» من سؤال» رئيفة «الذي يخص حياتها الشخصية الداخلية التي تشركها فيها الآن لتجد نفسها تقول لها:

- بس أنا كنت أسمع من منير الله يرحمه إن السنباطي شقي ومش بتاع جواز.

وضعت «رئيفة» يدها اليمني على خدها قائلة:

- دة كان زمان يا ست هانم، لكن دلوقتي ربنا هداه وبقي يعرف ربنا أحسن من الأول .

- طب وهو بيشتغل أيه دلوقتي .

- هو ماسك شغلانة صغيرة في الجماعة .

نظرت إليها «رفقة» باندهاش واستغراب متسائلة عن ماهية تلك الجماعة لتشرح لها «رئيفة» كما أفهمها «السنباطي» أنهم جماعة بتخاف ربنا ومترضاش بالظلم وبتساعد الناس في فعل الخير وهو بيشتغل معاهم سواق على عربية نصف نقل، لكن يبدو أنَّ السن كبر به وفاض به الكيل من ذلك العمل؛ لذا فهو يستسمح الهانم في أن يقوم بأعمال أخيه القديمة في إدارة شئون الأرض مما وضع «رفقة» في حيرة من أمرها فهي لا تعرف ماذا فعل به الزمن؟ لكنها لا تثق في كلام «رئيفة» لتصمت برهة من الوقت مفكرة لتسألها سؤالاً عميقًا نوعًا ما قائلة :

- وأنت محتاجة راجل جنبك يا رئيفة .

أجابت «رئيفة» بعد ثواني من الصمت قائلة وقد بدأ على وجهها الحزن:

- يا ست هانم كل يوم قمر بتسألني ليه كل العيال عندهم أبهات وهي لا، نفسها في أب تمسك إيده وتتباهي بيه وسط عيال البلد وبعيد عنك يا ست هانم أنا من بعد ما أم جعود تعيشي أنتِ والدار بقت فاضية علي وأنتِ عارفة كلام الفلاحين مبيخلصش وكل يوم والتاني زن على ودني لأجل إني صغيرة ولازم أتجوز.

صمتت «رئيفة» منتظرة رد الهانم الذي لم يكن سوى أنْ تبعث لها «بالسنباطي» في أقرب فرصة للتحدث معه والتأكد من صدق نواياه ورؤية ما فعل الزمن به فتهللت أسارير «رئيفة» شاكرة الهانم على إحساناتها معها وابنتها.

- ابنتها البكرية وهي وحيدة على ثلاثة صبيان، قلت أيه يا غاصب يا ابني.

تطلع «غاصب» إلى أمه التي جلست تحيك الكنافاه كعادتها كل صباح في نور ربنا بشرفة القصر المطلة على الحديقة الواسعة الغناء وهو بجانبها يحتسي القهوة ناظرًا إليها بتمعن قائلًا:

- مش وقته يا ماما جواز دلوقتي .

التفتت أمه إليه تاركة الكانفاه جانبًا قائلة بحدة نوعًا ما:

- أمال إمتي، دي بنت مدام روز تتاقل وزنها ذهب وأهلها كلهم بيشتغلوا في الذهب يعني جوازة ذهب في ذهب .

- ما أنا عندي ذهب برضه.

- يبقي أصرف من ذهبهم ومتصرفش من ذهبك، يا ابني أنت كبرت خلاص ومفيش حاجة تنقصك.

نظر إليها «غاصب» بتمعن شديد قائلًا:

- لا، لسه فاضل حاجة واحدة .

سألته أمه بشغف فضولي قائلة :

- أيه هي؟

دخل عليهم «مراد» ملقيًا تحية الصباح ليصمت كل منهما عن حديثه حيث ألقت أمه عليه تحية الصباح بينما فتح «غاصب» الجريدة ليقرأ فيها فأعاد «مراد» إلقاء الصباح مرة أخرى على «غاصب» الذي أزاح الجريدة مصطنعًا ابتسامة بلهاء على وجهه عائدًا لقراءة الجريدة. وضع «مراد» العكاز بجانبه ليجلس بجانب أمه على الأريكة سائلًا إياها عن حالها ولم تكن إجاباتها سوى مقتضبة بشدة حتي سألته قائلة :

- هو أيه أصله دة، بقالك سنين متجوز ومفيش عيل واحد يوحد ربنا .

امتقع وجه «مراد» لا يعرف بما يجيب أمه ليجد أخاه يقول بسخرية:

- تقريبًا اتكتب على رجالة العائلة دي إنها متعرفش تعشّر .

لم يعجب «مراد» من مثل ذلك النوع من المزاح السخيف الذي يشتهر به أخوه منذ زمن لذا فضَّل الصمت واجدًا أخيه ينظر إليه قائلًا:

- أيه أخبار مراتك، أبقى سلملي عليها.

قالها بسخرية تلاها بضحكة مستهزئة جعلت «مراد» يقرر الانصراف لتُوقِفه أمه سائلة إياه عن سبب زيارته، فلم يكن منه إلا أنَّه ذكّرهم بالذكري السنوية لأبيه بعد أيام، إذا كان أحد يحب أن يذهب معه إلى المدافن فلم يعره أحدٌ انتباهًا ومضي في سبيله يجر أذيال الخيبة .

- خيبة شديدة، حرقتوا دكانين للنصارى بس، الحال دة مش هينفع لازم تحرقوا أكتر .

نظر أتباع «الجنبلاطي» إليه مستغربين من منطقه هذا فهو من أعطي لهم الأمر بحرق تلك المحلات و ها هم قد فعلوها فلماذا التذمر الآن ليسأله أحدهم قائلًا:

- يا مولانا لقد نفذنا ما أمرت به بالحرف الواحد.

أخرج «الجنبلاطي» السواك من فمه باصقاً على الأرض قائلًا:

الجهاد في سبيل الله لا يحتاج إلى أوامر يا إخوة، أنا قلتلكم دكانين لكن لو كان جنبهم فيه حاجة تاني يملكها نصراني كتم حرقتوها وأهوه كله بثوابه يا إخوة .

نظر الإخوة إلى بعضهم لاعنين الغباء الذي حل عليهم واعدين إياه بأنَّه في المرة القادمة سيحرقون كل ما يجدونه أمامهم حتي الكنيسة أيضًا. ليعدهم هو أنَّ العملية القادمة ستكون شديدة ومؤثرة. خرج «الجنبلاطي» في جنح الليل من منزله بعد أنْ ألقي السلام على رفقائه الذين تركوه ليسير وحيدًا حتي التقى «بالسنباطي» في الطريق مستفسرًا عن حاله ليعلمه الأخير أنَّ «رفقة « قد طلبت لقائه فشجعه «الجنبلاطي» على المضي قدمًا في ذلك الطريق حتي وصلوا إلى وجهتهم ألا وهي بيت «متوشالح « أفندي الذي وقف بانتظارهم خارج الدار لأنَّه يعلم مسبقًا بحضورهم ليدخل الجميع إلى داره جالسين أمام «مستر بلاك» الذي ما أنْ رآهم حتى ألقي عليهم السلام باللغة العربية الهشة التي ينطقها قائلًا:

- السلاموا علكم و رحمة الله و بركاته .

لم يمض وقت حتي وُضِعَتْ صينية الشاي أمامهم و»متوشالح» يترجم «لمستر بلاك» ما يقوله» الجنبلاطي « متسائلًا و»مستر بلاك» يجيب ومن الأسئلة التي لم ير»بلاك» داعيًا للإجابة عليها إلحاح «الجنبلاطي» في معرفة طلب حرق دكاكين المسيحيين، فلم يجد» بلاك» أي داعي لأن يجيب على تلك الأسئلة في مقابل أنَّه لا يسأله عن ما طلبه في المقابل ألا وهو السلاح، لم يسأله ماذا فعل به ؟ وقد تم جلبه من الجيش الإنجليزي مما جعل «الجنبلاطي» يبلع ريقه بصعوبة مفضلًا ألا يسأل ثانية. و»بلاك» على علم لأن ذلك السلاح يستخدم لتأمين الجماعة ضد الحكومة و لفرض سيطرتهم على من حولهم بالقوة محاولين الوصول للسلطة وما «بلاك» إلا وسيلة جيدة لتوصيل الحرارة بين الإنجليز والجماعة؛ لذا لا مزيد من الأسئلة التافهة التي تطالب بزيادة المعرفة وليركزوا أكثر على سبل التعاون المشترك بينهم لأن ما يطلبه «بلاك» الآن صعب جدًا إنّه يريد أنْ يحرق كنيسة القرية التابعة للكاهن أغابيوس نفسها مما جعل «الجنبلاطي « ينظر إلى «السنباطي» صامتًا لا

يدري ما يقول وفي النهاية طلب مهلة من الوقت لمشاورة الجماعة فذلك عمل كبير جدًا.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٢٠-

- كبير جدًا ومناسب، ألف مبروك نقرأ الفاتحة.

نظر المقاول إلى «عمرو» أفندي المتكلم آخذًا «مينا» أفندي صديق «عمرو» على جنب قائلًا:

- أنت مقلتليش إنّ اللي جاي يأخد المطرح مسلم .

شعر «مينا» بالحرج الشديد وأنّه غارق وسط هدومه من العرق الشديد الذي حل به فجأة. ذاكرًا للمقاول أنّ»عمرو» أفندي رجل محترم و ابن ناس و يعرف الأصول ، أنهي عمرو قراءة الفاتحة ليجد عم «جاب الله» يضع يدة في يد «عمرو» قائلًا بجدية شديدة :

- آمين يا حج، معلش أعذرني أنا مبسكنش مسلمين عندي، فرصة سعيدة.

تركه «جاب الله» وحيدًا هو و»مينا» والأخير ينظر إليه وقد هرب ماء وجهه وغطى العرق جبهته بغزارة محاولًا إيجاد ريقه داخل فمه لابتلاعه، وهو لا يجد ما يرد به على «عمرو» الذي أصابه الذهول والاندهاش من موقف «جاب الله « الغريب جدًا؛ فهو ما صدق أنْ وجد شقة لابنه الذي سيتزوج خلال شهر وقد أعجبته جدًا فهي بحري ومبنية بالطوب الأحمر وسعرها مناسب له لذا ما المانع؟ ما علاقة دينه بالشقة؟! ليصبح ذلك لغزًا، حتي «مينا» لم يعرف حله واعدًا صديقه الوحيد

obeikandl.com

بأنه سيعرف السبب أو سيجد له أفضل منها فابن «عمرو» كابنه بالضبط. وبالفعل حاول «مينا» كثيرًا أن يعرف السبب من «جاب الله» فلم يستطع حتى انتزاع كلمة وكل ما نطق به جاب الله.

- أنا مبسكنش عندي مسلمين، أنا حر.

- أنت مش حر أبدًا، أنت فاهم، امش من سكات.

وجهت «رفقة» حديثها إلى «رعد» حصانها العزيز إلى قلبها وهي ممتطية إياه؛ حيث بدأ في التمنع وعدم السير لتجد نفسها تنطق بتلك الكلمات فنظرت إليها «شريفة» ضاحكة قائلة:

- بقيتي مستبدة يا رفقة، الزمن غيرك، أكيد رعد تعب من صوت ضرب النار، يالا بينا نرجع.

اغتاظت «رفقة» مما فعلته لتعود مرة أخرى إلى القصر برفقة «شريفة» لتجد «مفيدة « في انتظارهما تحتسي الشاي قائلة:

- أهلًا بالصيادتين هتأكلونا حمام النهاردة ولا أيه.

ابتسمت كل من «رفقة» و«شريفة» وهم يترجلون من على الجياد ذاهبين مقبِّلين «مفيدة» جالستين معها و«لبيب» يضع فناجين الشاي أمامهم لتقول «رفقة»:

- والله أنا مش عارفة لو شريفة مكنتش بتصطاد معايا كان الصيد هيبقي ماسخ جدًا.

ابتسمت «شريفة» قائلة :

- دة أنتي اللي وشك حلو عليّ.

مفيدة: إحنا هندعي مين الشهر دة في الجمعية .

نظرت «رفقة» إليهم بتمعن سائلة «شريفة» التي صرحت بأنها فكرت في استضافة مدام «إستر هانم فانوس» أحد مؤسسي الاتحاد النسائي المصري، أيه رأيكم؟

ظهر الارتياح لقبول تلك الشخصية على وجوه الجميع بينما قررت «رفقة» بالخوض في

موضوع تركها العمل الاجتماعي والتفرغ إلى تربية ابنتها حيث سيتم إلحاقها بالمدرسة قريبًا، وهي تريد أنْ تراقبها، قوبل هذا الرأي برفض من كل من «شريفة» و«مفيدة» حيث أنها لا يمكن أن تتخلى عن حلمها الجميل بإنشاء مستقبل أفضل لأهالي القرية وما حولها من نجوع حيث بدأت الحياة تدب في أهلها؛ فالمستوصف الخيري ودار الأيتام وأخيرًا المدرسة وجمعية نساء الصعيد للاهتمام بشئون المرأة لأدَلَ الوقائع المثمرة على رحلة كفاح بدأت منذ سنوات ويجب أنْ تستمر وأنّه مهما أداروا العمل بكفاءتهم فلن يجدوا مثلها في حكمتها وخبرتها التي اكتسبتها على مر السنوات السابقة ناصحين إياها بالعمل فهو خير دواء لحالتها تلك حتي لا تُصاب بأمراض الاكتئاب أو تشعر بالوحدة ويكفي أنها انقطعت عن العمل بعد وفاة المرحوم مدة كبيرة ولم تعد منذ وقت قريب لذا عليها عدم الارتداد إلى الوراء مرة أخرى ولم تجد «رفقة» سوى الرضوخ لرأيهما السديد الذي اقتنعت به تمام الاقتناع .

انتهي اللقاء المعتاد على أن تمارس «رفقة» أعمالها كطبيعتها وإذا رأت ضرورة للاختلاء بابنتها ففي هذه الحالة أيًا منها يحل محلها. استأذنت «مفيدة» لانشغالها ببعض الأعمال المنزليه تاركة «شريفة» و«رفقة» اللتان دلفتا إلى حجرة المكتب لمراجعة بعض الأعمال الخاصة بدار الأيتام والجمعية ليدخل «لبيب» عليهما معلنًا وصول المعلم «جاب الله «المقاول. يبدو على وجه «شريفة» الاستغراب بينما تبتسم «رفقة» طالبة منها الجلوس والاستماع بعناية لما سيحدث. دلف إلى المكتب المعلم «جاب الله» ذلك الرجل البالغ من العمر الخامسة والستين، قصير القامة بدين مرتديًا جلباب بُني غامق وعلى رأسه يضع الطاقية وبيده عصا خشبية ميز بها أنها أطول من احتياجه؛ لذا فهي للمنظرة والأبهة فقط وليست لدرء عيوب الزمان في الإنسان، ألقى المعلم السلام على الحاضرتين ليردا عليه بالمثل لتطلب منه «رفقة» أنْ يستريح ليبدأ هو بالتحدث بثقة قائلًا:

- أنا لما شيعتيلي حضرت لك يا هانم متأخرتش وجيت على طول، الأخ لبيب قابلني في الكنيسة وقاللي سعادتك قصداني في شغل، أمُري يا ست هانم .

ابتسمت «رفقة» بهدوء من بساطة هذا الرجل واقتحامه صلب الموضوع بدون مقدمات وعدم إضاعة وقت لتجد نفسها تقول له ببشاشة:

- تشرب أيه الأول يا معلم .

وضع» لبيب» الشاي أمام المعلم بُنَاءً على طلبه ومن ثم عرفته «رفقة» بمدام «شريفة» وما لفت انتباه «رفقة» هو عدم اهتمام «جاب الله» بالأمر تمامًا لا سيما إلقائه التحية مجددًا شاربًا الشاي وهو ساخن جدًا، سألته «رفقة» عن بلده فبيدو أنَّه ليس من أهل القرية فلغته تظهره حيث أنَّ «رفقة» معتادة على نطق اللغة العربية لأهل القرية أما «جاب الله «هذا فلا ينطق الجيم في كلامه ليرد عليها «جاب الله» بأنه من أحد قرى المنيا و يعول أربع بنات وصلن إلى سن الزواج ومن صغره وهو يعمل بمجال المقاولات والبناء ليصمت برهة من الوقت راشفًا من فنجان الشاي لتسأله «رفقة» عن سبب استقراره ببلدتهم فما منه إلا أنْ أخذ نَفَسًا عميقًا مخرجًا إياه دفعة واحدة ساردًا قصته التي لم تتعدَ كونه مواطنًا مصريًا بسيط قضى أغلب أيامه بقريته عاملًا كادحًا في تربية بناته مكافحًا في تحقيق ذاته حتي أنَّه من عامل بناء صغير وصل بمجهودة إلى مقاول بناء ليبني العديد من البيوت بقريته والقري التي حوله، حتي أنها إذا سألت عليه لن تغلب في الوصول إلى أعماله بالمنيا حتى حط بقريتهم أناس غُرْبٌ ملتحون قاموا بنشر سمومهم وسط أبناء القرية الغلابة فكريًا وماديًا على حد وصفه ليقنعوهم أنهم جماعة الله على الارض وأنهم سيعلمونهم كل شئ عن الله سبحانه وتعالى وأنَّ المسلم الحق يجب أنْ يكون منهم ليمدوا يد العون إلى أهل القرية المسلمين ومن ثم إنقاد لهم فئة كبيرة. ليبدأ جزء جديد من التعليم ألا وهو طرد النصارى من القرية، ولكن ليس قبل سرقتهم وتدمير منازلهم وعليه هب البعض من أهل القرية تقودهم تلك الجماعة في الهجوم على الكثير من بيوت المسيحيين لتدميرها وحرقها وطرد من بها ونجوت بما يمكن إنقاذه وفي رقبتي أربع بنات وأمهم هاربًا من الجحيم بعد حرق منزلي لأستقر في قريتكم. أنهي قصته منهيًا فنجان الشاي شاكرًا اهتمام الهانم وحسن ضيافتها ليخيم الصمت بشكل مطبق لتقطع «شريفة» صمتها قائلة:

- بالهناء والشفاء، كمل يا معلم وبعدين.

- ولا بعدين يا هانم، حطيت في بلدكم وابتديت أشتغل شويه بشوية ورجعت أبْني بيوت تاني.

استفاقت «رفقة» من صمتها الأشبه بالغيبوبة الوقتية لتستعيد آلامها أمامها ممونة عليها كارثتها أمام المأساة التي ذكرها «جاب الله» الآن فعلى الأقل هي لم تطرد والعدو لم يكن سوى من العائلة لذا عادت سريعًا إلى أرض الواقع بينما تدخلت «شريفة» مرة أخري قائلة :

- و الحكومة عملت أيه يا معلم .

ابتسم «جاب الله «بسخرية قائلًا:

- اتفرجت علنا من بعيد .

ظهر الاستياء الشديد على وجه «شريفة» بينما ذكرت «رفقة « أنَّه قام ببناء منزل في الناحية البحرية للقرية ويقوم بتسكين الناس به لذا فهي تريد أنْ تشتري هذا البيت. ليبدأ الشك يدب في قلب «جاب الله» ذلك الرجل المخضرم الذي دقت على رأسه الطبول ولا يُستهان به بالمرة فعليها قرر سؤال «رفقة» هانم صاحبة هذا العرض قائلًا:

- بس دة بيت مش أد مقامك يا ست هانم، دي بيوت ناس غلابة .

ردت عليه «شريفة» :

- ما إحنا برضُه ناس غلابة يا معلم .

- العفو يا ست هانم، العين متعلاش عن الحاجب برضه .

ردت «شريفة» قائلة:

- تبيع البيت بكام يا معلم ؟

نظر المعلم بتمعن إلى كلتا السيدتين يريد التوصل إلى حقيقة الأمر وراء استدعائه ليسأل «رفقة» عن نشاطها لتصرح له بأنها تدير ملجأ أيتام و بعض المشاريع الخيرية

لصالح أهل القرية الذي أصبح واحدًا منها الآن لتلمع أعين «جاب الله» مبتسمًا ممنئًا نفسه على ذكائه الفطري قائلًا:

- بيت الأيتام اللي عمرو أفندي شغال سكرتير فيه، وضحت الرؤية كدة يا ست هانم، أنا آسف معنديش بيوت للبيع .

نظرت إليه «رفقة» باستغراب متسائلة باندهاش:

- يا معلم أنا رفقة هانم خياط اللي هاشتري البيت منك مش عمرو أفندي .

ابتسم «جاب الله» بثقة زائدة مظهرًا حنكة السنين قائلًا:

- يا ست هانم أنا راجل كبير سن وسناني دي ما اتخلعتش ببلاش وشعري أبيض مش صبغة واسمي جاب الله ، يعني كل اللي يجيبه ربنا خير ، اطلبي أي طلب تاني مني، لكن البيت دة مش هابيعه علشان عمرو أفندي يسكن فيه أو حد من طرفه.

نظرت إليه «شريفة» غير مصدقة ما تسمعه متسائلة عن السبب فلم يكن رده سوى:

- أنا حلفت على الإنجيل إني لا أسكن مسلم ولا أشَغِّل مسلم معايا .

استأذن «جاب الله» تاركًا الجميع في حيرة من أمرهم أمام هذه النوعية الجديدة التي قذف بها القدر على قريتهم البسيطة متسائلين فيما بينهم عن ماهية الناس الملتحين الذين أصابوا قرية «جاب الله «بداء الكراهية و الطائفية مفرقين بين أبنائه مسلمين ومسيحيين وكيف انقادوا أهل البلد وراء هؤلاء القوم، وتحت أي مسمى يقودوهم وهم بتلك الطريقة البربريه الهمجية؛ لأنَّه مما لا شك فيه أنَّ الدين بعيد كل البعد عن أعمال العنف تلك داعيتن الله أنْ لا يصيب قريتهما مثلما أصاب قرية «جاب الله»، الحريق.

- وهو الحريق ملقاش غير محل المقدس «كرم» ومحل المعلم «غطاس» ويمسك فيهم طب ما يمين محل الحج «عبد الرسول» البقال ومن الشمال محل عم «إسلام» العلاف إشمعنا دول لا ...

ضرب «الزعتلي» كفًا على كفٍ بعد أنْ قال جملته ليمسك بالشيشة الخاصة به مدخنًا في صمت بينما الأستاذ «القلعاوي» جالسًا وعلى وجهه علامات الحسرة وخيبة الأمل لِما يحدث ليرتشف آخر قطرة من كوب الشاي الخاص به قائلًا:

- الحال بقي في القرية مش ولا بد أبدًا، هي الناس اتغيرت ولا أيه.

ألقي ببصره ناحية الإخوة الملتحين الجالسين في أحد جوانب القهوة يحتسون إلنسون ويهمسون مع بعضهم يكاد لا يسمع لهم صوت بالمرة ليقاطعه «الزعتلي» هامسًا بصوت منخفض:

- والنبي وطي صوتك يا أستاذ قلعاوي، الناس دي غريبة وكلامها مش كويس على الكل .

تكلم الأستاذ بنفس نبرة صوت المعلم قائلًا:

- ودة ميطمئنش بالمرة يا معلم، الناس دي بتقول كلام يخالف الشرع والشريعة ويتمسحون برداء إسلامنا الحنيف، أنا عندي إحساس رهيب إن هما اللي وراء حرق الدكانين .

دخل «متوشالح» إلى القهوة متفاخرًا بنفسه ملقيًا السلام على الجميع فمنهم من بادله السلام ما عدا الجماعة الملتحية التي لم تأبه لدخوله. جلس طالبًا شاي فيأتي له «كبس الهواء» بطلبه في الحال ليجد «متوشالح» يسأله عن حاله وحال أمه المريضة فيجيب الآخر عليه بأن الأمور تسير يومًا بالطيب ويومًا بالسيء فعرض عليه «متوشالح» خدماته إذا احتاج إلى أي شئ ليأتي فورًا إلى كنيسة «مستر بلاك» سائلًا عليه في أي وقت؛ لأنَّ الناس لبعضها وفي النهاية الخيرللجميع والبركه في «مستر بلاك» ليستطرق «متوشالح» في الحديث بعد رشفة لجرعة من الشاي الساخن شارحًا بصوت عالٍ ليسمع من بالقهوة أنَّ «مستر بلاك» من حنانه الزائدة زار المتضررين من حريق محلاتهم معوضًا إياهم؛ لكي يعودوا من جديد مفتتحين محلاتهم ممارسين أنشطتهم لأن كله إلا أكل العيش و الرزق والله يسامح ولاد الحرام إذا كان فيه وليسترها الله على الجميع وربنا يكثر من خيرك يا «مستر بلاك.

استقع جميع الحاضرين بالقهوة لما أذاعه الآن «متوشالح» أفندي لينقسم رأيهم ما بين من هو غير مهتم مثل أهل الجماعة الملتحين وبين من تعاطف وأيد ما فعله «بلاك»، وآخرون استهجنوا هذا معتبرين أنَّه واجب عليهم كأهل البلد ليرتكنوا في النهاية إلى مبدأ العين بصيرة والإيد قصيرة وأنهم كلهم في الهواء سوا، لذا كيف سيساعدون وهم في مسيس الحاجة إلى المساعدة ومن يأخذ بيدهم. قام «متوشالح» أفندي داعيًا إياهم إلى كنيسة «مستر بلاك» التي ظهرت فقط لتحل جميع المشاكل في ذلك الوقت الذي كثرت فيه المصائب المتتالية مما جعل» قلعاوي» يتسائل :

- يا متوشالح أفندي يا أخويا، هو مين مستر بلاك دة اللي عمال يساعد الناس؟

لم يعرف بما يجيب «متوشالح» في البداية ليجد نفسه بعد أنْ أجهز على كوب الشاي ناهيًا إياه يصف «بلاك» بأنَّه من أهل الخير والكرم في زمن قل فيه الكرم وأنَّه مهتم بحال أهل البلد في ظل غياب الوعي الحكومي، وتجاهل المملكة المصرية لمتطلبات أهالي الكفر وغرق الملك الماجن في ملذاته وشهواته تاركًا شعبه غارق في بحر الظلمات الرهيب، لا يمد له يد العون لذا «فبلاك» هدية من السماء ليمد لأهل البلد العون ناشرًا المحبة بين الجميع غير مفرقٍ بين أحد عازمًا على إقامة مشاريع خيرية من أجل إفادة أبناء القرية ليجد «الزعتلي» مواجهًا إياه قائلًا:

- طب ما إحنا عندنا مشاريع كويسة والبركه في البهوات والبشوات اللي زي رفقة هانم و شريفة هانم و حسنين بيه وكتير من أمثالهم .

دخلت الجماعة الملتحية في الحوار فارضة نفسها ليقول أحدهم:

- دي فلوس حرام وأصحابها كفرة وزنادقة لا يعرفون الله، كل البهوات والبشوات مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير، هؤلاء الخونة عملاء الإنجليز الأوغاد المحتلين للبلاد.

نظر الجميع باستغراب لهذا المنطق العجيب الذي خرج به عليهم هؤلاء القوم الذين لم تتضح ملامحهم بعد، أبناء ليلة أمس على رأي «الزعتلي» الذي احتج على هذا

الكلام قائلًا:

- لا حاسب يا ابني أنت وهو اللي أنتم بتتكلموا عليهم دول فيهم أناس أفاضل وإحنا عارفينهم من قبل ما نعرفكم ونشوفكم وخيرهم على البلد.

ابتسم أحد الملتحين بسخرية هامسًا إلى زملائه بصوت خفيض قائلًا:

- عندما يهرم الإنسان لا يدرك ما يقوله .

لم يعجب «الزعتلي»هذا الفعل فصاح بصوت عالٍ قائلًا:

- ومن عادة الرجالة لما تتكلم إنهم يعلوا صوتهم لما يكونوا بيكلموا رجالة زيهم وأكبر منهم مش يهمسوا زي النسوان .

اغتاظ الرجل ذو اللحية قائلًا وهو يغادر ومعه زملائه :

- عندما ينتشر الفساد ويعم الأرض يختلط الصالح بالطالح وعملنا هو تنقية الصالحين من الطالحين وسيحدث يا قرية الطين .

غادر إلاخوة الملتحون القهوة و «القلعاوي» ينظر باستغراب إلى «الزعتلي» متسائلًا عن من هم الصالحين ومن هم الطالحين ليؤكد له المعلم أنَّ أولئك العيال قد جنت فهو يعلم أصلهم و فصلهم، من كان منهم صايع بلا عمل ومن كان منهم يبحث عن الغوازي لاهثاً وراء شهواته مضيعاً أمواله عليهم. وهكذا الآن يريدون أنْ يصبحوا هم حراس الأرض على الدين مقيمين الشريعة، الذين لا يعرفون كيف يقيمون أنفسهم من الوحل، تعجب جميع الجالسين بالقهوة بينما رأي «متوشالح» أنَّه بعد أنْ فعل ما عليه أن ينسحب من القهوة وما أنْ غادر حتي لحق به» كبس الهواء» سائلًا إياه عن مساعدة «مستر بلاك» فما من «متوشالح» إلا أنْ دعاه إلى زيارة كنيستهم وربنا يقدم اللي فيه الخير لأجل الجميع بدون تفرقة.

- الخير كله هيجي بس الصبر شوية.

وضع «مستر بلاك» كأس النبيذ أمامه حيث اجتمع مع «غاصب» بقصره ليهدئ الأخير واعدًا إياه بتنفيذ طلبه الذي ألحَّ عليه كثيرًا في فعله. أخذ «غاصب» كأس النبيذ خاصته الفارغ ليملأه من جديد بينما امتنع» بلاك» عن الشرب مكتفيًا بما

شربه واضعا كأسه جانبًا بينما «غاصب» تجرع رشفة من كأسه ليقول بحدة :

- أنا لو صبري نفد مش هيكون كويس ومتنساش يا مستر بلاك إني ساعدتك كتير علشان كيستك وطائفتك تكبر .

أومأ «بلاك» برأسه موافقًا على كلام «غاصب» مبتسمًا في هدوء قائلًا :

- لا تقلق عزيزي غاصب بيه، لن يمر عام ألف تسعمائة واثنين وخمسين الذي نحن في بدايته إلا وتحصل على البهوية من جلالته، وبالنسبة لكل خدماتك الجزيلة فأنا ممنون لها .

تهللت أسارير «غاصب» عند سماعه لقب بيه هذا ليقول:

- اعتبره وعد، أنت وعدتني كتير لكن محددتش ميعاد قبل كدة ، اعتبر إنْ دي سَنَةِ الحسم .

- ثق تمامًا أنها ستكون سنة سعيدة على الجميع وللجميع ولكني أريد منك شيء.

نظر إليه «غاصب» بتمعن فهو يعرف أنَّه لا ينتهي من طلباته ليسأله بحذر عن ماهية طلبه تلك المرة فلم يكن من «بلاك» إلا أنْ طلب من «غاصب» إعطائه قطعة أرض ليبني عليها ملجأ أيتام لأبناء القرية وما حولها من قرى ونجوع، فوضع «غاصب» كأسه جانبًا مؤكدًا أنَّ هناك بيت أيتام بالفعل تبعًا «لرفقة خياط»، فابتسم «بلاك» مؤكدًا على علمه بهذه المعلومة، لكنه يريد أنْ يبني آخر ويغلق التابع «لرفقة» إلى الأبد أو على الأقل يجعله بلا عمل حتي يغلق من تلقاء نفسه. فتحير «غاصب» من هذا الطلب الغريب سائلًا لماذا هذا؟

شرح له «بلاك» إنَّ طائفته لم تدفع كل تلك المبالغ وتقوم بإرسال إرسالية تبشيرية هو على رأسها لبناء قواعدها هنا في مصر مبشرًا بالله لكي في النهاية تكون كنائسه خاوية ولا يتعدى عدد أفرادها المئات بينما أهل البلاد يعدون بالآلاف. فتجاذب معه «غاصب» أطراف الحديث الودي بأنَّ هذا شيء طبيعي فهو طائفة لم تتعد عمرها بضع سنوات في مصر و الآخرون كما يسميهم أهل البلد أتوا ليجدوا الإيمان قائم منذ زمنٍ بعيد لذا لا بد من الصبر و الوقت لجذب العديد من النفوس إلى

طائفته التي لازالت تُعْتَبَرْ جديدة من ناحية، ومن ناحية أخري انتشار العديد من الطوائف المسيحية الآتية من أمريكا وأوروبا أيضًا في تلك الفترة حتي أنها تعدت العشرين طائفة على سبيل المثال لا الحصر وهذا يضعف من الانتشار السريع لطائفته واجتذاب النفوس .

ظهر على وجه «بلاك» التفهم الشديد لمنطق «غاصب»، لكنه يسعى بكل الطرق لزيادة أعداد طائفته ليظهر إلى القيادات الخارجية أنَّه لا يعبث و أنَّ ما يرسلونه من أموال لا يذهب هباءً؛ لذا من الداعي الانخراط في الأعمال الخيرية والزيادة منها لجذب جميع أهإلى الكفر المسيحيين. فابتسم «غاصب» معللاً بذلك مساعدته للمتضررين من حرائق محلاتهم التي تبدو متعمدة «فغاصب» قديم في مثل تلك الأعمال التخريبية وله باع طويل بها وهو لا ينسي أنَّه من دفع لرجالة الجبل لسرقة محل الذهب؛ لذا تجرأ و سأل «بلاك» عن ما إذا كان هو وراء حريق المحلات ليبتسم الأخير ابتسامة صفراء صامتًا ليفهم بها «غاصب» كل شئ ليعاود سؤاله مجددًا عن كينونة مدبر الحادث. فلم يصرح له «بلاك» بل ظل على تلك الابتسامة الخبيثة طالبًا منه عدم سؤاله مثل تلك الأسئلة الشخصية التي تُعْتَبَرْ خطوط حمراء رفيعة لا يجب أنْ يعبرها «غاصب» بأي حال من الأحوال لأنها سياسة خاصة وبالطبيعة فهو لم يسأله عما يريدة من «السنباطي»، و لكن ما عليه تنفيذه الآن هو مساعدته في نشر تعاليم طائفته وجذب أكبر عدد من الناس إليها فما من «غاصب» إلا أنَّه لم يعده بشيء محدد فهو ليس له في تلك القصة بالمرة لأنه لا يتذكر متي آخر مرة دخل فيها إلى الكنيسة، ولكن كل ما وعده به هو أن يساعد بالمجهود فقط وتبادل المصالح المشتركة واعدًا إياه أنَّه سيجد طريقة لكي يساعدة في تدمير بيت الأيتام الموجود بالكفر وهذا ما جاء «لغاصب» على طبق من ذهب فهو بذلك سيفعل ما ينكد على «رفقة» حياتها.

obeikandl.com

-٢١-

- حياتها هتبقي أمانة في إيدك يا سنباطي أنت فاهم دة كويس .
- يا سنباطي أنا بّديلك أخت صغيرة لي ومش عايزاك تكسر بنفسها وتزعلها، رئيفة شافت أيام مش كويسة كتير وعايزاها تكون معاك مبسوطة على طول، إوعى تزعلها.

أومأ «السنباطي» برأسه بعلامة الإيجاب صامتًا لتكمل «رفقة» سرد وصاياها.

- وبالنسبة لقمر أنتَ هتبقى في مقام أبوها، لازم تكون حنين عليها دايمًا وتخاف عليها ولازم تكمل تعليمها.

أومأ «السنباطي» برأسه بالإيجاب لتكمل «رفقة»:

- وبالنسبة للشغل أنتَ هتمسك مكان أخوك الله يرحمه، هتدير العزبة بتاعتنا وتخلي بالك متجيش جنب عزبة غاصب مش عايزين مشاكل، ولو احتجت حاجة روح للأستاذ مراد أو تعال على طول.

أومأ «السنباطي» برأسه بعلامة الإيجاب لتسأله «رفقة» آخر سؤال ما إذا كان لديه أي استفسار فنفى وجود أي شيء بنيتهِ طالبًا الاستئذان خارجًا تاركًا «رئيفة» معها، آخذًا طريقه إلى مولانا «الجنبلاطي» مشعلًا سيجارة لاعنًا أبو وأم اليوم الذي وافق فيه على الموافقة بالعمل لدى تلك الأفعى المدعوة «رفقة» التي تتحكم فيه كالطفل

الصغير آمرة ناهية من أجل تلك «الرئيفة « داعية إياها بأختها الصغيرة ليتمني أنْ يحترقا الاثنان في الجحيم لاعنًا عائلة «خياط» التي تسببت في فقدان أخيه مع البيه.

- بيه، غاصب بيه يا ولد.

نظر المأمور إلى «غاصب» متناولًا كأس الخمر الخاص به متجرعًا منه، سائلًا «غاصب» قائلًا:

- يعني مقولتليش عن حكاية البهوية دي، أُفاجئ بالإخطار من السرايا الملكية النهاردة الصبح بيستعلموا عن سعادتك لمنحك البهوية.

تَطَلَّعَ إليه «غاصب» مبتهجًا بنفسه متجولًا ببهو قصره قائلًا:

- وطبعًا كتبت فِيّ شعر مش كدة.

ابتسم المأمور قائلًا بسخرية:

- طبعًا وغنيوة كمان .

جلس «غاصب» قبالته ماسكًا كأسه بكلتا يديه ليديره بين كفيه مذيبًا الثلج قائلًا في هدوء شديد:

- أيه مش مبسوط ولا أيه؟

وضع المأمور كأسه على المنضدة التي أمامه مشعلًا سيجارة منفثًا دخانها قائلًا:

- دة أنا هاموت من الانبساط وأخيرًا هنقولك يا غاصب بيه وعمومًا أنا متأكد إنك مش ممكن هتنسي اللي وقفوا جنبك ودعموك وساعدوك طول السنين اللي فاتت .

تمعن «غاصب» بحذر شديد غالقًا حدقة عينه نوعًا ما قائلًا:

- مش فاهم يعني أيه؟

ظهرت على وجه المأمور ابتسامة صفراء خبيثة قائلًا:

- لا فاهم كويس يا غاصب بيه، أنا صاحبك وحبيبك ولازم تأخذني معاك لفوق.

- ولو مش عايز .

ارتشف المأمور من كأسه جرعة من الخمر قائلًا:

obeikandl.com

- أنت حر يا غاصب بيه، بس فكري الركيب ميتسابش بالسهولة دي.

ابتسم «غاصب» قائلًا:

- مع إن أنت كل حاجة بتأخذ قدامها مقابل، أنا هيبقي المقابل بتاعي أيه لما أخدك لفوق .

اعتدل المأمور في مجلسه ناظرًا إلى «غاصب» بقوة قائلًا:

- مش مهم يكون فيه مقابل، أنت نسيت إني أنا اللي قفلتلك ملف قضية قتل ابن عمك مع إن المسدس التسعة مللي ماركة سميث معروف بتاع مين.

انتصب «غاصب» من مجلسه مبتلعًا ريقه بصعوبه قائلًا:

- وأخدت فدانين أرض، عايز أيه تاني؟

- عمرك يا غاصب بيه، أنا وأنت واحد إوعى تنسى دي، طول ما أنا عايش على وش الدنيا أنت عايش بحسي.

رأى «غاصب» أن يداهن فيبدو أنَّ الليلة ليست هي المناسبه للهجوم على هذا الثعلب الذي ملَّ من وجوده في حياته ليقول مصطنعًا الدعابة:

- أنت الواحد ميعرفش يهزر معاك يا أخي .

أَخَرَجَ»غاصب» محفظته الجلدية من جيب بزة بدلته مخرجًا منها نقودًا كثيرةً معطيًا إياها إلى المأمور قائلًا:

- دي حلاوة جواب البهوية، ويوم ما أحلف اليمين قدام جلالته ليك عندي هدية تانية.

- أخذ «فكري» النقود محصًيا إياها وعلى وجهه ابتسامة عريضة ليضعها في جيبه قائلًا:

- هدية مقبولة.

ابتسم «غاصب» بخبث مستغلًا وجود المأمور طالبًا منه طلبًا بسيطًا ألا وهو أن يذهب إلى رجال الجبل بالنيابة عنه والاتفاق معهم على تنفيذ عملية بيت الأيتام

فأغلق «فكري» حاجبيه متسائلًا عن تلك المهمة التي لها علاقة ببيت أيتام وما علاقة أهل الجبل الأوباش ببيت الأيتام؟ فبدأ «غاصب» يشرح «لفكري الركيب» الذي ما أنْ أنهي خطته حتي لمعت أسنان «فكري» التي ظهرت نتيجة الابتسامة الخبيثة طالبًا معونة مالية قبل أي شيء فمثل تلك النوعية من المهمات الصعبة تحتاج إلى إعداد وتكاليف باهظة ليتفهم «غاصب» مطلبه عارفًا منطق «فكري» تمامًا؛ فهو عشر سنين الآن وكل منهما يفهم الآخر جيدًا ولكل طلب ثمنه ولا يوجد مستحيل أمام رونق ولمعان الجنيه المصري الذي غلب جنيه الملك جورج فارقًا عنه ببضعة قروش في ثمنه. نهض «غاصب» من مجلسه متجهًا إلى مكتبه فاتحًا الدرج مخرجًا ظرف يكاد ينفجر من ضخامته مليء بورق البكنوت الذي ما أنْ رآه «فكري» حتي سال لعابه واعدًا «غاصب» بتنفيذ المهمة في أقرب فرصة ممكنة مستأذنًا مغادرًا قصر الشر، قصر «غاصب» بيه.

- بيه، مرة واحدة، غاصب أخذ البهوية، يا ترى الأيام الجاية مخبية أيه تاني.

توقفت «رفقة» متفكرة بحجرة مكتبها بدار الأيتام حيث جلس أمامها «مراد» و«تحية» و«شريفة» و«مفيدة» في اجتماع مصغر لمناقشة الأعمال الجديدة المتعلقة بخصوص المدرسة، حيث بدأ العام الدراسي الجديد والتحقت «قمر» و«ماري» بها؛ لذا تفرغت «رفقة» للعناية بكل ما تتطلبه وليس هذا بجديد عليها، فكل بداية سنة دراسية تفعل مثل هذا وأكثر للعناية بالمدرسة لتلافي أي خلل يمكن أنْ يؤدي إلى تعطل الدراسة. وبينما هم يناقشون جدول الأعمال دخلت عليهم «تحيه» بخبر حصول «غاصب» على البهوية ليصبح «غاصب بيه» وبعض من رجال القرية وعلى رأسهم العمدة ذهبوا ليقدموا له التهاني الحارة. أنهت «رفقة» الاجتماع مختلية بنفسها مفكرة فيما يمكن أنْ يحدث بعد أنْ حصل «غاصب» على البهوية ودارت في عقليتها أسئلة كثيرة أولها من أين أتي «غاصب» بتلك العلاقات التي تصل إلى السرايا الملكية ليحصل على البهوية؟ علمًا بأنَّ سجله ليس نظيفًا فهو صاحب أخطاء شبابية كثيرة كادت أنْ تفتك به ولولا عمه «دوس» لكان هلك منذ زمنٍ، فلم يكن يمر شهر كما روي لها «منير» إلا وكان يأتي به عمه بعد وفاة والده من براثن قسم البوليس

بمصر أومن نقطة القرية أو القري والنجوع التي حولها وقد حررت فيه محاضر كثيرة متنوعة لتصنع له سجل مشاغب يقف بينه وبين البهوية حائلًا. إذن كيف مر من كل تلك العوائق؟ لترتكن «رفقة» في النهاية أنَّ النقود تصنع المعجزات وتصنع البهوات، لكن يبقي السؤال الأهم ألا وهو من صنع له تلك المعجزة الجبارة؟ ظل هذا اللغز قائمًا وحال القرية كما هو لا جديد بمن فيهم العمدة الذي نسي «منير» بيه وأبيه «دوس» باشا ليجري على «غاصب» بيه محنثًا إياه وليس ببعيد أنْ ينصبه كبيرًا لعائلة «خياط» بعد الآن. قطع حبل أفكار «رفقة « دخول «مراد» عليها مكتبها بعد أنْ طرق أولًا لتسمح له بالدخول. وقف أمامها مرتكزًا على عكازه لتطلب «رفقة» منه أن يستريح فجلس وهو ينظر إليها بتمعن قائلًا:

- أنا عارف أنت بتفكري في أيه، إزاي غاصب بقي بيه مش كدة؟ وأيه هيبقي شكل الأيام الجاية؟

أومأت «رفقة» برأسها بالإيجاب وعلى وجهها ابتسامة حزينة قائلة:

- قبل البهوية كان وحش، هيبقي بعد البهوية شكله أيه، والله أنتَ ولا الأخ يا مراد، أنتَ اللي محون عليّ عيشتي.

- إحنا مش عشرة أيام، إحنا إخوات بقالنا سنين ومن قبل ما تتجوزي منير الله يرحمه، اسمعي يا رفقة.

وبدأ «مراد» يطمئن «رفقة» بأنَّ الله لن يسمح لها بالشر أكثر من هذا فهو يعلم أنها قد تأذت من «غاصب» كثيرًا ومن أمه أيضًا، ولولا عناية الله بها وابنتها وأمها العجوز المسكينة لكان «غاصب» فتك بهم منذ زمن بعيد، ولكنه يعلم أخاه جيدًا أنَّه من النوعية الأنانية التي تحب أن تأخذ كل شيء لنفسها غير تاركة شيء لأحد؛ لذا فهو يرجح أن «غاصب» لن يتزوج أبدًا بسبب حبه لنفسه الشديد وأنَّ كل ما يطمح إليه أنْ يكسر شوكة عائلة «دوس» لما فعله جده «خياط» بأبيه انتقامًا لما زرعه أبينا بداخله طيلة طفولته وروته أمنا بدموع الشر طيلة السنوات السابقة، لذا فغاصب تركيبة غريبة تزرع الشر حتى تصل إلى أهدافها فقط وبوصوله إلى

البهوية فهو يظن أنَّ قدرًا كبيرًا من خطط أخيه قد انتهت وأحلامه بدأت تخبو ويمكن أن ينسى «رفقة « وابنتها إلى الأبد لذا لا داعي لقلقها الدائم، واعدًا إياها أنه سيبذل كل جهده للضغط على «غاصب» في أنْ يتنازل عن قضية تقسيم القصر ليكتفي بما في يدة. فتمنت «رفقة» أنْ يحدث ما ذكره الآن وأنْ لا يتمادى «غاصب» أكثر من هذا.

- هذا لا يرضي الله ورسوله يا إخوة المؤمنين .

تطلع الجميع إلى «الجنبلاطي» الذي هتف بجملته تلك بالجامع وسط زملائه وأعوانه مكملًا حديثه :

- كيف نسمح لأن يكون في وسط قريتنا كفرة وزنادقة بأرض الإسلام.

سأله أحد الذين بالجامع ولكنه لا يُمتّ للجماعةِ بِصلةٍ سائلًا يقصد بمن أهل القرية والزنادقة ؟

نظر إله «الجنبلاطي» وعيناه بها غضب عنيف وشراهة غير متناهية قائلًا:

- من هم ليسوا بإهل لإسلام.

لم يعره الرجل اهتمامًا ومضي في سبيله خارجًا من الجامع بعد أن صلى صلاة العشاء.

وصل إلى مسامع الشيخ «لقمان» هذا اللغو الفارغ فقطع حديثًا جانبيًا مع أحد أهالي القرية بأحد أركان الجامع ذاهبًا إلى حيث يجلس «الجنبلاطي» وأعوانه قائلًا بصوت قوي جموري:

- اسمع يا ابني.

حدق جميع الجالسين من أعوان «الجنبلاطي» بالشيخ لنعته مولاهم بابنه ومع أنه أكبر سنًا وأعلى مقامًا وشأنًا وعلمًا فقد عز عليهم أنْ ينادي هكذا، فكشَّروا عن أنيابهم مزمجرين مهمهمين مما لفت انتباه كل من بالجامع وجعل الشيخ يتوقف لبرهة عن الحديث ليرى ما يقدرون على فعله ثم أكمل موجهًا حديثه إلى «الجنبلاطي» جاذبًا انتباهه:

أنت يا جنبلاطي يا ابني، عيب الكلام اللي أنت بتقوله ده، مفيش حد كافر وزنديق وسطنا هنا في أرض الإسلام، استغفر ربك واقرأ في القرآن أو أتكلم في أي شيء مفيد.

التهبت عينا «الجنبلاطي» من الغيظ الشديد وقد انغلقت حواجبه ناظرًا بغضب عارم إلى الشيخ قائلًا:

- لولا أنك شيخ الجامع الفاضل لكان لي معك تصرف آخر وما لدى سيفيدك بإذن الله فأنت مغيب وغير عالم بالطريق الصحيح لهداية قومنا.

قاطعه الشيخ قائلًا:

- يكفي هذا اليوم يا جنبلاطي، يبدو أنك تَعِبٌ، خُذْ أعوانَك وتفضل، ارحل.

انتصب أحد أعوان «الجنبلاطي» قائلًا بحدة شديدة:

- دة بيت من بيوت الله وليس من حقك أو حق أي أحد أن يطردنا منه.

احتد الشيخ عليه وصوته لم يعلُ قط محافظًا على نبرة صوته واتزانه داخل الجامع مع أنَّ الكلام قد وصل إلى ذروته العصبية قائلًا:

- لا يعلو صوتك في بيت الله يا مؤمن، و بيت الله ساحة للصلاة وليس ساحة عراك وشحن ضد أهالي القرية وأنا الشيخ هنا، متي رأيت أنَّ الجالسين في بيت الله قد خالفوا الآداب فعلي آن أنبههم وإن لم يرتدعوا يغادرون فورًا فبيت الله له قدسيته ولا أيه يا إخوة.

وافق جميع من بالجامع من أهل القرية مؤيدين للشيخ لينتصب «الجنبلاطي» آخذًا أعوانه مغادرًا الجامع عالمًا أنَّ الوقت لم يحن بعد لما يفكر به فلازال الشيخ مسيطرًا على عقول أغلب أهل القرية لذا ليس من الجيد الدعوة الآن إلى فكرهم عن طريق الجامع وليكن لكل شيء وقته بينما توجه أحد أعوانه الذي انتصب بالجامع مدافعًا عنه سائلًا إياه ألم يحن الموعد لتأديب كل هؤلاء الذين لا يؤمنون بمبادئنا وجماعتنا؟ فأجابه «الجنبلاطي» بأنَّ النصر من عند الله قريب وعندها لن يمنعهم شيء من تنفيذ مخططاتهم في القضاء على الكفرة والزنادقة وأعداء الله .

جلس الشيخ «لقمان» بأحد أركان الجامع بعد أنْ غادر الجميع مفكرًا فيما يحدث من حوله وروح الغي والتعنت والأفكار المضللة التي دخلت بين نفوس أهالي القرية وهي لا تمت للدين الحنيف بصلة محاولين إلصاقها بالدين متذكرًا قول ابن سيناء القائل «بلينا بقوم يظنوا أنَّ الله لم يهدِ سواهم» وهذا هو ما يحدث الآن على أرض الواقع.

سار الشيخ في طريق عودته إلى داره محاولًا تلمس مستقبل القرية في وجود مثل هؤلاء القوم ذوي الأفكار الغريبة المرعبة حتي وجد نفسه واقفًا أمام دار الكاهن «أغابيوس» فأخذ قراره بإشراك صديقه وزميله في محنته لعله يجد عندة الصبر والسلوان. لم يمض وقت حتي تَحَدَّثَ فيه الشيخ عن كل ما يجيش داخل صدره مفضفضًا به إلى الكاهن وأمامهما أكواب الشاي الساخنة التي لا تقل سخونة عن ما يشعر به الشيخ لينهي حديثه ناظرًا إلى صديقه الواضع يدة على خدة يستمع في أسي وأسف لما أصاب أهالي البلدة في الفترة المؤخرة من تغيرات سيئة أدت إلى التفكك والتخبط بين أناس يريدون فرض أفكارهم باسم الدين، وهو ما يعاني منه شخصيًا وسط المسيحيين أبنائه لذا عندما بدأ بالكلام الحزين لم يتغير الحال كثيرًا عما سرده الشيخ ليقفا هما الاثنان أمام تيار معاكس قوي يمكن أن يهدَّ الجبال، ليصاب الشيخ بصاعقة الحقيقة التي يواجهها الكاهن أيضًا متجرعًا من كئوس مرارة الجماعات التبشيرية و«بلاك» وأنصاره مع أهل القرية باسم الدين أيضًا. والشعب غلبان ليس بيدة حيلة و ما يحزن أن امثال «بلاك» و طوائفهم قد كثروا في القرية بل وفي مصر كلها يبثون سمومهم في صدور المسيحيين ناشرين تعاليمهم الخاطئة عن المسيحية ماسكين بسلاح الاحتياجات ما بين مادية ومعنوية. وأهل القرية لا يحتاجون سوى إشباع متطلباتهم ليهرعوا إليهم مرتمين في أحضانهم مبتعدين عن الكنيسة الأم التي لا حول لها و لا قوة. أما الحكومة فهي تشجع و تبارك مثل تلك الأعمال الخيرية في مظهرها أما في داخلها فهي دود لا يموت ونار لا تطفئ ما أن تمسك بعقل الإنسان حتي تنهيه مشبعة إياه بأنَّ كل ما يفعله فيما سبق خطأ وضلال وأنَّهم هم أقرب الطرق إلى الجنة الخالدة والسعادة الأبدية وأنَّهم حماة الإيمان الصحيح، وأنَّ الايمان قبلهم كان هراء في بلادٍ صَدَرَتْ الدين المسيحي إلى كل بلاد العالم يومًا ما. وهكذا

جعلت الابن ينقلب على أبيه والأم تفارق ابنتها بمعني آخر شتت شمل العائلة المسيحية فمن اعتنق مذهبهم لا يسمح له بتركه بأي حال من الأحوال وإلا خسر كل شيء ساعدوه به ليبقى رهينة معتقداتهم السيئة تاركًا الفكر المسيحي القويم. والخير كل الخير إلى سياسة الاحتلال الإنجليزي التي تبارك مثل تلك الأعمال مؤيدة إياها لنشر الدين المسيحي، وهم في الأساس يخربونه ولا عزاء للمسيحيين البسطاء الذين لا يعرفون شيئًا في هذه الدنيا سوى إشباع متطلباتهم وكفي، فما هو الحال الآن يا شيخ «لقمان»؟

أفرغ الشيخ كوب الشاي خاصته ضاربًا كفًا على كفًا واجدًا هم صديقه لا «يتلم» مثل همه بالضبط، وأنَّه عندما جاء لعبد المعين ليعينه وجده هو من يحتاج المعونة فالحال من بعضه وما أصاب ذلك أصاب تلك. فرأي أن يصدر الأمر إلى بهوات وبشوات البلد لربما وجد لدهم رأي آخر فيما يحدث. فلم يجد من صديقه سوى ابتسامة هادئة حزينة تنم عن خيبة الواقع الأليم الذي يعيشونه الآن فأغلب البهوات والبشوات انقسموا إلى فريقين في ذلك الموضوع فيما يخص المسيحيين؛ فمنهم فريق اتبع مذهب تلك الطوائف الجديدة لتوفيرها له خدمات جليلة وأعمال سياسية أو تجارية أو ما شابه لتصب في مصلحته الشخصية البحته وعلى رأس كل ذلك الحماية، حلم الحماية الغريب ناسين أن الحامي هو الله، وفريق آخر ارتأى أن لا يمد يده لهم مكتفيًا بالمشاهدة والابتعاد عنهم لقوة نفوذ علاقاتهم بالاحتلال الإنجليزي والسرايا الملكية وبقائه على عقيدته الأصلية تاركًا لهم حل مشاكل البسطاء راكنًا أنَّه هم وانزاح من على كاهله فالفقراء والبسطاء الذين كانوا يرهقونه طيلة المدة السابقة بطلباتهم الكثيرة قد ذهبوا إلى سبيل آخر يوفر لهم كل تلك المساعدات والاحتياجات ولا مانع عنده من اعتناقهم عقائد أخرى طالما تحت نير المسيحية في النهاية وهذا ما وصلت إليه مع البشوات والبهوات في تلك المسألة. لا يوجد الآن سوى الله نلجأ إليه ليرفع عنا ذلك البلاء فظهرت خيبة الأمل الشديدة على وجه الشيخ لأن جزءًا مما سرده الآن الكاهن قد مر به عندما بدأ في عرض مشكلته على بعض البهوات الذين لم يروا عيبًا فيما يفعل الإخوان المسلمون ناصحين الشيخ بالابتعاد عن المشاكل؛ لأن هناك

علاقات وطيدة بين تلك الجماعة وسلطات الاحتلال ويعملون بمباركتهم والشهادة لله هناك قلة قليلة هي من استمعت إلى الشيخ مدركه حجم تلك المأساة التي إذا تفاقمت وكثر أتباعهم لا يدرون إلى أين سيصل بهم الأمر بمعتقداتهم الهامة تلك، ولكن ما باليد حيلة لذا آثر الشيخ الصمت معتمدًا على الله في أنْ يتصدي هو بشخصه لهم ولأفكارهم محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه ليترحم كل من الكاهن والشيخ على أيام انقضت ولن تعود كان فيها الكل واحد.

- واحد زائد واحد يبقي اتنين يا إخوة والحق لا يتجزأ يا حماة الإسلام.

التهبت صدور الحاضرين لهذا الكلام الشديد اللهجة المؤثر على النفوس الخارج من فم مولانا «الجنبلاطي» موجهًا إلى المئات من أتباعه وأنصاره الحاضرين أمامه بأحد الأماكن المهجورة المخفية عن الأعين التي تسع مثل تلك الأعداد فبالأمس القريب كانوا عشرات يتجمعون داخل أي منزل، ولكن ما أنْ أصبحوا مئات اختلف الوضع ليتجمعون في أماكن واسعة كبيرة تسع تلك الأعداد لسماع أحاديث مولانا «الجنبلاطي» النارية الملهبة للافئدة والعقول مسيطرة كالسحر على البسطاء وضعاف النفوذ ليسأله شخصٌ من الفلاحين قائلًا:

- طب ونعمل أيه يا مولانا علشان نحمي الإسلام.

أمسك «الجنبلاطي» ذقنه لثوانٍ معدودة ناظرًا بعينيه التي تكاد تخرج من محاجرها مرهبًا الجالسين أمامه ليترك ذقنه قائلًا بصوت جهوري قائل :

- يجب أنْ لا يكون هناك مكانٌ بيننا للكفرة ولا يكون لهم سلطان على أبنائنا وإخوتنا.

نظر الجميع إليه وهم لا يفهمون شيئًا ليسأله واحدًا آخر عن مغزى حديثه فيجيب عليهم أنَّه لا يصح أنْ يكون في بلدٍ مسلمة مؤمنة كمصر ولاية لنصراني كافر على مسلم تقي مؤمن، يجب أنْ يبتعد المسلمون عن العمل لدى النصارى؛ لأن أموالهم حرام ولا يجوز للمسلم التقي الانتفاع بها وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب بذلك، بل وينشر وسط معارفه وأصدقائه تلك التعاليم وعلى الكل اتباعها لأن هذا هو ما سيجعلنا

نظهر أنفسنا من الحرام مقيمين الخلافة الإسلامية على أرض الكنانة، مصر، تهللت أسارير الحاضرين من تلك التعاليم الطيبة التي ستعيد إحياء الخلافة الإسلامية من جديد لذا وجد «الجنبلاطي» الوقت مناسبًا لاستكمال حديثه عن ملجأ الأيتام المقام في البلدة تحت رعاية النصارى الخاص بتلك الداعرة «رفقة خياط»، فكيف تتولى زمام التحكم بأبناء المسلمين الذين لدنا مخالطةً بينهم وبين أبناء النصارى، أي حال سيخرج عليه ذلك الطفل المسلم عندما يخرج إلى العالم بعد أن يبلغ و يشتد عودة ليصبح رجلًا، سيدعو النصراني بأخيه كما علموهم داخل دار الأيتام، يا أخي المسلم لا يوجد لك أخٌ في هذا العالم سوى أخيك المسلم فقط أما النصراني فليس أخًا ... ليس أخًا...

أنهي حديثه على أمل اللقاء قريبًا وقد نجح في زرع بذور الفتنه بخصوص دار الأيتام كما اتفق مع قرينه «بلاك» لينفذوا أول جزء من مخططهم الجهنمي. تفرق الإخوة بعد أن أخذ كل منهم نصيبه الأسبوعي من خيرات الجماعة الربانية وأيضًا الأوامر المكلف بها ليبدأوا في تنفيذها فوريًا بين أهالي القرية فكل شخص سائر الآن على أقدامه عائدًا إلى منزله ما هو إلا قنبلة موقوتة ستنفجر قريبًا في وجه الجميع مطيحة بالأخضر واليابس والله المعين فالشهادة لنا والنصر لنا والجنة لنا ولا يوجد لسوانا شيء.

اختلي» الجنبلاطي» بمساعدة الأمين «السنباطي» وبعض الأتباع بدار «الجنبلاطي» وأمامهم أكواب الينسون والحلبة الحصي يشربونها ومولانا يستفسرعن حال «السنباطي» بعد زواجه شاعرًا بالاطمئنان والسعادة. فتغير لون وجه «السنباطي «ذاكرًا أنه لا يشعر بالأمان أو السعادة وهو يعمل لدى المدعوة «رفقة» النصرانية وما زاد الطين بلًا أن «قمر» ابنة أخيه التحقت بمدرسة النصارى أيضًا لتتعلم لغاتهم وتنسى العربية لغة القرآن الكريم فعز على «الجنبلاطي» أن يرى حال أخيه هكذا مواسيًا إياه آخذًا بخاطره مذكرًا إياه بأنَّ المبيحات تبيح المحظورات وأن هذه المحظورة ليست سوى لنصرة أهل الجماعة ففي القريب العاجل عندما يأخذون السلاح من طرف «بلاك» مقابل خدماتهم له ولأعوانه لن يعودوا إلى تلك الأعمال

مرة أخرى، ولن يعملوا لدى النصارى أو يعلموا أولادهم بمدارسهم. وقريبًا جدًا إنْ شاء الله ستخرج» قمر» من المدرسة لتلتحق بكتاب القرية متعلمة العربية الصحيحة حافظة لكلام القرآن الكريم عن ظهر قلب فلا داعي للقلق، إنها مسالة وقت، هدأ روع «السنباطي» نوعًا ما لينتهي بذلك جزء من المخطط الذي دبره «الجنبلاطي» و»بلاك» فكل منهما يلعب لمصلحته ومصلحة جماعته، ولا مانع من تبادل المصالح المصيرية بين الفريقين للوصول إلى أهدافهم ولا يخفى على «الجنبلاطي» المحنك أنَّ سياسة «بلاك» هي فَرِّقْ تسُد وهذا ما يحققه له بتجنيد أبنائه لتلك المهمات معطيًا تعليماته بعدم العمل لدى النصارى والتنكيل والتنديد بدار الأيتام واعدًا إياه أنَّه سيساعده لبناء بيت للأيتام خاص بأبناء المسلمين لخلق جيل قوي يخص أهل الجماعة فقط وما سيأتي سيكون ضربة قاصمة، وهو حريق الكنيسة عندما يأذن له «بلاك». أما هو شخصيًا فهو يتبع أوامر قيادات الجماعة في السيطرة على المسلمين لإحياء حلم الخلافة الإسلامية بشتى الطرق حتي ولو تحالفوا مع الشيطان وهم الآن في بداية الطريق ألا وهو تجنيد الشعب المسكين التائه في بحور الجهل والاحتياج والفقر وتلك الأسلحة الفتاكة تجيد جماعة الإخوان التعامل معها بحرفية شديدة لتصنع لها جيشًا بشريًا يتوجه أينما شاءت عاملًا تحت سطوتها وأمرها ولا مانع من استخدام العنف الشديد إنْ لزم الأمر لردع الكفرة والخارجين عن طاعتهم .

-٢٢-

- طاعتهم عمياء لكل اللي بيسمعوه، مفيش تفكير أبدًا عندهم ولا حلول وسطية.

وجه «عمرو» أفندي حديثه إلى صديقه «مينا» أفندي بينما هم جالسين يحتسيان الشاي بالمقهى والمعلم «الزعتلي» جالسًا مدخنًا الشيشة أمام مكتبه الخشبي الصغير المميز والأستاذ «القلعاوي» يشرب القهوة وما أنْ وضع الفنجان حتي قال:

- والله أنا لي واحد قريب كان في زيارة لي إمبارح واكتشف أنَّه بيتبع جماعة الإخوان والصراحة قال كلام كويس في الأول وبعد كدة قلب الأسطوانه فجاة وبدأ العك.

وضع «مينا» كوب الشاي أمامه قائلًا:

- خد عندك العك بتاعهم، ممنوع منعًا باتًا على المسلم أنَّه يستشير دكتور مسيحي لأن الدكاترة المسيحيين بتموت الرجالة المسلمين وبتجيب للنسوان عقم علشان تنهي على جيل المسلمين في مصر.

ابتسم جميع الحاضرين على تلك المزحة التي أكَّد لهم «مينا «أفندي أنها حقيقة سمعها من أحد زملائه بالعمل بكوبانية المياه حيث اتبع ابنه طريقهم لينفث المعلم دخان الشيشة الخاص به قائلًا:

حسبي الله و نعم الوكيل، هو أيه اللي حصل في الدنيا يا جماعة، خلاص العقول

كلها طارت .

انتفض الجميع على صوت صياح وهرج ومرج قادمًا من بعيد حيث خرجوا إلى الطريق ليروا ما الحدث الذي قلب سكون البلد في عز الظهر ليجدوا منظرًا غريبًا جدًا، وجدوا «المربوطة» تجري ووراءها أناسٌ تجري من أهل القرية حيث تم ملاحظة رجال ملتحين ومتوشالح ونفر من أتباعه والعديد من أهل القرية الذين ليس لهم ناقة ولا جمل، ولكن ما أنْ رأوا ما يحدث حتي انساقوا وراء الحدث وهم لا يفهمون شيء مما يحدث، ضرب «عمرو أفندي» كفاً على كفٍ مما يحدث والجميع يبدو عليهم الوجوم حيث وضحت صيحات اللاهثين ورائها قائلين:

- جه يومك يا مربوطة يا ملعونة.

وآخر يهتف :

- لا مكان للشياطين في قرية الطين.

و هي تزعق عليهم قائلة :

- يا شياطين يا مجانين، أنتم الشياطين، مفيش فرق بينكم كلكم طين.

بدأ الجميع في ضربها بالطوب الذي جمعوه من الطريق وهي تصرخ لاعنة إياهم ومن حاول التجرؤ والدفاع عن تلك السيدة تم التصدي له وضربه إنْ لزم الأمر لذا ابتعد الكثيرون في وجود ذلك الجمع الغفير ليصيح أحدهم:

- لقد سبت رسول الله، وكلنا سمعنا هذا وجزاؤها الموت .

اندهش الجمع من تلك التهمة المستبعدة تمامًا لتصرخ «المربوطة» :

- أنتم تعرفوا ربنا يا كفرة.

قال «متوشالح» زاعقًا:

- أنا كمان سمعتها .

و هكذا تم تلفيق التهم جزافًا إليها ما بين ساحرة وعاهرة ومجدفة ومسيئة حتى تم قذفها بالترعة وبالصدفة مرت «رفقة» بعربتها لترى ما حدث فحاولت الاستنجاد بأي

أحد من أهل القرية، فلم تفلح حتى غرقت «المربوطة» ليقوم بعض أهالي القرية بإخراج جثتها تاركين إياها على ضفة الترعة ذاهبين كل منهم إلى حاله بينما توقف أتباع الجماعة صارخين في وجه «رفقة»:

- يسقط النصارى الكفرة .

اقترب «عمرو» أفندي من «رفقة» طالبًا منها المغادرة فورًا لأن هؤلاء القوم ليس لهم أمان ليصيب «رفقة» الذهول الشديد من كل ما يحدث، صعبان عليها ما حدث «للمربوطة» ناظرة إلى «عمرو أفندي» الذي ركب معها العربة قائلة له:

- هي البلد حصل فيها أيه، الناس اتسعرت ولا أيه .

وقفت «رفقة» أمام المأمور طالبةً منه الذهاب ومعاينة ما حدث وتطبيق العدالة و القبض على الجناة ودفن الجثة. أشعل «فكري» سيجارة مدخنًا إياها ناظرًا إلى «رفقة» بغير اهتمام وهي تكاد تجن من عدم اتخاذه أي فعل أو قرار لتجده يقول لها ببرود شديد:

- اهدئي يا هانم، المربوطة دي مش بني آدم علشان تقلبي الدنيا عليها بالطريقة دي .

استغربت «رفقة» من منطق المأمور عديم الإحساس من وجهة نظرها لتهاجمه قائلة :

- أُمَال البني آدم في نظرك يبقي شكله أيه؟

أنهي المأمور سيجارته مشعلًا الثانية مقنعًا «رفقة «بأنَّ الأمر لن يعني أحدًا في السلطات؛ لأن مثل نوعية تلك «المربوطة» هم هوامش المجتمع وإذا أردنا تطبيق العدالة في تلك القضية فمن هم الذين سنقبض عليهم؟ إنَّ ما حدث هو هياج جماعي أمام القانون ذهبت ضحيته سيدة مجنونة، إذن من نعاقب في تلك القضية، إن أقصي ما يمكن فعله هو استصدار تصريح بدفن الجثة بمقابر الصدقة ونحمد الله أنَّ القرية قد تخلصت من كلبة من كلاب العصر البائد للسحر والدجل .

لم تقتنع «رفقة» بأي كلمة قالها المأمور الذي اعتبرته خارقًا للقانون وليس حاميًا له، ليبدأ الشك يدب إلى عقلها أنَّ الجالس على هذا المكتب ليس سوى أخرق. لم تهدأ

نفسيتها حتي وصلت إلى مكتبها بدار الأيتام ليجلس «عمرو» أفندي أمامها محاولًا إخراجها من حالتها تلك قائلًا:

- انسي يا ست هانم، أخدت نصيبها.

لم تتفوه «رفقة» بكلمة واحدة بل ظلت ناظرة إليه ليكمل حديثه :

- شوية الناس دول معندهمش قلب ولا دين صدقيني، والإسلام بريء منهم ومن اللي عملوه وقالوه، متعكريش دمك يا هانم .

دخلت إحدي العاملات بالدار صارخة بأن «طه» الطفل المعاق اختفى من الدار تمامًا فانزعجت «رفقة» جدًا عالمة أنَّ أيامَ سلامها قد انتهت وأيام الدمار قادمة فكيف يختطف طفل من الدار ولم يجدوا سوى «طه» المعاق الجالس على كرسي متحرك؟ لتعرف أنَّه تم اختطافه أثناء قيامه بالتريض مع أحد العاملين بالدار حيث خرج ثلاثة رجال ملثمين ضاربين العامل على رأسه ليفقدونه الوعي ومن ثم اختفي «طه» ولا أحد يعلم عنه شيئًا. أبلغت «رفقة» المأمور بل صعَّدت الأمر إلى المديرية التي اهتمت بالأمر جدًا بعد تدخل «حسنين» بيه و«أوطة» بيه لتكثيف الجهود لمعرفة مكان الطفل وتم تنشيط الكوادر الأمنية التي أشارت مبدئيًا إلى تورط رجال الجبل في ذلك الأمر ومن جانب آخر حشد أنصار الجماعة أنفسهم منددين بدار الأيتام متجمعين حولها هاتفين بسقوط النصارى وأنَّه لا ولاية لنصراني على مسلم قاذفين الدار بالطوب والحجارة مما أثار رعب الأطفال بالداخل والعاملين حتي وصل الأمر إلى «رفقة» التي سارعت ومعها العديد من الهوانم والرجال لحماية الدار، وما أنْ وصلوا حتي وجدوا جزءًا من الدار قد احترق وقد قام العاملون بغلق باب المبنى من الداخل. فلم يستطع أنصار الجماعة اختراقه ليخرجوا جميع الأطفال إلى الخارج بالحديقة الملحقة بالدار حتي لا يصابوا بالإختناق من جراء الحريق الذي شب نتيجة قذف شعلات نارية على المبني، أصاب «رفقة» والهوانم الهلع مما رأوه محاولين تهدئة الأطفال الذين تملكهم الرعب الشديد من جراء ما شاهدوه والحريق فتلك أول مرة من نوعها. لقد انقلب سكون القرية إلى ضجيج عالي جدًا جدًا.

استعانت «رفقة» بجميع من تعرف للسيطرة على الأمر الخارج عن حده. فدعت الشيخ «لقمان» والكاهن» أغابيوس» وكبار أعضاء مجلس إدارة «جميعة السلام» للأيتام للوقوف حيال تلك الأمور الهمجية التي تحدث و بعد مباحثات ومشاورات مكثفة والاستعانة بأهل المشورة والخبرة ومن هم على دراية بأهل القرية ليتوصل الجميع إلى تهدئة الرأي العام إلا بحلٍ واحد ألا وهو فصل الأطفال المسلمين عن الأطفال المسيحيين مؤقتًا لحين التوصل إلى الجناة مختطفي الطفل والسيطرة على النفوس الهائجة والوصول إلى رأس الأفعى المدبرة التي شحنت تلك النفوس ضد دار الأيتام التي لها زمنًا في وسطهم حتي الآن. فلما هذا التعصب الطائفي الذي أصاب القرية فجأة على حين غفلة بينما رأت «رفقة» أن يتولي الشيخ لقمان الإشراف على شئوون الأطفال المسلمين وتعليمهم الدين الإسلامي الحنيف مثلما كان يفعل. أما الكاهن «أغابيوس» فيشرف على الأطفال المسيحيين، وليكن معلومًا لدى كل أهل القرية أنَّ هذين الرجلين الجليلين هما حائط السد الذي سيتصدى لمثل هذه النوعية من الهجمات إنْ حدثت مرة أخرى آخذين على عاتقهما توعية أهل القرية أن تلك الأعمال ليست إلا للتخريب والتدمير والدين بريء منها ولا يمت لها بصلة وأن جميع الشرائع السماوية سعت إلى فعل الخير بدون تفرقة وبالذات في أمر تربية اليتيم. ليبدأ الشيخ «لقمان» خطبة الجمعة من فوق منبره بحديث الرسول الكريم قائلًا:

«أنا وكافل إلتيم كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»

بينما على الجانب الآخر استهل الكاهن «أغابيوس» عظته الأسبوعية يوم الأحد بالقداس الإلهي قائلًا:

- السيد المسيح وصى على رعاية الأيتام والأرامل إذ قال أن هؤلاء إخواته الأصاغر.

وهكذا بدأت حملة توعية وترشيد وتنظيف للعقول. قامت المديرية بالقبض على بعض عناصر التخريب والإجرام الذين ثبت مشاركتهم في هذا الجرم بالتعدي على الممتلكات الخاصة وإشاعة الفوضي والتخريب المتعمد وحدثت مفأجاة غير متوقعة

«لرفقة» حيث وجدت ذات يوم «مستر بلاك» واقفًا على باب دار الأيتام ممسكًا بيد «طه» الجالس على كرسي متحرك جديد وفي الناحية الأخرى «متوشالح» و بعض من أهل القرية ورائهم بالزغاريد والطبل.

ظهر على ملامح «بلاك» ابتسامة خبيثة و«طه» يشير إلى «رفقة» لتحتضنه بلهفة بالغة وما إلا دقائق حتي جلس «بلاك» أمام مكتبها بالدار يحتسي الشاي مبتسمًا قائلًا باللغة العربية الركيكة :

- طبعًا هتسأليني إزاي قدرت أوصل للطفل طه .

صفق «متوشالح» ببلاهة إلى سيده فرحًا بما يقوله مرددًا:

- هللويا مجدًا، ليتمجد اسم الرب .

نظرت «رفقة» إلى كل منهما لتوافقه على حديثه فهي تريد أنْ تعرف، فبدأ «بلاك «يسترسل بأنه عندما علم بالأمر شغله كثيرًا وتألم لما حدث للطفل الصغير المعاق فهو لا ذنب له في التخلف المنتشر بين أهل القرية، لما يذهب ضحية للهمجية والرجعية الفكرية التي هي بعيدة كل البعد عن الإنسانية. وكإنسان مسيحي شريف رحيم أخذ على عاتقه أنْ يشارك في البحث عن الطفل المسكين واضعًا نصب عينيه عمل الرحمة كما وصاه السيد المسيح شخصيًا ليستعين بأصدقائه الإنجليز الذين يعرفون تلك القرية أكثر من أهلها ويعلمونه أن الطفل لدى رجال مجرمين يقطنون الجبل وبعد مفاوضات مضنية معهم لم يطلبوا سوى بعض الأموال التي لم أكترث لكثرتها أو قلتها طالبًا تحرير الصغير البائس من المستقبل التعيس الذي ينتظره إذا وقع في يد هؤلاء الأشرار قاضيًا بقية حياته معهم وعليه دفعت بكل نفس راضية ليعود الطفل إلى بيته من جديد وقد حزنت لما حدث من تفرقة بين أطفال الدار ففي النهاية هم أطفال، فما ذنب الأطفال في أخطاء اقترفها الكبار. أنهي «بلاك «خطبته العظيمة المستمدة أغلبها من حياة أوليفر تويست ناطقًا بعضها بالعربية الركيكة وآخر بالإنجليزية ليجد «متوشالح» يمسح دموعه قائلًا:

- ليتمجد اسم الرب إلهنا، إله القوات، ناصر الضعفاء، هللويا مجدًا.

ظلت «رفقة» محدقة ببصرها في كل من «متوشالح» و«بلاك» وعقلها بحاسته السادسة الأنثوية يرفض تمامًا تلك المسرحية الهزلية البشعة التي قام ببطولتها «بلاك» وصفق له المعجب الأوحد «متوشالح» أفندي لتجد نفسها تقطع حاجز الصمت قائلة :

- ممكن أعرف دفعت كام يا مستر بلاك ؟

ابتسم «بلاك» بخجل مصطنع قائلًا:

- لا تعرف يمينك ما تفعله يسارك.

فهمت «رفقة « أنَّه لا يريد الإفصاح عن المبلغ معتبرًا أنه أمرٌ خير لله ولا يصح أنْ تعرف هي لذا قررت «رفقة» إنهاء تلك الجلسة إلا أنَّ «بلاك» صدمها قبل رحيله بأنَّه قد قام بالشروع في بناء دار أيتام للأطفال المسيحيين فقط على مشارف القرية من الناحية الغربية ويريد منها أنْ تشاركه في هذا العمل الخيري لما لها من خبرة كبيرة به ويُشَرِّفه وجودها معه بالإدارة ولربما تكون فرصة لمعرفة طائفتهم عن قرب كما لم يرها زوجها المرحوم وحماتها المرحومة. غادر بعد أنْ جعل «رفقة» في حيرة ودوامة فالناحية الغربية كانت من أملاك «خياط» باشا التي آلت إلى «غاصب» بالورث، إذن الأرض مصدرها غاصب وهذا بعيد كل البعد عن الأعمال الخيرية أو المشاركة فيها من قريب أو من بعيد ولعل «بلاك» عرض عليه شراؤها والآخر وافق. أسئلة كثيرة ضربت عقل «رفقة» التي لم تجد لها إجابات شافية لتجد نفسها جالسة أمام» طه» سائلة إياه عن حالته وكيف أمضي تلك الأيام فأعلمها أنْ عيناه كانت مغمضتان أغلب الوقت، لكنه كان كثيرًا ما يسمع سيرة المأمور واسمه يتردد كثيرًا ولم يكن يأكل سوى وجبة واحدة في اليوم لتشرف عليه سيدة تدعى «موزة» تلك التي اهتمت به حتى أخذته لتسليمه إلى ذلك الخواجة الذي أتى به إلى الدار.

ابتسمت «رفقة» مُقَبِّلةً الفتى «طه». سألها عن أصدقائه فصمتت «رفقة» لبرهة من الوقت وعينيها قد ظهرت بهما لمعة خفيفة. قالت له أنَّه تم الفصل بين المسلمين و ا المسيحيين فحزن «طه» وغضب غير مستوعبٍ لما كل هذا؟ ولم تستطع «رفقة»

أن تخوض معه في الحوار أكثر من هذا تاركة هذا الأمر للشيخ «لقمان» فهو أجدر منها بشرح الموقف للطفل الصغير.

عادت «رفقة» إلى مكتبها مفكرة في كل ما قاله الصغير وبالذات ما يخص المأمور ذلك الرجل الذي بدأت تتأكد شكوكها فيه لتبحث ورائه لعلها تجد شيئًا يؤكد ظنونها. لذا طلبت من «مفيدة» أنْ تقابل زوجها في أمر هام جدًا لا يحتمل التأجيل. و بينما هي في طريق عودتها إلى منزلها عرجت على مقابر الصدقة لتزور قبر صديقتها «المربوطة» مترحمة عليها واضعة على حفرتها الصغيرة حيث أرشدها التربي وردة صغيرة .

- جلس كل من «حسنين» و«مفيدة « و«رفقة» بعد أن تناولوا طعام العشاء ليحتسوا الشاي و«حسنين» جالس لا يتكلم ناظرًا إلى «رفقة» مفكرًا في كل ما سردته عليه أثناء تناولهم العشاء قائلًا في هدوء شديد:

- دة معناه إنَّ كل اللي بنيناه في القرية بيتهد.

ظهر القلق والوجوم على وجه كل من السيدتين لتستفسر «مفيدة» فلم يجد «حسنين» مبررًا للصمت فالجميع في مركب واحد شارحًا مخاطر الفتنة الطائفية التي ما أنْ اشتعلت نارها في بلاد حتي تحولت إلى حرب أهلية ودائمًا ما يكون هناك مستفيد وراء تلك النزاعات الطاحنة، فهي لا تبدأ سوى فرادى وتتحول إلى ظاهرة اجتماعية تستفحل في البلاد. إن ما حدث في قرية الطين ليس سوى نموذجًا مصغرًا لما يحدث في طول البلاد وعرضها، إن هناك من ينفخ في نار الفتنة مريدًا إشعالها ويمكن أنْ يكون الاحتلال الإنجليزي أو بعض العناصر المخربة المعادية للملك وحكومته. وربما ولا شيء مؤكد، لكن المؤكد أنَّه إذا استفحش الأمر سيأتي على الجميع بالدمار والتفرقة والخسارة الرهيبة، إنَّ حال البلاد لا يسر والفساد قد انتشر بطريقة فجة وكثرت الشكاوي والمظالم وأصبح الوضع لا يحتمل. لا بد من تغيير جذري وتنظيف العقول من خيوط العنكبوت التي عششت بداخلها ناسجة أوهام وهلاوس لا حصر لها وما زاد هو استفادة الآخرين من انقسامنا، مثل ذلك «البلاك» الذي ليس سوى وجه آخر لعملة الإخوان، ولكن لكل منهم أسلحته و الغرض في النهاية

هو الفتك بالناس واستدراجهم إلى عقائدهم والحق يقال أنَّ الامر قد خرج عن طور السيطرة لذا فلنحافظ على ما بيدنا حتى لا يهدموه لنا ولنترك الأمر بيد الله .

نظرت «رفقة» إلى «حسنين» بتمعن من حديثه هذا الذي لم يختلف شيئًا عن ما فكرت فيه بمفردها لتطلب منه طلبًا واضحًا رغم معرفتها بصعوبته، طلبت أنْ تزور أهل الجبل مما جعل فنجان الشاي يهتز في يد «مفيدة» ليسقط منها مصيبة إياها الذعر والخوف من هذا الطلب الغريب .

نهض «حسنين» ليصب لنفسه كأسًا من الويسكي عارضًا على زوجته و«رفقة» ليرفضا بأدب فيعود جالسًا محتسيًا القليل سائلًا إياها عما يدور بعقلها من سبب لتلك الزيارة رغم خطورتها وعدم إمكانية تحقيقها. أكدت له إنها تريد أنْ تتأكد من علاقة المأمور بالأمر فذكَّرها بأنْ رجال الجبل ليس لهم أمان والخطر شديد جدًا ولا توجد احتمالات للنجاة فنظرت إليه نظرة ثقة وعزم مؤكدة أنَّ النقود هي التي ستفتح الطريق وإذا كان» بلاك «قد وصل إليهم بمجهودة وهذا ما تشك هي فيه فلا شك أنهم يمكن أن يصلوا هم أيضًا ومع اعتراض «حسنين» الشديد و«مفيدة»؛ لخطورة الموقف ومع إلحاح «رفقة» المتزايد انتهي اللقاء على أن يفكر «حسنين» في الأمر طالبًا من «رفقة» أن لا تتحدث مع أحد في هذا الأمر، فأكدت له أنها لولا ثقتها به ومعرفتها بعلاقته الوطيدة بالمرحوم زوجها التي كانت مثار حديثه دائمًا لما أقدمت على طلب مثل هذا الطلب.

انتهت الليلة لتخلو «رفقة» بنفسها واقفة أمام سرير ابنتها النائمة كالملائكة فقبَّلتها قبلةً حانية تاركة إياها متجهة إلى حجرة المكتب لتصب لنفسها كأسًا من النبيذ الفرنسي المعتق. اختارت أسطوانة للمطربة «أديث بياف» ذات الصوت الحاني الذي هي في أمَسّ الاحتياج لمن يحنو عليها الآن ولا مانع أن تكون «بياف» الحانية. تدور الأسطوانة تحت إلابرة كما دار عقل رفقة تحت تاثير النبيذ. أخذت نفسًا عميقًا مخرجة إياه على دفعة واحدة ناظرة إلى صورة زوجها المعلقة على الحائط متأملة إياها متمنية لو كان ها هنا الآن يري ما تراه و يسمع ما تسمعه معطيًا إياها الأمان والاطمئنان

فهي مهما كان أنثي تحتاج إلى العناية والرعاية والحنان لا أن تترك وتهمل وتقاسي الآلام وحدها، أحست «رفقة» بأنها تريد أن ترتمي في أحضان زوجها الآن لتحتسي القليل من النبيذ شاعرة بقوته و سخونته محوطة يدها حول رقبتها لتحسس أماكن أنامل زوجها مداعبًا إياها على أنغام» بياف» الساحرة. تنهض راقصة ببطء شديد حول نفسها، عام وراء عامٍ والأعوام تجري وحنينها إلى زوجها لم يجف بل لازال قائم، ولكن وما الفائدة الآن ؟ لقد انتهي كل شئ وراح كل شئ أيضًا غير متبقٍ سوى ابنتها، تلك الفتاة المتبقية من رائحة زوجها العزيز التي يجب أنْ تحافظ عليها حتي النهاية، يجب الحفاظ على ما بناه الآباء والأجداد حتي يمتد إلى الأبناء .

أنهت كأس النبيذ وتوقفت الأسطوانة ودموعها تسللت في صمت على وجنتيها ليتوقف تفكيرها ناظرة إلى صورة الباشا «خياط» و»دوس» وزوجها وحياتها لتجد نفسها متمنية أنْ تكون هي الأخري ما إلا صورة على الحائط؛ لشعورها الزائد بالعجز الشديد. تدخل عليها أمها تكاد تحمل أقدامها بالعافية لتأخذها في حضنها ممدئة إياها ولسان حال رفقة يقول :

- أنا تعبت خلاص .

-٢٣-

انتهي البيان المذاع بالراديو القائم بأحد أركان القهوة فوق رفٍ عالٍ ليصفق جميع الحاضرين مكبرين مهللين حامدين الله على أنهم عاشوا حتي يروا تلك اللحظة المجيدة التاريخية التي عاد فيها الحق للشعب، عادت مصر إلى أهلها وجاء عهد حكم الشعب للشعب وقامت الثورة المصرية بقيادة الجيش المصري الباسل كاسرين طغيان الملكية واستبدادها وفسادها ليجد المعلم «الزعتلي» نفسه باكيا رغبًا عن إرادته مخرجًا منديله القماش ماسحًا دموعه و«القلعاوي» بجانبه يصفق قائلًا:

- والله لولا الحياء لكأن الواحد زغرد زي النسوان .

نادى المعلم على الصبي الجديد الذي حل مكان «كبس الهواء» الذي اختفى فجأة آمرًا إياه أنْ «يبل» الشربات ويوزع على كل من بالقهوة على حساب صاحب القهوة فشكر الجميع المعلم ما عدا جماعة أصحاب اللحى الذين لم يظهر على وجوههم أي مظهر من مظاهر الاحتفال مثل بقية الشعب بل قاموا منصرفين. بينما «القلعاوي» يتحدث مع الجالسين قائلًا:

- دي ضربة معلم يا رجالة، عملها الجيش المصري، أنا قلبي حاسس إن فاروق كانت آخرته قريت.

سأله المعلم قائلًا بعد أن نفث دخان الشيشة قائلًا:

- وتفتكر هيعملوا أيه مع الملك؟

لم يعرف بما يجيب «القلعاوي» الذي بدأ يتحدث عن تاريخ الجيش المصري في دفاعه عن مصر والمصريين منذ تاريخ الفراعنة وصولًا إلى عهد المسلمين ودفاع الجيش المصري تحت قيادة قطز وصلاح الدين ضد كل من سولت له نفسه بغزو مصر مؤكدًا أن جنودها خير أجناد الأرض كقول الرسول عليه الصلاة والسلام. بينما على الجانب ظهر نوعٌ آخر من الغزو حيث جلس «متوشالح» مع بعض الإخوة الجدد المشتركين في الطائفة يشرح لهم بطوله مستر «بلاك» في جلب الطفل الضائع «طه» مرة أخرى والجميع منبهر بتلك البطولات.

- دخلت «جانيت» على ابنها حجرة مكتبه وهو جالس بجانب المذياع وعلى وجهه أسمى علامات الحزن والألم الرهيب بعد أنْ سَمع بيان الثورة وكأنه موجه إليه هو فقط وليس كل المصريين، ولكن لما هو فقط لأن بموجب إعلان الثورة المصرية وسقوط الملكية إلى الأبد ألغيت الملكية وتبعاتها أي البهوات والبشوات، والله يرحمك يا «غاصب» بيه، لم تلحق أن تسعد بها، ربتت «جانيت» على رأس ابنها بحنان قائلة:

- وأنت بإيدك أيه؟ دي حاجة أكبر منك يا ابني.

نظر إليها «غاصب» والألم يعتصره رافضًا مبدأ الهزيمة قائلًا:

- أنا بيه وهافضل بيه وكنت هابقى باشا، أكيد الثورة دي هتفشل فشل ذريع والملك هيرجع.

لم تعرف أمه بماذا تجيب أمله في أنْ يحدث ما يقوله ابنها ليدخل عليهم خادم مبلغًا «غاصب» بأن المأمور يطلب مقابلته .

خرج «غاصب» إلى مقابلته بهو القصر ليجد على وجهه علامات السخرية والشماتة وابتسامة بلهاء قائلًا:

- حبيبي يا غاصب بيه.

نظر إليه «غاصب» باحتقار شديد قائلًا بصوت واهن:

- أيه اللي جايب جنابك في ساعة زي دي .

تطلع المأمور إلى الشرفة ليجد الشمس ساطعة قائلًا ضاحكًا:

- لا سمح الله مكنتش أعرف إن الوقت أتأخر، أنا قلت أجي أشرب معاك نخب قيام الثورة .

- أنت مصدق الكلام الفاضي دة .

- وأيه المانع خلي البلد تنظف من الأشكال اللي زيكم.

اغتاظ «غاصب» جدًا حيث اقترب من المأمور بسرعة مباغتة ماسكًا إياه من ياقة قميصه العسكري قائلًا:

- إوعى تنسى نفسك أنا غاصب بيه.

حَدّق المأمور مغلقًا حاجبيه في وجه «غاصب» ممسكًا بيدي المطبقتين على قميصه قائلًا في سخرية:

- أنت صعبان على والله، لغاية دلوقتي مش مصدق، نزل إيدك.

أبعَد يده بقوة متجهًا ناحية البار آخذًا كأس ليصب بعض الخمر رافعًا إياه قائلًا بصوت عالي ليسمع كل من بالقصر:

- تحيا الثورة المصرية .

شرب الكأس على دفعة واحدة ناظرًا إلى «غاصب» قائلًا:

- طز فيك أنت والثورة علشان متزعلش، أنا جاي علشان أقولك، خلي بالك مرأة ابن عمك المرحوم بتدور ورايا وبيساعدها حسنين بيه، خلي بالك، لأني لو حصلي حاجة هنروح كلنا في داهية، سلام يا غاصب بيه.

جلس «غاصب» أمام «بلاك» بمنزل الأخير وقد خيم الصمت على الجميع بينما «بلاك» ينظر إليه مريدًا أن يعرف نهاية تلك الجلسة فقال بصوت هادئ:

- وبعدين حبيبي غاصب، هتفضل قاعد ساكت.

نطق «غاصب» بالعافية قائلًا:

- أنت مقولتش إن في ثورة ممكن تقوم والبهوية تروح مني.

ابتسم «بلاك» في هدوء قائلًا:

- تصحيح للمعلومة، دي راحت من الكل، مش أنت لوحدك.
- بس راحت.
- اللي راح يتعوض بطرق تانية كتير.
- إزاي، هأخد البهوية تاني إزاي، هابقي محترم إزاي وسط الناس.
- البهوية مش آخر الطريق وعلشان الناس تحترمك في طرق كتير لفرض الاحترام.

نظر «غاصب» بتمعن إلى بلاك الذي بدأ يهدأ من روعه واعدًا إياه بأنَّ الحال سيتبدل إلى الأحسن وأنَّ ما حدث ليس سوى خطوة في صالح الجميع وأنَّ الحال معه لن يختلف فالإنجليز لازالوا موجودين. وبعيدًا عن كل هذا يمكن في أي وقت أن يساعدونه في الحصول على الجنسية الأمريكية كارت الحماية الذي وعدة به لذا لا خوف وإذا كانت البهوية قد ذهب وقتها فلا بد من أنْ ياتي شيء آخر بالمقابل ألا وهي السطوة الدولية فمن اتخذ حماية خارجية لن يقدر أحد على الاقتراب منه وهذا ما سيسعي إليه لأبناء طائفته المميزين ومن ضمنهم «غاصب»، فتنفس الأخير الصعداء بأن الأمل لم ينته بعد ليعيد ترتيب أفكاره ذاكرًا له أنَّ «رفقة» تبحث ورائه ويساعدها في ذلك أحد أصدقاء زوجها. فما من «بلاك» إلا أنْ طلب منه الهدوء والاستكانة لفترة من الوقت حتي يروا الأمور القادمة ستصب في صالح من وعليه أن لا يختلط بأحد في تلك الفترة.

الفترة اللي هتقضوها في الجبل مش كبيرة، هي نصف ساعة مش أكتر من كدة .

نطق الظابط الإنجليزي باللغة الإنجليزية حديثه هذا موجهًا إياه إلى كل من «حسنين» و«رفقة» المنصتين بحذر وشغف إليه وهو جالس بعربته الجيب ومعه عدد من الجنود، ليكمل بأنه سينتظرهم ها هنا وأنهم سيسيرون قليلًا حتى يأخذهما أحد من رجال الجبل داخلين إلى قلب الجبل مقابلين «برعي الدهل» كبير رجالة الجبل،

ولكن ليس أكثر من نصف ساعة حتي لا ينكشف أمرهما عند مرور الدورية الإنجليزية ويفتضح أمرهما على أنّه هو من سهل لهم أمر الدخول فاستوعب الاثنان التعلمات جيدًا منفذين إياها بالحرف وقَلْبُ كل منهم يدق بسرعة رهيبة من رهبة تلك المغامرة الغريبة التي لا يعلم إلاالله عن ماذا ستنتهي؟

سار الجميع في الصحراء لمدة عشر دقائق تقريبًا وهم مغمضو الأعين حيث قام بذلك الرجال الذين استقبلوهما حتى لا يعرفا الطريق لتنفتح أعينهما واجدين أنفسهما أمام «الدهل» كبير رجال الجبل وأعتاهم إجرامًا، رحب بهم الأخير لتستجمع «رفقة» قواها وترد عليه بالتحية بينما «حسنين» ظل يستكشف المكان بنظره غير مصدقٍ ما يراه فالجبل تقريبًا، بل كل شيء يحتاجه المرء للإعاشة ما عدا الإضاءة التي على المشاعل فقط وكل المتواجدين رجال ما عدا سيدة واحدة بجانب «الدهل» الذي عرفهما بنفسه وأنه في المعتاد لا يقابل أحدًا إلا إذا كان هناك علاقة عمل بينهم أو سابق معرفة مثلًا. فيما عدا ذلك لا يقابل أحدًا أبدًا خوفًا من رجال الحكومة. أما الانجليز فبعضهم أصدقاء؛ لذا موافقته على رؤيتهما لم تكن سوى لفضوله لرؤية تلك السيدة ذات القلب الميت التي أرادت زيارة رجال الجبل المجرمين الخارجين عن القانون ليتوصل البيه الذي معها إلى الظابط الإنجليزي الصحيح، الذي يعرف كيف يأتي إلى هنا لذا ما الذي يمكن أن يقدمه إلى السيدة التي تجرأت وزارته في عرينه. نظرت «رفقة» في ساعتها فقد مر ربع ساعة من الوقت ولا تريد إهدار الربع الآخر لتدخل مباشرة في صلب الموضوع سائلة إياه عن واقعة اختطاف الطفل «طه» فما منه إلا أنْ شرح لها أنَّ من كان وراء تلك الأمور المأمور، فهو من طلب منهم ذلك المعروف والمقابل معروف مع اشتراطنا ألا نؤذي الطفل وحدث ليختفي المأمور ويظهر لنا ذلك الخواجة المبعوث من قبل بعض الإنجليز متفاوضًا معنا لأخذ الطفل مقابل نفحة مادية لتتم المبادلة ولم يزد الأمر عن ذلك. فسألته عن إذا ما كان هناك علاقة بين المأمور و«بلاك» فلم يعرف بما يجيبها لأنه في النهاية عبد للمأمور ألا وهو القرش والخدمات المتبادلة والسلطة التي لا يحبذ أن يعاديها والخواجة له هيبته. أنهت «رفقة» ما أرادت المجيء له. لتستأذن فأوقفتها «موزة « قائلة :

- لا مؤاخذة يا ست هانم، أنا كنت أسمع من أمي إنك ست طيبة وبتعملي خير ورحمة، ممكن أطلب منك طلب .

نظرت إليها «رفقة» بتمعن سائلة عن أمها من لتجيب «موزة» إن أمها هي «المربوطة» فذهلت «رفقة» بشدة من تلك المصادفة لتكمل الأخيرة إن لها ابن من المعلم «الدهل» سيد الجبل وإنها تريد أنْ تأخذه «رفقة» لتربيته تربية صالحة فهي لا تريدة أن يكون مثلها وأبيه. تنظر «رفقة» بتمعن إلى «الدهل» الذي ابتسم إليها موافقًا على طلب زوجته «موزة هندي»، وهذا هو سبب موافقته الرئيسية على مقابلته للست «رفقة» مؤكدًا أنَّه لن يسمح لها بالأذية معطيًا إياها العلامة التي تستدعي بها رجال الجبل إذا شعرت بالخطر على نفسها. لتنهي «موزة «حديثها بأنها ستبعث لها الطفل حتي قصرها .

غادرا الجبل في عربة نقل وما إلا دقائق حتى كانوا أمام الظابط الإنجليزي عند نقطة الالتقاء ليركبا عربته منطلقين حيث تركهما بجانب عربة «حسنين» الذي قفز بها مع «رفقة» عائدين من حيث جاءا.

أوصل «حسنين» «رفقة» إلى القصر عازمًا على أنْ يتخذ موقفًا تجاه المأمور في أقرب وقت، لكن بعد هدوء الأحوال؛ فقد انتهت علاقة القصر الملكي الذي بمكالمة تليفون من «حسنين» تقدر أن تنقل المأمور إلى السلوم أو إقصائه من الخدمة أما الآن في عهد الثورة لم تتضح الأمور بعد، لكنه لن يهدأ حتى يخلص القرية من هذا الثعلب المخادع الذي لا يعلمون لصالح من يلعب؟ ويفعل كل هذا.

دخلت «رفقة» إلى القصر وهي تفكر بكل ما ذكره «الدهل» وطلب «موزة» الغريب فهي تريد أن يكون ابنها تحت رعايتها معلمة إياه على أن يكون أبيه طوع أمري في أي شيء أطلبه منه، لكن ما الطلب الذي يمكن أن أطلبه من مجرم وقاطع طريق بل هو ملك الجبل نفسه؟ لنرى ما الذي تخبأه الأيام القادمة؟

- كل خير إن شاء الله يا ست هانم، الأيام الجاية كلها خير، الفنجان بيقول كدة.

جلست قارئة الفنجان على الأرضية بهو قصر «رفقة» التي جلست أمامها وحولها الهوانم شغوفات بمثل تلك العادة التي ما أنْ تزور قارئة الفنجان قريتهن حتي يأتين بها إلى بيت أحدهن لقراءة الفنجان، فنجان القهوة، لم تعط «رفقة» اهتمامًا مفكرة شاردة الذهن والجميع يضحكن ناظرات إلى السيدة الغجرية الجالسة تقرأ بينما هي رأت شرود «رفقة» فقررت أنْ تقرا لها الفنجان الخاص بها فعارضت هي، ولكن تحت إلحاح الغجرية تركت لها الفنجان الذي ما أن نظرت إليه حتي صرخت قائلة :

- ثعبان، نار في ثعبان وثعبان في النار .

انزعجت نفس «رفقة» كثيرًا بينما لاحظ الجميع هذا ليسمحن للغجرية بأن ترحل معطات إياها ما فيه القسمة والنصيب. استأذنَّ بعدها مغادرات أيضًا تاركات إياها جالسةً إلى الفنجان محاولة أنْ ترى الثعبان والنار. حتى قطع خلوتها «لبيب» الذي بيدة صبي لم يتعد عمره السبع سنوات ذاكرًا للهانم أن امرأة تركته طالبة أنْ أسلمه لحضرتك قائلة إنْ هذا هو الأمانة. ربتت رفقة على رأس الصبي مبتسمة له لتعرف أن اسمه «طموم» لتلحقه بقسم الأطفال المسلمين بدار الأيتام تحت رعاية الشيخ لقمان على أنْ تلحقه لاحقًا بالمدرسة وعقلها لازال يحاول تفسير الثعبان والنار .

- نار، يجب أنْ نشعلها نار ونأتي بها متفحمة حطامًا حتي الأرض .

تهللت أسارير الإخوة الحاضرين من أنصار الجماعة فهم على وشك التجهيز لحريق الكنيسة بعد أنْ أعطاهم «بلاك «الأمر أو بالأخص « للجنبلاطي» الذي اجتمع بالإخوة بعد أن حصلوا على ما يكفيهم من السلاح بدار «السنباطي» ليخبئوه في داره محتفلين بشرب الخروب. وبينما هم يتحدثون أصغت «رئيفة» جيدًا إلى حديثهم وما شدهها إليه هو النار التي ستشتعل. وبدا «الجنبلاطي» يشرح كيف سيحرقون الكنيسة، كنيسة الكاهن «أغابيوس» لكي يصبح الأمر مفتعل ورد فعل طبيعي يجب أن يكون هناك فعل أيضًا، نظر إليه الإخوة مستغربين لماهية هذا الفعل ولم يكن سوى قتل الشيخ «لقمان» وإلقاء جثته أمام بيت الكاهن وإطلاق بعض الرجال في البلدة لإشاعة أن الكاهن قد قتل الشيخ وستندلع البلدة كلها خروجًا

سعيًا وراء الكاهن وهنا ستكون فرصة مناسبة لحرق الكنيسة. انبهر أنصار الجماعة من ذكاء «الجنبلاطي» الشديد وتخطيطه المتقن ممئنين إياه على نجاح الخطة مقدمًا بإذن الله تعالى ليغادر الجميع ما عدا «الجنبلاطي» الذي نظر إلى «السنباطي» قائلًا:

- لسه بتروح لغاصب.

أومأ«السنباطي» برأسه بعلامة الإيجاب فأعلمه الآخر أنَّه أصبح في حل من وعدة له وأنَّه يمكن أن ينفذ ما كان يريدة سائلًا عن أحوال زوجته التي أكَّد له الأخير أنَّه سيجبرها على ترك العمل لدى «رفقة» فأكَّد له «الجنبلاطي» أنَّ هذا قرار صائب مغادرًا الدار على أمل اللقاء لإعطائهم ميعاد تنفيذ المهمة بإذن الله.

انتظرت «رئيفة» حتي الصباح والنوم لم يزر جفونها حتي جرت على القصر فلم تجد «رفقة» لتجري على بيت الأيتام فلم تجدها بالمرة. سألت عليها عم «لبيب» الذي أكَّد لها أنها قد أخذت الست الكبيرة والدتها وابنتها مسافرة إلى مصر بسبب أنَّ الست والدتها قد أصابها التعب فجأة .

لم تعرف «رئيفة» إلى من تذهب أو إلى من تشتكي فقررت أن تشكو إلى المأمور لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه وما أن ذهبت إليه لم تجدة حيث إنه في مأمورية خارج القرية ولن يعود سوى بعد يومين فشعرت بأنَّه لا فائدة مما تفعله بالمرة وأنَّ عليها أنْ تنتظر بالقصر إلى حين عودة «رفقة» هائم من مصر وحل المساء وقد غلب «رئيفة» النعاس فنامت لتأتي «رفقة» في جنح الليل لتجد «شريفة» منتظرة إياها ومعها «مفيدة» لتطمئن على حالة ماما فطمأئنت الجميع أنَّ حالة والدتها بخير وأنَّ الأمر لم يتعدَ آلام العظام نتيجة الشيخوخة، وأنها لشاكرة اهتمامهما الشديد وتأخرهما حتى هذا الوقت لانتظارها للاطمئنان عليها بعد أن علما من» لبيب» أنها ستعود في نفس اليوم نتيجة اتصالها به وبينما هن في طريقهم إلى الخارج أيقظ «لبيب»«رئيفة» التي جرت مسرعة على بهو القصر صارخة موقفة الجميع لتسرد ما لديها. وما سمعته وبينما هي تتكلم سُمع صوت ضرب نار بالقرية ليبدو أنَّ المهمة بدأت وعلى أثر ذلك تم سماع صيحات غير مفهومة وهياج قوي على إثره نظرت «رفقة» إلى «شريفة»

التي اختفت لتخرج من حجرة المكتب ومعها بندقيتان واحدة لها والأخري «لرفقة». لم تمض دقائق حتي انطلق الجوادان «رعد» و«برق» مسابقين الريح يحملان «رفقة» و«شريفة» وكل منهما معها بندقيتها وبعض رجال الخدم بالقصر بينما انطلقت «مفيدة» تعلم الجميع ليهب كل الذين لديهم نخوة من الشرفاء بامتطاء خيولهم وحشو أسلحتهم والذهاب إلى كنيسة القرية لحمايتها. وعلى إثر تنفيذ الجزء الأول من المخطط ألا وهو قتل الشيخ «لقمان» بعيار ناري في الظهر وإلقائه أمام باب منزل الكاهن وإيقاظ البلدة كلها على أحداث الجريمة البشعة وحشد الجميع للهجوم على الكنيسة وحرقها بالكامل. حاول البعض تهدئة النفوس لإعطاء وقت لمعرفة الجاني الحقيقي ولكن كثيرين كانوا يشحنون أهل الكفر بأن لا يوجد أحد وراء تلك الأعمال سوى النصارى الذين يسعون إلى تحطيم راية الإسلام ليلهب ذلك مشاعر الجهلاء هاجمين على الكنيسة مخربين إياها وبعضًا آخر تمركز أمام دار الكاهن «أغابيوس» تحسبًا لأوامر مولانا «الجنبلاطي» حتي وصلت «رفقة» و«شريفة» إلى الكنيسة أولًا لتقوما بضرب النار فترك الحشد مكانه لدى بيت الكاهن متجهين إلى الكنيسة التي لا تبعد عن بيت الكاهن سوى بضعة أمتار يتقدمهم «السنباطي» و«الجنبلاطي» مطالبين بطرد النصارى من البلدة نهائيًا حتي وصلوا إلى الكنيسة ليشاهدوا هذا المنظر حيث اعتلت امرأتان الخيول مطلقتين النار فصرخ «الجنبلاطي»:

- عشنا وشفنا نسوان بتضرب نار .

تدخل» حسنين» قائلًا في حدة وعصبية زائدة وهو حاملًا بندقيته :

- هوانم يا كلب.

زعق «السنباطي» قائلًا:

- الكلب دة يبقي أنت وأمثالك مفيش هوانم ولا بهوات خلاص، الثورة قامت وكلنا بقينا زي بعض .

رد «أوطه» قائلًا من فوق حصانه :

- أهوه دة اللي كان ناقص جرابيع القرية هيعملوا رأسهم براسنا.

رأت «رفقة» احتداد الأمر فضربت طلق ناري في الهواء قائلة بصوت عالي جهوري :

- خلاص يا بلد نسيتم اللي وقف جنبكم السنين اللي فاتت دي، نسيتم مين إحنا، ماشي يا بلد هافكركم بنفسي أنا رفقة خياط مرأة المرحوم منير خياط اللي مات مقتول مع جعود ناظر الأنفار ومرأته معايا هنا يا بلد، يا رئيفة .

تقدمت «رئيفة» وسط أقدام الخيول ليراها «السنباطي» فيغلي الدم في عروقه عالًما الآن من الذي أبلغ الهوانم والبهوات، إنها هي تلك العقربة التي يجب تأديبها فتقدم منها ضاربًا إياها بالقلم قائلًا لها :

- صحيح فاجرة، ملقتيش حد يلمك يا مرأة، غوري على الدار.

قاطعته «رفقة» قائلة :

- وللأسف أنا اللي وافقت على جوازها من السنباطي أخو جوزها وكانت أكبر غلطة، استني يا رئيفة .

ترجلت» رفقة» من على جوادها لتخترق صفوف البشر آخذة بيد «رئيفة» قائلة:

- أنا وهي اترملنا بدري واللي قتلوا رجالتنا لغاية النهاردة مش معروفين ومعملناش حاجة إلا أنْ إحنا رفعنا إيدينا لربنا سبحانه وتعالى، مَحَرقناش ولا خرَّبنا ولا سَرقنا وانتقمنا من حد، أنا رفقة خياط اللي بنيت معاكم دار الأيتام اللي عمرها ما فرقت بين حد أبدًا والمستوصف اللي بيعالج أهل القرية الغلابة ببلاش والمدرسة اللي بتعلم ولاد القرية والبلاد اللي حوالينا وبنتي بتتعلم معاهم، كل دة هتنسوه، لو كل دة هتنسوه يبقي اتكلوا على الله وولعوا في الكنيسة، اخربوها.

نظر الجميع إلى بعضهم ليظهر الخجل على وجوههم منسحبين واحدًا وراء الآخر بينما «الجنبلاطي» يصيح قائلًا:

- ودم الشيخ لقمان هيروح هدر.

ظهر الكاهن «أغابيوس» مخترقًا الجمع صائحًا قائلًا:

يا أهل البلد بقي تصدقوا إني أنا أقتل الشيخ لقمان أخويا و صاحبي و كلكم تعرفوا

كدة ، بصوا حوالكم شوفوا مين اللي من مصلحته يضرب الشيخ و يحطه قدام باب بيتي ، لو أنا هاقتله هادفنه و أخفيه و الا أحطه على باب بيتي ؟

رد «السنباطي» صائحًا:

- الفُجر و العياذ بالله ، الفُجر يعمل أكتر من كدة .

توقف أهل القرية مرة أخري ليصيح الكاهن قائلًا:

- أيه اللي غيركم يا أهل الطين، فوقوا دي حرب علنا وعلى بلدنا، دة ثعبان ودخل وسطنا، إحنا طول عمرنا عايشين إخوة مع بعض بنفرح لفرح بعض ونحزن لحزن بعض ليه ولعة النار دي .

لم يكمل الكاهن كلماته حتي اخترقت رصاصة جمجمته ليقع وسط الناس لافظًا أنفاسه الأخيرة ولا يعلم من أين انطلقت الرصاصة لتنتهي تلك الليلة الكئيبة بفقدان اثنين من أشجع رجال القرية وأخلصهم، الصديقان الوفيان اللذان لم يتخيلا أنْ تكون نهايتهما بتلك الطريقة البشعة، ضحايا الإرهاب الطائفي الذي يريد السيطرة على القرية وكما العادة تفرق أهل القرية كما تجمعوا بينما أنصار «الجنبلاطي» فقد رأوا أنَّ ما حدث يكفي من تخريب بممتلكات الكنيسة ليعز عليهم أنها لا تزال قائمة، لكن لحربهم بقية وما لم ينته اليوم يستكمل غدًا والعمر لازال طويلًا وكالعادة أغُلقت قضية القتل على يد فاعل مجهول بحثوا عنه ولم يجدوه مطلقًا ليجد المأمور في «الجنبلاطي» صديقًا بعد أنْ تعرفوا على بعض في تلك القضية ليقوم «الجنبلاطي» بدفع مبلغ محترم إلى المأمور الذي خرج في مأمورية متعمدة للبعد عن البلد أثناء تنفيذ مخططهم وبعدها لم يعتمد شهادة «رئيفة» لشهادة زوجها إنها مختلة عقليًا، وآخرون من أنصار الجماعة شهدوا بنفس الكلام .

اقتنعت «رفقة» أنَّ من يقوم بعمليات القتل في قريتهم ما هو إلا شبح يقتل سريعًا ثم يختفي من الوجود بسرعة رهيبة أو يتبخر غير تارك أثرًا ما، أما المسكينة «رئيفة» فقد تلقت من العذاب ألوانًا على يد «السنباطي» الذي لم يرحمها واثقًا انَّها هي من سمعت حديثهم ونقلته إلى «رفقة» وعليه لم يبعث «بقمر» إلى المدرسة مرة أخري

مرسلًا إياها إلى بيت» الجنبلاطي» لحفظ القرآن وعند إتمامها سن الثانية عشرة ألا وهو سن الزواج سيعطيها لمولاهم الجنبلاطي زوجه لتلطم «رئيفة» لما سيصيب ابنتها بعد بضع سنوات، كيف ستتزوج من رجلٍ يضاهي أبيها في السن؟ ولربما أكبر وكيف ستحرم من ابنتها فلم تجد سوى «رفقة « لتلجأ إليها ولم تعرف الأخيرة أنْ تفعل شئ يذكر إلا الذهاب للسلطات الأمنية وعلى رأسها المأمور الذي لم يجد ما يفعله؛ فتلك ليست حاله اختطاف بالمعنى الصحيح حيث أنْ أبيها معها أو زوج أمها لذا في كلتا الحالتين هو الوصي عليها وأنَّ تلك المواضيع لا تحل إلا وديًا، فالقانون يعجز عنها ووجدت رفقة أنَّ القانون في مصر عاجز عن أشياء كثيرة ألا وهي أبسطها الحماية ومعرفة القتلة، فالقاتل حر والمواطن خائف حتي الموت.

obeikandl.com

-٢٤-

الموت يحيط بنا من كل ناحية يا هانم، أنا حاولت أبذل ما في استطاعتي لكن الوضع أكبر من احتمالي ، لازم نُبَلِّغ وزارة الصحة في مصر .

أنهي الدكتور «محسن» حديثه إلى مدام «رفقة» وهو لا يدري ماذا يفعل؟ فهو قد فعل كل شئ لاحتواء الأزمة التي يمرون بها منذ وقت قريب حيث ظهرت أعراض كثيرة للإسهال المفاجئ الذي يصيب الضحايا الذين تقدر أعدادهم بالعشرات. منهم من استطاع أنْ يعالجه ويسعفه وهناك من لم يستطع أنْ ينقذه بسبب قلة الإمكانيات بالمستوصف الخيري وانتظارهم مدة من الوقت إلى حين وصول العلاج من مصر، وهذا ليس بصالحهم لتستفسر منه «رفقة» ومعها من هوانم عن تخوفه الزائد هذا، فأبلغهم الطبيب أنَّه يخشي من أنْ يحدث مثلما حدث في أواخر القرن الثامن عشر بمصر، إنَّه يخشي أنْ يواجهوا كارثة «الكوليرا» مرة أخرى بقريتهم، قرية الطين. ظهر الرعب على كل الأمهات الجالسات مستمعات إلى تعليمات الدكتور «محسن» الذي بدأ في إلقاء النصائح من تطهير لجميع مصادر مياه الشرب والطهو وخلافه وأن يقوموا بتطهير المنازل جيدًا ويشرعوا في فرض حملة توعيه على جميع سكان القرية من عدم الاقتراب من مياه الترعة حيث أنَّ نسب الإصابة «بالكوليرا» من مصادر المياه الملوثة يمكن أنْ يؤدي إلى تفاقم حالات المرض سريعًا وعدم احتوائها وأنَّه من ناحيته قد قام بالاتصال ببعض أصدقائه الأطباء بمصر الذين تطوعوا للمجئ والمساعدة بكل

إمكانياتهم في علاج الحالات المصابة حيث أنَّ من المحتمل تضاعفها خلال الأيام القادمة إذا لم يتم توعية الأهالي سريعًا. إنَّ الخطرَ محدق وإنْ لم يتم التعامل معه بحذر ستكون العواقب وخيمة وغير محمودة فآخر مرة زارت «الكوليرا» مصر حصدت الآلاف والله أعلم ماذا يمكن أنْ يحدث تلك المرة .

انتشرت الأخبار المزعجة القاتلة بطول القرية وعرضها ليبدأ الأهالي في السقوط واحدًا تلو الآخر والمستوصف الخيري لم يعد يحتمل لتكدسه وأصبح الأمر صعبًا للغاية حتي مع قدوم الأطباء من مصر للمساعدة في درء هذا الوباء الذي لا يعرفون كيف أصاب أهالي القرية مرة واحدة، حتي أنَّ بعض الأهالي اعتقدوا أنَّ تلك لعنة موت «المربوطة» بالترعة غرقًا حيث آمن بذلك كل من شارك في موتها. وهناك من ارتكنوا إلى أنَّ السماءَ ترد بشراسة وقوة على موت الرجلين الوفيين الشيخ والكاهن وانتشرت العديد من الافتراضات والأفكار، ولكن بقي شئ واحد ألا وهو حصد الأرواح «بالكوليرا» ذلك الوباء الشرس الذي لا يعرف الرحمة بينما أرسلت وزارة الصحة المصرية مساعدتها والإعانات الطبية اللازمة لتغلق القرية على أهلها معلنة حالة الحجر الصحي إلى أنْ تتم السيطرةُ على الوباء. وانتشر رجال التطهير الذين عملوا على تطهير المصارف والمساقي والبيارات الخاصه بالصرف الصحي .

ازدحمت الطرقات بالمرضي وتم فتح أبواب الجامع والكنيسة لاستقبال الحالات المرضية لعدم وجود أماكن كافية مما جعل «رفقة» يَرِقْ قلبها بشدة لما تراه فقامت بعزل أمها وابنتها في أحد الغرف بالقصر بعد تطهيرها كاملة لتقوم بفتح أبواب قصرها واضعة خدمها لخدمة المرضي واستيعاب الجميع مما جعل الأطباء يجدون براحًا ما بعده براح شاكرين إياها ويشرعون في علاج الحالات المصابة بقصر «خياط» باشا ليصبح مستشفي إلى كل أهل البلدة غير مفرق بين أحدٍ وكل من يستطيع المساعدة يذهب إلى هناك. حتي اقتحمت سيدة القصر تحمل طفلًا على يدها تصرخ بأنَّ ابنها قد أصابه الوباء ليقوم الأطباء بتهدئتها آخذين ابنها واضعين إياه داخل غرفة الحجر الصحي لمعالجته، بينما هي جلست تبكي وتولول وتنوح على ما أصاب ابنها

البكري مما جعل «رفقة» ترق لها فهي أم وتعلم جيدًا مشاعر الأمومة الحانية في وسط كل هذا الموت الذي يحول يحصد الأرواح بمنجله. ذهبت «رفقة» إلى الأم الثكلى محدثة من روعها آخذه بيدها إلى حديقة القصر لتشرب الشاي المعقم معها وبدأت تهدأ السيدة نوعًا ما لتستعيد قواها بعد تناول الشاي، لتنظر من حولها الحديقة الممتلئة بالمرضي النائمين على الأرض وخلية الأطباء و التمريض والخدم التي تجري ذهابًا وإيابًا لتقديم المساعدة والعلاج. سألتها «رفقة «عنها فصرحت لها السيدة أنَّها زوجة البكباشي لتنظر إليها «رفقة» بتمعن متذكرة إياها بصعوبة فهي قد تركت القرية منذ فترة كبيرة لتؤكد لها تلك السيدة حيث أنَّها بعد زواجها بظابط من الجيش ارتحلت معه إلى مصر ولم تكن تأتي إلى القرية كثيرًا حتي قامت الثورة المصرية ليرسلها زوجها إلى القرية حيث عائلتها لانشغاله بأمور الثورة مع مجلس قيادة الثورة. استمعت «رفقة» إلى كل هذا داعية لها ولزوجها بالخير والصحة ولم يمض وقت حتي أقبل أحد الأطباء مطمئنًا السيدة أنَّ ابنها سيتعافي بإذن الله لأنَّها قد أتت به في الوقت المناسب حيث تم احتواء «الكوليرا» وبدأيه علاجها والله كبير. شعرت السيدة أن روحها قد ردت إليها مرة أخرى فهي خافت كل الخوف أنْ يحدث شئ لابنها البكري فهي لا تدري ماذا يمكن أنْ تقول لأبيه البكباشي الذي ترك الفتى ابنها أمانة في رقبتها حتي يعود واجدًا إياه جثة هامدة. انتصبت السيدة مُقَبِّلةً «رفقة» بطريقة عفوية لتظهر على وجهها ابتسامة كبيرة بهجة فرح السيدة بنجاة ابنها الذي استقر بقصر «رفقة» لمدة ثلاثة أيام تحت المتابعة لتسمح لأمه بمرافقته والمبيت لتخصص لها غرفة معاملة إياها أحسن معاملة حتي أنَّ السيدة لم تعرف كيف تشكر «رفقة» مؤكدة أنَّه سيأتي اليوم وترد الجميل إلى سيدة القصر الرحيمة «رفقة خياط» لتنطلق بها عربة الجيش وهي محتضنة ابنها و»رفقة» تودعهم. الأعداد القادمة إلى القصر من كل حدب وصوب لا تنتهي إنها تزداد ويبدو أنَّ «الكوليرا» اختارت قرية الطين لها مسكنًا لتستقر فيه زمنًا غير معلوم المدة والكل يعمل على قدم وساق لاحتواء المرض اللعين وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وفي المقابل تزداد أعداد الضحايا حتى أنَّ المقابر امتلأت وتكدست بالنعوش والأكفان، ليتم حفر مقابر جماعية لتستوعب

كمية الجثث تلك المصابة بالوباء وعزلها عن الأصحاء سريعًا. وأصبحت قرية الطين قرية الأشباح و«رفقة» تركض يمينًا ويسارًا من أجل المساعدة ومد يد المعونة إلى الأهالي والمحتاجين ولم يمر الوباء على دار الأيتام مرور الكرام بل قطف «طه» و«عانوئيل» و«مليكة» و«زينب» و«شيماء» غير مفرق ملاك الموت فكما زار قسم الأطفال المسلمين هكذا زار قسم الأطفال المسيحيين .

إنَّ أيام وباء «الكوليرا» لن ينساها أهل قرية الطين مهما عاشوا لفقدانهم الأعزاء والأحباب والأقارب والآباء والأمهات والأبناء، أيامًا عصيبة تركت بصمات الحزن على وجوه الجميع وفتحت أفواه القبور ملتهمة الجميع بلا تفرقة، ليدرك أهل القرية أنَّ من فرق بينهم جاء القدرموحدًا إياهم تحت وباء «الكوليرا». ذهب «الزعتلي» و«القلعاوي» و«عمرو» أفندي و«جاب الله» و«متوشالح» وأعداد ضخمة من أنصار الجماعة الملتحية وأعضاء طائفة «مستر بلاك» الذي هرب هو شخصيًا إلى مصر إلى حين يتم السيطرة على الوباء وتطهير البلدة. دخلت «رئيفة» على «رفقة» القصر وهي تخدم مثل الجميع آخذة البياضات لغليها وغسلها حتي شعرت بتعب رهيب ووجهها يبدو عليه الشحوب لتسقط أمام الطبيب و«رفقة» التي ما أنْ رأتها حتى ارتعبت جدًا لتجلس على الأرض بجوارها واضعه يدها تحت رأس«رئيفة» ليقوم الطبيب المسئول بالانغماس في علاجها ولم يمض يومان إلا وازدادت حالتها سوءًا و«رفقة» جالسة بجانبها تمرضها بنفسها حتى شعرت «رئيفة» بدنو الأجل ناظرة إلى سيدتها قائلة لها :

- شكرًا يا ست هانم على كل حاجة حلوة قدمتيها لي ولبنتي، كملي جميلك وانقذي قمر، اعتبريها زي بنتك يا غالية.

ارتعش جسد «رفقة» بأكمله وهي تستمع إلى «رئيفة» التي لم تنطق بعد هذا سوى الشهادتين و«رفقة» تجفف لها عرقها غير قادرة على استحمال الموقف ودموعها لم تفارق عينيها في صمت تام لتسلم «رئيفة» روحها بين يدي «رفقة» التي قبَّلتها بجبهتها مغطية وجهها بالملاءة البيضاء. أتي بعض الرجال حاملين إياها ذاهبين إلى حيث

تم دفنها مع المئات غيرها و»رفقة» تنزوي بحجرة مكتبها شاعرةً أنَّ روحها سلبت منها لتُخرِج زجاجة النبيذ محتسية منها على دفعة واحدة بينما وضعت أسطوانة «موتسارت « ألا وهي «قداس الموت» ليسمعها كل من بالقصر منفعلين معها وهي تبكي بشدة دافنةً رأسها بين راحتيها، لا تدري متي ستنتهي تلك المأساة .

- مأساة كبيرة وخسارة فادحة بكل المقاييس، الأول وباء وبعد كدة استصدار قوانين التأميم، أنا هاسيب مصر خلاص، دة قراري .

هكذا أنهى «حسنين» حديثه أمام كل من «رفقة» و»مفيدة» حيث انْقَضَت مدة الآن بعد قيام الثورة وانتهاء عصر الوباء، حاولت «رفقة» أنْ تثنيه عن عزمه، لكنها لم تستطع فيبدو أنَّه قد أخذ قراره بأنَّ مصر لم تعد مصرهم وأنَّ أيامهم قد انتهت وولت، ليس في القرية فقط التي استولى عليها بعض الملتحين الذين يخيفون الناس منذ انتهاء أيام الوباء مقنعين إياهم بأنَّ ما فعله الله بهم نتيجة شرورهم السابقة وأخيرًا رجال الجيش الذين سيصلون عاجلًا أم آجلًا إلى قريتهم لفرض قوانين التأميم مؤكدًا أنَّ هناك الكثير من رجال الجيش الذين استولوا على قصور العديد من البهوات والبشوات بدون وجه حق بحجة التأمين طاردين إياهم منها. ولا يريد أنْ يرى اليوم الذي يُطرد فيه من بيته، لقد عقد العزم على السفر إلى فرنسا وهذا قرار نهائي لا رجوع فيه حيث حصل على التأشيرات وفي خلال أيام سيأخذ زوجته وأبنائه مسافرًا ويلعن أبو البلد التي تأكل أبنائها .

لم تعرف «رفقة» بماذا ترد حيث تركتها عائدة إلى قصرها واجدة «غاصب» منتظرًا إياها وعلى وجهه أقصي علامات الغضب قائلًا بحدة:

- أنت لازم تديني القصر دة، أنا هياخدوا القصر بتاعي مني .

صمتت «رفقة» ناظرة إليه بذهول فيبدو هكذا أنّه أصابه الجنون المطلق ليتطرق في الحديث إلى نقطة أخرى قائلًا:

- هياخدوا مننا كل حاجة يا رفقة.

خرج «غاصب» وقد أصابه مس جنوني غير مصدق أنَّ ما أخذه بالغصب سوف

يذهب منه غصب وهذا هو حال الدنيا لمن يفهم. ظلت «رفقة» متابعة إياه بنظرها حتي اختفى من أمامها وهي لا تدري ماذا تفعل؟ هل تهرب من مصر مثل الذين سيهربون؟ أم تواجه مصيرها بشجاعة مثلما فعلت متذكرة أنَّ رسالتها لم تنته بعد فهي لا تزال لم تأت «بقمر» من براثن «الجنبلاطي» حتي أنَّها بعثت له «مراد» أكثر من مرهٍ عارضةً عليه نقودًا في مقابل تركه الفتاة المسكينة إلا أنَّه رفض والخوف كل الخوف أنْ يتزوجها فعلًا وتحدث الكارثة. حاول «مراد» الضغط على «السنباطي»، لكنه لم يصل إلى اتفاق معه ليظل حال الفتاة المسكينة معلق في يد الله القدير الذي لا ينسى صراخ المظلوم أو يتغاضى عن المسكين البائس .

- وبعدين أعَمِلَّكْ أيه دة حال البلد كلها، حال مصر .

لم يقتنع «غاصب» بحديث المأمور له فهو قد طلب منه المساعدة في الاحتفاظ بأرضه الزراعية من التأميم، فحاول المأمور إقناعه أنَّه لا دخل له في هذا مطلقًا وأنَّ أيامه قد ولت وعليه أنْ يقبل أنْ يترك بإرادته بدلًا من أنْ يصدر ضدة أمر بالاعتقال وتنتهي حياته داخل المعتقل. فطلب «غاصب» منه المساعدة فأعلمه المأمور أنَّ أيام مساعداته قد انقضت وراح حالها. إنَّهم الآن في عصر جديد وما كان يحدث بالماضي من شقاوة صعب أنْ يحدث الآن، إنَّهم كلهم مراقبون وعندما لم يجد «غاصب» فائدة تذكر من استعطاف واستجداء المأمور لمساعدته هدده بأنه سوف يفضحه كاشفًا أسرارهما الكثيرة فهو لن يسمح له بالهروب بما أخذه منه على مر السنوات السابقة بينما رجال التأميم يأخذون منه كل شيء، ذاهبًا متوعداً إياه بينما المأمور جالس على مكتبه مُخرج علبة السجائر الذهبية آخذًا آخر سيجارة منها مقتنعًا أنَّ صديقه القديم قد أصابه الجنون وإذا نفذ ما يقوله فيمكن أنْ يطيح بهم فعلًا؛ لذا وجب التخلص منه إلى الأبد وأنَّه يعرف أحسن طريقة للتخلص من هذا الشخص المزعج ولن يمد يدة بالأمر أبدًا بل سيجعل شخص مزعج مثله ينهي عليه لتظهر على وجهه ابتسامة خبيثة .

- خبيثة تلك الحياة التي تأخذ منا ما تعبنا فيه بحق إننا لسنا جديرين به .

ارتكن عقل «رفقة» إلى هذا المبدأ بعد أن وصل قرار بتأميم المدرسة وبيت الأيتام وجمعية نساء الصعيد والمستوصف الخيري وبعد التوصل إلى أبناء الخير ممن لهم علاقات مع الجيش من قريب أو من بعيد للنظر في الأمر بعين الشفقة والرحمة لتسمح الإدارة المختصة بإعطاء مدام «رفقة خياط» فقط الإشرف على المدرسة وجمعية نساء الصعيد حتى انتقالها من هذا العالم لتعود إدارتها إلى الدولة المصرية المتحدة. ورضخت «رفقة» غير واجدة حلولًا أخرى فبالأمس كانت تلك المشاريع تخصهم والآن ذهبت كلها سامحين لها فقط بالإدارة ولله الحمد. وما غاظ «رفقة» أنَّ التأميم لم يذهب إلى مشاريع الخواجة الخيرية فلم يؤمم بيت «بلاك» للأيتام مثلًا. تفرقت العزوة و ختفي الكثير من الأحباب الذين فضلوا السفر عن الجلوس في ذلك الجحيم على حد وصفهم ليأخذوا ما استطاعو أن يأخذوه مهاجرين إلى الغرب البعيد البارد تاركين الشرق القريب الدافئ. و»رفقة» تري كل من حولها يسافر و يهاجر حتي تبقت هي بمفردها مع ابنتها وأمها ولم يبخل القدر عليها حتى ترك لها «شريفة أوطه» التي استطاع زوجها بحال أو بآخر أن يبقي على قدر كبير من أملاكه وهكذا شاركت «شريفة» رفقة في السرَّاء والضرَّاء لتتغير خريطة القرية من حولهما، وتحل عليهما لجنة التأميم التي من ضمنها ظابط بالجيش مهم أعجبه قصر «خياط» باشا لرونقه وجماله ومعماره طالبًا تأميمه لصالحه لتنتفض «رفقة» فهي قد حاربت «غاصب» ضد الاستيلاء عليه مدة من الزمن ليأتي الآن ذلك الرجل الغامض من الجيش ليأخذ القصر في غمضة عين بحجة التأميم ليصبح استراحة لضباط الثورة. أي ثورة التي تسلب الناس بيوتها، وقفت «رفقة» تدافع جهارًا أمام لجنة التأميم التي استقرت بمكتب المأمور تستمع إليها بغير اهتمام حتى وصل صوتها إلى سيدة قد أتت إلى زيارة أخيها الذي من ضمن ظباط لجنة التأميم وما أنْ وقعت عيناها على «رفقة» المنهارة تمامًا تبكي وفي يدها قرار تأميم القصر ودموعها على وجنتيها شاعرةً بالقهر الأليم و الحزن العظيم لفقدان آخر أمل لها في عائلة «خياط» لتنظر إليها السيدةَ بعطفٍ بالغٍ ويبدو أنَّ»رفقة» لم تتذكرها فقامت هي بتحيتها وتذكيرها بها

سائلةً إياها عن حالها وسبب بكائها، لتسرد لها «رفقة» كل ما حدث معها وأنَّها عليها إخلاء القصر نهائيًا في خلال ثماني وأربعين ساعة .

رَقَّ قلبُ السيدة زوجة البكباشي أنْ تري تلك السيدة العظيمة يحدث معها مثل ذلك فاختلفنا أم اتفقنا أنَّها من عصر بائد يجب إصلاحه وليس محوه إلا أنَّ ما فعلته لها «رفقة» لا يصفه عقل أو يتخيله إدراك لتأخذ منها الورقة التي لا تساوي شلن التي أضاعت حقها في القصر لتنفرد بأخيها شارحة له ما حدث فلم يعرها اهتمامًا؛ لأن ما كتب قد كتب فانفعلت عليه ذاكرة أنَّها ستحيل الأمر إلى البكباشي زوجها بمصر وسنرى إلى من ستكون الغلبة متحدية أخيها الذي قبل التحدي. عاشت «رفقة» أقسى يومين في حياتها وهي لا تصدق أنها يمكن أنْ تطرد بمثل هذه الطريقة المهينة من قصر «خياط» باشا. ألا يكفي تأميم الأراضي الزراعية وتجميد الأرصدة البنكية إلى حين إشعار آخر، ولكن يريدون أخذ القصر أيضًا. حاولت طلب مساعدة «أوطه» الذي أغلق الباب في وجهها فهذا عصر أُنقِذْ نفسك فقط ودع الآخرين يغرقون و»شريفة» لا تعرف ماذا تفعل لمساعدة صديقتها الوحيدة .

- وقف «السنباطي» أمام المأمور بمنزل «الجنبلاطي» لا يصدق ما سمعه بالمرة حيث وضع المأمور علبة السجائر الذهبية الخاصة «بغاصب» المحفور عليها اسمه ذاكرًا أن صاحب العلبة هو الذي قام بقتل أخيه وعندما واجهه «السنباطي» سائلًا لمَ لم يخبره في كل تلك المدة السابقة؟ ذكر المأمور انَّه كان يخشي أنْ يفلت الزمام منه ويقوم بقتل «غاصب» فسأله «الجنبلاطي» عن سبب إخبارهم بهذا السر الآن؟ بالذات فأشعل المأمور سيجارة ذاكرًا أنَّه يريد أنْ يقابل ربه بضمير مستريح تاركًا البلدة بسلام؛ فقد تم نقله إلى الإسكندرية ليشكره «السنباطي» و»الجنبلاطي». غادر المأمور في حاله ذلك الخبيث المتلون الذي هدم المعبد على الجميع وهرب هو بأمان ولأجل خاطر العيش والملح وأن يحرق دم «غاصب» أرسل له خطابًا يعلمه فيه أنَّه قد تم نقله وأنه بطريقة أو بأخرى قد أعلم «السنباطي» أنَّه هو الذي قتل أخاه «جعود»، ليتم ما توقعه هذا الخبيث حيث ترك «غاصب» الجمل بما حمل وهرب ذلك الجبان ناجيًا بحياته من أمام

«السنباطي» الذي أسلم ابنته في يد «الجنبلاطي» معطيًا إياها وصيته الأخيرة إذا لم يعد بأن تطيع عمها «الجنبلاطي» الذي سيصبح يومًا ما زوجها. فأبت الفتاة طالبة أنْ تذهب إلى ماما «رفقة» فقد علمت أنَّ أمها توفيت في الوباء ولا يوجد لها الآن سوى «رفقة» كما روت لها أمها التي كانت تراها من حين لآخر وهي خارجة من الكُتَّاب مع زوجة «الجنبلاطي»، لتستعطفها كامرأة وأم أنْ تتحدث مع ابنتها وبعد ضغط وإلحاح تسمح لها لتقول لابنتها كم هي تحبها وأنَّه ليس بإرادتها وأنَّ الست «رفقة» هانم تسعى لإرجاعها إلى حضنها، ولكن القدر لم يمهل الجميع فإذا «بالسنباطي» يصفع الفتاة مُذكرا إياها أنْ تنسى أمر تلك االعاهرة المدعوة «رفقة «تاركًا إياها ذاهبًا في إثر المدعو «غاصب» الذي علم أنَّه هرب وترك البلد لتبدأ رحلة التتبع ويختفيا من قرية الطين إلى الأبد .

البلد هادئة يا أفندم والحال مستتب، لكن في تلغراف وصل من مجلس قيادة الثورة.

أمسك ظابط الجيش المختص بلجنة التأميم التلغراف منفثًا دخان سيجارته بغيظ ومن ثم ترك النقطة ذاهبًا إلى بيته حيث أخته طالبًا منها الذهاب إلى «رفقة» وإبلاغها بالخبر فهبت السيدة مسرعة على جناح السرعة بالذهاب إلى قصر «رفقة»، حيث استعدت الأخيرة للمغادرة بالفعل حازمة حقائبها وبجانبها ابنتها وأمها المقعدة الجالسة على كرسي متحرك لتلتفت ابنتها إلهما ماسكةً إياها من فستانها لتنظر إليها «رفقة» نازلة إلى مستواها لتقول الفتاة في وداعة :

- هو إحنا هنسافر يا ماما؟

لمعت عينا «رفقة» ناظرةً إلهما بحنان أموي قائلة :

- أيوا يا حبيبتي، مش هنرجع القصر تاني .
- طب وهنروح فين .
- هنروح مصر .
- بس أنا مش عايزة أسيب القصر وأصحابي في المدرسة .
- لازم يا حبيبتي نسيب هنا، معلش.

بكت الفتاة بحرقة بينما أمها تحاول تهدئتها تاركةً إياها لجدتها بينما صافحت الخدم وعلى رأسهم «لبيب» الذي بدا عليه التأثر الشديد. سمعت «رفقة» فرامل عربة تقف في حديقة القصر لتجد زوجة البكباشي أمامها فتسألها عن سبب مجيئها لتُخْرِجْ السيدة ورقة جديدة معطية إياها إلى «رفقة» التي أخذتها ودموعها لا تزال آثارها واضحة على وجنتيها فلم تستطع أن تقرأ بوضوح ومن ثم هدأت عيناها لتراها بوضوح فتتبدل ملامحها لفجأة آخذةً السيدة في أحضانها التي قالت وهي فرحة :

- عمرنا ما نقطع أيد الخير أبدًا يا هانم ولو حصل معاك أي مشاكل كلميني على طول، بعد إذنك علشان لازم أسافر مصر حالًا.

حيّت السيدة «رفقة» مودعة إياها مقبّلتين بعضهما بعضًا لتغادر داخل عربة الجيش مشيرة لصديقتها الجديدة «رفقة هانم خياط» التي رجعت إلى ابنتها حاملةً إياها بفرحٍ مُقَبّلَةً إياها ليركضا وراء بعضِهما بالقصرِ.

- قصر رفقة هانم خياط، دة الهدف بتاعنا يا إخوان.

نظر الإخوة إلى بعضهم باهتمام مستمعين إلى «الجنبلاطي» الذي أعلمهم بخطته القادمة ألا وهي القضاء على «رفقة» وسرقة قصرها، تلك السيدة التي لا ينسى ثأره معها حيث هي التي أفسدت خطة حرق الكنيسة واستطاعت أنْ تذله أمام أهل البلدة جميعهم. حاول بعض الإخوان التاثير على «الجنبلاطي» للعدول عن هذا العمل حيث أنَّ الست لم تبخل أيام الوباء بمساعداتها لأهل البلد جميعًا لينتفض «الجنبلاطي» صارخًا قائلًا:

- وهو ليه ربنا سبحانه وتعالى أصابنا بالبلاء والوباء، ما هو علشان سبناها أول مرة ولو سبناها تاني هيزورنا الوباء تاني .

ارتعب الرجال عند سماعهم احتمالية زيارة الوباء لهم مرة أخرى ليتفقوا على أن يبيدوا «رفقة» ويحرقوا القصر عن بكرة أبيه ليبتسم «الجنبلاطي» داعيًا إياهم إلى فعل هذه العملية الليلة فخير البر عاجله. وهكذا انتصف الليل لتشعر «رفقة» بحركة غريبة تحدث حول القصر حيث جلست تحتسي النبيذ بغرفة مكتبها كعادتها لتسمع

أصوات غريبة. أخذت بندقيتها المحشوة وخرجت خارجة ترى ما يحدث حتى لمحت رجالًا ملثمين يقتحمون السور الخارجي للقصر فقامت بالصراخ وإيقاظ كل من بالقصر فهب الخدم سريعًا لتعطيهم «رفقة» أمرًا بغلق جميع الأبواب الداخلية للقصر فهرعوا منفذين الأمر غير عالمين إلى أي مدي يمكن أن تصمد الأبوا ب. بينما صعدت «رفقة» إلى سطح القصر لترى جمعًا كبيرًا قد عبر السور بالفعل متجهين ناحية القصر فأطلقت النار في الهواء لعلهم يتفرقون فتوقفوا قليلًا عن الزحف ليبادلوها إطلاق النار مما دعاها إلى الانبطاح والزحف حتى وصلت إلى قفص به حمامة بيضاء مميزة مطلقة إياها حيث ستصل إلى مبتغاها بسرعة شديدة. انتصبت «رفقة» آمرةً الخدم أنْ يحملوا أي شئ ليدافعوا عن القصر فهرع الخدم إلى حمل السكاكين وكل الأسلحة البيضاء الحادة للدفاع عن أنفسهم. بينما قامت بتأمين ابنتها مع أمها في غرفة واحدة بجانب السطح في حالة إذا هجم المسلحون ستكون هي حائط السد الأخير ضد ابنتها وأمها المقعدة، لتصعد مسرعة إلى السطح لتجد الرجال قد وصلوا إلى البوابة الداخلية للقصر فبدأت تطلق النيران، ولكن تلك المرة ليس عشوائيًا بالمرة بل في الصميم مصيبة إياهم في أقدامهم وأكتافهم وهم غير قادرين على اصطيادها مما جعل بعضًا منهم يتراجع بينما أقدم البعض الآخر لتنفيذ أوامر مولانا «الجنبلاطي» التي إذا لم تنفذ تلك الليلة يمكن أنْ يقتلهم هو بيده. بينما «رفقة» تصطادهم مثل الذباب من فوق السطح حتى استطاع الجمع أنْ يخترقوا القصر لتبدأ ملحمة أخرى بالداخل حيث اشتبك الخدم مع الرجال المسلحين، لتهبط «رفقة» وهي تحشو بندقيتها حتى رآها أحد الملتحين، فقام بضربها بالنار لتصيبها رصاصة بكتفها لينطلق نهر دم من ذراعها لتتحامل على نفسها مكملةً حشو بندقيتها لتبدأ في إطلاق النار من جديد محاولة التصويب بدقة شديدة وهي ترى أغلب الخدم يتساقطون الواحد تلو الآخر حتى طعُن «لبيب» بصدره ليمتلئ بهو القصر بالدماء وينشغل أناسٌ بالقتال وآخرون بالسلب والنهب لترى «رفقة» أنَّ من عليها أكثر ممن كانوا معها. لتصعد حيث تركت أمها وابنتها والمسلحين يصعدون ورائها.

استمعت «رفقة» إلى صراخ ابنتها من الداخل وأمها أيضًا لتفتح باب الحجرة مطمئنة

إياهم أنَّ كل شيء على ما يرام لتصرخ ابنتها بها وهي تشاهدها غارقة بدمائها ولا تستطيع أنْ تفعل شيء راكضة نحوها لتقبلها أمها قائلة لها:

- اعرفي حاجة واحدة إنك من عائلة خياط وإني بحبك جدًا.

قبلت «رفقة» ابنتها لتغلق الباب تاركة ابنتها تبكي بحرقة. أما هي فقلبها يتمزق لسماع ابنتها ودموعها تنساب في صمت والآلام قد اكتنفتها حتى بدأت تشعر بالإعياء نتيجة الدماء التي فقدتها بغزارة. لتقف وقفتها الأخيرة أمام باب الحجرة تحمي ابنتها وأمها وعبر أول شخص في بداية الطرقة التي تقف هي بآخرها حامية الباب لتطلق النار عليه بدون تردد والثاني والثالث ليسقطوا فوق بعضهم، فتنبهوا إلى أن السيدة شرسة وقلبها يعوي طالبًا الدماء، دمائهم ليتجرأ بعضًا منهم للتقدم فلا يجد سوى رصاصة تستقر به، فهي بجميع المقاييس أسرع منهم في ضرب النار ولكن حتى متي؟ حتى نفدت ذخيرتها ليشعر شخصًا منهم بذلك، أما هي فقد عرفت أنَّ الخطوة القادمة لها هي أنْ تستخدم يديها العاريتين للدفاع، فرمت البندقية بعيدًا مستعدة للانقضاض على من تسول له نفسه فاتكة به لتشعر بألم حاد في يدها وعينيها تكاد تفتحها بصعوبة لتنكسر قوتها تلك الأم الشجاعة التي فعلت المستحيل حتي الآن من أجل الحفاظ على كل شيء، لكن يبدو أنَّ القدر ضدها في كل شئ، حاولت أنْ تتقدم خطوة لتسقط أمام الباب على ركبتيها مواجهة الرجال الملتحين الذين بدأوا في التقدم منها لتغمض عينيها طالبة معجزة من رب المعجزات الرحيم. وصوت ابنتها هو آخر شيء سمعته لتسمع من بعدة صوت ضرب نار بغزارة وحوافر جياد تجري مسرعة مخترقة حديقة القصر حيث صعدت بالحصان امرأة أخرى مخترقة القصر صاعدة السلالم حاملة بندقيتها المحشوة ضاربة النار بغزارة على الجميع ليسقط الملتحون. يساعدها في ذلك أكثر من مائة رجل مسلح لتنهي تلك السيدة على جميع من وقف أمام «رفقة « التي حاولت التمعن واستجاع قواها للنهوض والسير تجاه الحصان الواقف لترى أنَّ من تمتطيه ليست سوى «موزة هندي» يرافقها «فتح الدماغ» و»جزمة» لتقول لها «رفقة» في هدوء :

- أتاخرتي جدًا، كنا هنروح وراء الشمس .

ابتسمت «موزة» قائلة :

- ربنا كريم يا ست هانم.

سقطت «رفقة» مغشيًا عليها أمام حصان «موزة هندي» التي هرعت لنجدة الهانم بمجرد أنْ وصل الحمام الزاجل أو حمام النجدة إليها. فتلك وسيلة اتصالهما التي اتفقا عليها يوم أنْ كانت «رفقة» بالجبل لكي يكون لها رجال الجبل في وقت الشدة حماة فهم الآن حلفاء فهي تربي ابن ملك الجبل الذي لم يبخل عليها بالمساعدة في أي وقت. فبمجرد أنْ وصلت إليه حمامة النجدة كانوا حولها بقصرها طائرين على جناح السرعة مدافعين عنها وهذا أقل واجب يمكن تقديمه إلى سيدة رحيمة أحبت الناس وجاء الوقت ليحبها الناس أيضًا.

- جلست «رفقة» بحديقة قصرها بجانبها أمها المقعدة شبه نائمة على الكرسي المتحرك وقد قامت بإرسال ابنتها إلى فرنسا حيث «مفيدة» و«حسنين» لتكمل تعليمها هناك مبعدة إياها عن الخطر ويكفي ما رأته من رعب تلك الليلة بينما انقلبت السلطة الحاكمة على رجال الإخوان ليمسكوا بأعداد مهولة منهم ولم ينسوا «الجنبلاطي» لتجد «رفقة» ذات ليلة أحدٌ يطرق على باب القصر، ولم تكن تلك سوى «قمر» التي قامت «رفقة» باحتضانها متشممة بها رائحة أمها «رئيفة» العزيزة على قلبها لتقرر «رفقة» تربية الفتاة وها هي تجلس بجانبها بالقصر و«شريفة» أيضًا حيث بدأ الغروب الجميل يحل على قرية الطين لتختار «رفقة» أسطوانة «أديث بياف» واضعة إياها على الجرامفون لتدور الأسطوانة تحت الإبرة و ينطلق صوت «بياف» الملائكي يخيم على المكان و«رفقة» تحتسي النبيذ مع «شريفة» بينما أمامهما البندقيتان التي من وقت الحادثة لم تبرح أيديهما في أي وقت ليكونا مستعدتين. جلست «رفقة» تستمع في صمت عالمة أنَّ الأيام القادمة لن تكون بأقسى عليها مما سبق. لتختار أنْ تكمل أيامها في بلدها التي تعشقها بكل ما فيها مصر عامة وبالأخص قرية الطين. نظرت بجانبها لتقع عيناها على «قمر» التي تلعب مع «رعد» بالحديقة لتنظر «شريفة» إلى صديقتها سائلة إياها قائلة:

- حسيت بالندم بعد اللي حصل يا رفقة وسفر بنتك وبعدها عنك .

ابتسمت «رفقة» ناظرة إلى صديقتها بدون أنْ تنطق بكلمة واحدة مشيرة إلى الجرامفون لتركز» شريفة» فيما تقوله «بياف» بالفرنسية الحانية لتأسر القلوب والعقول وتبتسم ممدة ظهرها على الكرسي الخشبي مثل صديقتها مشاهدة الغروب الخلاب مستمعة إلى أغنية «بياف» الساحرة القائلة:

- لن أندم على شيء أبدًا مهما حييت .

ذهب من ذهب و أتي من أتي، ولكن في نفس اليوم من كل عام يجتمع سيدتان إحداهما تقرأ الصلاة الربانية الأخرى تقرأ الفاتحة أمام صورة سيدة جميلة موضعة على قبرها.

و السيدتان ليستا سوى «ماري» التي تحضر من فرنسا كل عام في نفس ميعاد ذكرى وفاة والدتها والأخري «قمر جعود» التي اعتبرت «رفقة» أمها حيث لا تعلم قبر أمها الحقيقية «رئيفة» ويكفي ما صنعته معها ماما «رفقة» حيث تركت لها في وصيتها خمسة أفدنة زراعية، ومبلغ مالي محترم تلك هي المرأة التي صنعت تاريخ من وجهة نظر ابنتيها ومن وجهة نظر محبيها. نقشوا على شاهد قبرها .

هنا رقدت السيدة صانعة الرحمة

رفقة هانم خياط

obeikandi.com

عنوان الكتاب	تصنيف	اسم الكاتب	سنة
أريج الجذور	رواية	رامى عباس	٢٠١٣
مازالت الأشواك بجسدى	رواية	نادية البرعى	٢٠١٣
إلا الآن	ق.ق	سهير شكرى	٢٠١٣
امرأة وحيدة أحبتنى	ق.ق	مصطفى ثابت	٢٠١٣
رئيسًا لمدة ١٢ دقائق	ق.ق	أسامة الحسينى	٢٠١٢
أميرة الدموع	رواية	محبوبة سلامة	٢٠١٢
بعث رُوّي	تاريخ	عادل خميس	٢٠١٣
أيُووووه يا بيسو	ساخر	قدرى نوّار	٢٠١٣
فيها لامؤاخذة حاجة حلوة	ساخر	خالد بيومى	٢٠١٣
هيدرا .. رياح الشك والريبة	تاريخ	زهير الكاشف	٢٠١٣
رفاهية الألم	فلسفة	سالم ابراهيم سالم	٢٠١٤
عالم بلا مخلِّص	فلسفة	سالم ابراهيم سالم	٢٠١٢
عربانيين عيون	شعر.ع	نور الدين الشريف	٢٠١٢
الحكاية	شعر.ع	احمد نصر	٢٠١٢
ألم واحد	شعر.ع	م.شعراء	٢٠١٢
قوللى إنت مين	شعر.ع	نادر عبد المنعم	٢٠١٢
خاطرة من الجنة	شعر.ف	يسرية سلامة	٢٠١٢
بريد الكحل واغرباء	شعر.ف	رشا زقيزق	٢٠١٢
نقوش على خرز أزرق	شعر.ف	سامح سكرمة	٢٠١٢
حجات عنيدة	شعر.ع	نور البنا	٢٠١٢
الاستنزاف التاريخى للفائض الإقتصادى	اقتصاد	محمد مدحت	٢٠١٣
نظرة	ق.ق.ج	نور الدين الشريف	٢٠١٣
حديث الديناصور البنفسجى	نصوص	نتاج ورشة أدبية	٢٠١٣
رحلة اليقين	فكر	محمد عبد الغنى	٢٠١٣
الحياة فى البلاط الملكى المصرى	مترجم	الفريد جوشوا باتلر	٢٠١٣
هذيان كل يوم	ق.ق	مأمون المغازى	٢٠١٣
رامى مراد والغابات الكونية	رواية	مأمون المغازى	٢٠١٣

مكتوب	شعر.ع	محمدحسين	٢٠١٣
شوشو والقناية	أطفال	فضل مسعود	٢٠١٣
كوكو ابوعرف دوكو	أطفال	فضل مسعود	٢٠١٣
بوتشر كلب الأسد	رواية	فضل مسعود	٢٠١٣
حنين	رواية	سهير عبد الله	٢٠١٤
كاترينا	أطفال	عبد الله لخليفلى	٢٠١٤
فورمالين	ق.ق	شريف الغنّام	٢٠١٤
ألف نيلة ونيلة	أدب ساخر	أحمد السعيد	٢٠١٤
بين الحب والحرب	رواية	محمد عزب	٢٠١٤
انسان حكيم ناجح	تنمية بشر	خالد عمارة	٢٠١٤
وجفت البئر رسالة الى امرأة	نصوص	هانى عثمان	٢٠١٤
نوكيا	رواية	باسم سليمان	٢٠١٤
قصر غيلان	رواية	احمد بن عمارة	٢٠١٤
الأنفوشى	رواية	محمد عزام	٢٠١٤
موضوع	شعر	مصطفى فؤاد	٢٠١٤
مقامات الكيلانى	ادب ساخر	ماجد هاشم	٢٠١٤
روشتات شعرية	شعر	أحمد السعيد	٢٠١٤
الملكومانيا	أطفال	رضوى عادل	٢٠١٤
زوجات وأكروبات	م.قصصية	نادية البرعى	٢٠١٤
الأنفوشي	رواية	محمد عزام	٢٠١٤
مات حبا و عدوه انتحارا	شعر.ف	أحمد إبراهيم	٢٠١٤
اعترفي بيا	شعر.ع	محمود محمد حسن	٢٠١٤
رحلة فى صدر الأبدية	م.قصصية	بهاء الدين يحيى	٢٠١٤
قوارير	ق.ق.ج	شيرين طلعت	٢٠١٤
سكارلت	ق.ق	عمر كمال الدين	٢٠١٤
أرض رشيدة	رواية	عمر أحمد سليمان	٢٠١٤
أقفال العشق	رواية	محمد عزب	٢٠١٤

ستريتش	رواية	نضال كرم	٢٠١٤
لا تذهب للطبيب النفسى	انسانيات	وهبه نور الدين	٢٠١٤
حظر إرادة	تنمية بشرية	نهى مجدى	٢٠١٤
ميكرسكوب	أدب ساخر	ايمان ابراهيم	٢٠١٤
تغريبة لبغداد	شعر .ف	سامى طه	٢٠١٤
أسس قيام العراق	تاريخ	سامى المبارك	٢٠١٤
فاوست مصرى	مسرحية	محمد بهاء الدين	٢٠١٤
مقالات الزهور	انسانيات	نور الدين الوافى	٢٠١٤
مدام خياط	رواية	سمير ذكى	٢٠١٤
سرابيل	م.ق.ج	هشام أبو سعده	٢٠١٤
قلقاس بن فرناس	رواية	عمر البدالى	٢٠١٤
استرجل واقرا ١٠ كتب	تنمية بشرية	باسم الجنوبى	٢٠١٤
سرابيل	ق.ق. ج	هشام ابو سعده	٢٠١٤
الخطايا	رواية	لويزة الجبالي	ط
حكايات ممنوعة	ق.ق	لويزة الجبالي	ط
نقوش الباسم	خواطر	باسم عوض الله	٢٠١٤
فينوس	رواية	ابراهيم السيد	٢٠١٤
آخر وريقات التوت	شعر .ع	عمرو عصام	٢٠١٤
أنين اوسر	تاريخ	عادل خميس	٢٠١٤
التحليل الجغرافي للأدب	نقد أدبي	جهاد ابو اسماعيل	٢٠١٤
حاج في مكة	مترجم	آرثر ويفل	٢٠١٤
مبعثرات على طاولة القدس	مسرح	حسام قنديل	٢٠١٤
طه في باريس	رواية	عاطف يوسف	٢٠١٤

١٦٥٨٠/ ٢٠١٤ط١

الترقيم الدولى / ٤- ٨٩ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مطبعة ابراهيم سالم

٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢ - ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

احصل على نسختك من إصدارات الدار من المقر بخصم ٣٠٪

obeikandl.com